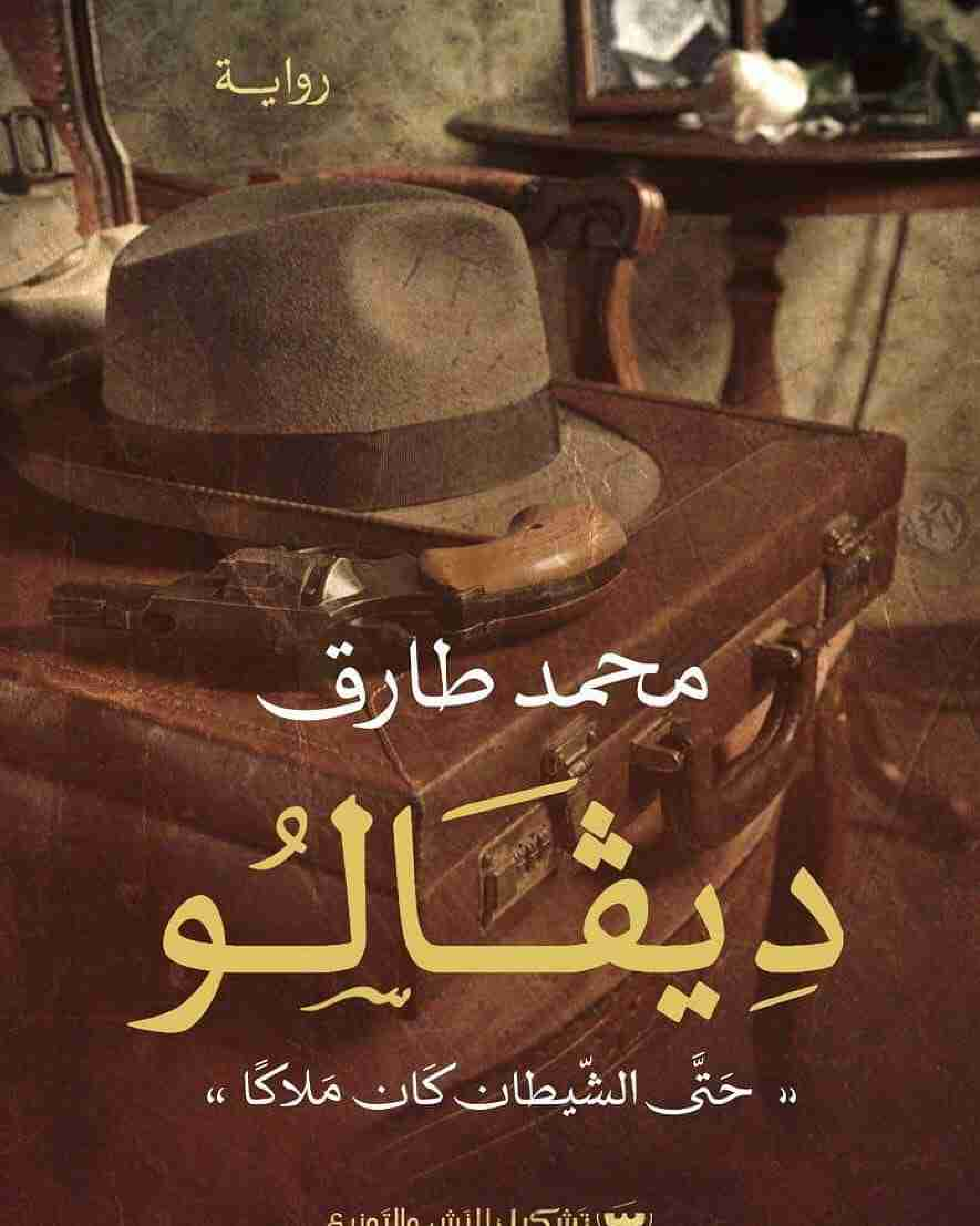


روايـة
محمد طارق
دِيڤالُو
" حتّى الشّيطان كان ملاكًا "
تشكيل للنشر والتوزيع

إلى هيثم



رواية

محمد طارق

المقدمة

عزيزي القارئ:

لماذا أناديك بـ عزيزي وأنا لا أعرفك، ولا أهتم بمعرفتك من الأساس؟! ولماذا أصفك بالقارئ وقد تكون أجهل من قراءةِ حرفٍ واحد، وأقصى ما وصلت له من علم هو حدود بلدتك؟! إن العلاقة بيننا واضحة وصريحة، أنا كتبت منُ أجل تخليد اسمي في تاريخ الأدباء والمفكرين أولًا، ثم انتظار المقابل المادي البسيط، وأنت اشتريت هذا العمل لأنك تُحب كتاباتي أو لتُهديه لأحدِ أصدقائك مرغمًا وأنت لا تطيق سماع اسمي أو لأنك اشتريته لتتصيد أخطائي في الكتابة، ومن ثمَّ تُشكك في أعمالي ونجاحي، وتكتب نقدًا كاملًا عني، وتتهمني بالإسفاف والابتذال الأُدبي.

أزعجتك هذه المقدمة أليس كذلك؟

هذه طبيعتنا البشرية التي تجعلنا لا نتقبل حقيقة الأشياء، نحب تزيينها، وتغليفها بالكلمات المعسولة لنتقبلها، التي تكون وفي كثيرٍ من الأحيان... كاذبة!

كم كلمةِ حبٍ مرت علينا فصدقناها، ومع مرور الوقتِ اكتشفنا خُبثها وكذبها فتحطمت وانكسرت قلوبنا، كم وعدٍ صدقناه وآمنا به، ومع المواقف اكتشفنا زيف الوعود، وإننا وثقنا في أشخاصٍ مخادعين؛ استغلوا مشاعرنا، واحتياجنا فقط لتسلية أوقاتِ فراغهم، كم شخصٍ ابتسم لك ابتسامةَ ودٍ وهو في الحقيقة يكن ويُدبر لك مكيدةً تهزمك وتطيح بحياتك، كم مرةٍ عاهدك شخص أن لا يتخلى عنك ويدافع عنك أمام الناس، ثم اكتشفت أن هزيمتك الوحيدة كانت من ذاك الذي عاهدك بالدفاع عنك.

نحن لا نصدق الحقيقة لأنها توجعنا وتسحق توقعاتنا الجميلة، ونقبل الكذب لأنه يرضي مشاعرنا وغرورنا، ويرفع من سقف طموحاتنا وتوقعاتنا، لذلك إن كنت من أولئك الذين يسهُل خداعهم بالكلمات، ولا يمكن لعقلك إدراك أن في الحياة ثمة مواقف أصعب مما تتخيلها، فلا تقرأ هذه الرواية لأن بعض الحقائق والأحداث ستصدمك، وتُغيِّر بعض مفاهيمك وأفكارك، وبعض المواقف ستجعلك تضع سكينًا تحت وسادتك؛ منتظرًا لحظة الهجوم عليك حتى تدافع عن نفسك حتى من أقرب المقربين لقلبك، وفي النهاية تجنبًا لإضاعة مالك ووقتك، ولأنني كاتب لا يقبل النقد في القصص المذكورة في أعماله، لكن وبكل تأكيدٍ لك حق النقد في أسلوب السرد.

وجودك هنا يعني موافقتك بشكلٍ مبدأي على الانضمام لعائلتنا الكبيرة، هنا ستجد حزنك يتحدث معك، تسمع صوت مأساتك، وترى كل الأشياء المؤذية التي حطمت قلبك وهي تدافع

عن نفسها، هنا لن تشعر بالغربة؛ فكلنا نشعر بالغربة، وهنا لن تشعر بالحزن وحدك؛ فقلوبنا جميعًا تتسع لحزن العالم مع اختلاف الأسباب، وهنا ستجد من يُهوِّن عليك ويخفف من مأساتك وهو يرتعد، لكن.. لنكن واقعيين يا أنت...

هؤلاء الشخص تألموا وتعذبوا حتى أفسد التعب والشقاء قلوبهم، حتى إنهم لن يقدروا على مواصلة الحياة بشكلٍ طبيعي، الله يغفر للجميع، لكن نُحن هنا لنرد الصاع صاعين، أقصد نواجه الآلام بالآلام، وليغفر لنا الله معهم!

قبل القراءة عليك أن تتعرف علينا.

عائلة ديڤالو..

أهلًا بك في عائلة ديڤالو، للانضمام لهذه العائلة شروط أهمها:

- أنت لست محور الكون.
- احتفظ بإيمانك، وأفكارك، وأيدلوجيتك، وتوجهاتك الدينية والسياسية لنفسك؛ فنحن لسنا في حاجةٍ لها.
- الضرر الذي يصيب أحدنا هو إصابة للمجموعة بأكملها.
- المجد الذي يحققه الفرد هو مجد لنا كلنا.
- عدو أحدنا هو عدونا كلنا، لكن صديق أحدنا لا يعني صديقنا.

- التساؤلات التي لا داعي لها تُشتت الأذهان، لذلك احتفظ بصمتك قدر المستطاع.
- الحب أضعف نقاطك في الحرب، وما دمت هنا فأنت اخترت الحرب عن الأشعار والكلمات الرومانسية.
- التحالفات الصغيرة تُدمر أعتق وأقوى الجيوش الكبيرة، لذلك ليكن تحالفنا واحدًا.
- إن نجونا سننجوا معًا، وإن هلكنا سنهلك معًا، لن يحيا أحد بعدنا، وإن هلك أحدنا فسنقاتل جميعًا من أجله.
- لكل هدف وخطوة مقاييس ومعايير مختلفة، ليس من حقك أن تسأل عنها ما دمت لم تسمعها.
- لكل شخصٍ مهام مختلفة عن الآخر، لذلك لا داعي للسؤال عن أيةِ أشياءٍ لا تخصك.
- ما حدث في الأمس انتهى قبل أن يبدأ اليوم، وما سيحدث اليوم سينتهي قبل أن يبدأ الغد.
- الخيانة والكذب.. أشياء لا تُغتفر.

حال وصولك لهذا السطر يعني أنك وافقت على الانضمام لهذه العائلة بصفتك قارئًا، فـ أهلًا بك.

ديفالو



الباب الأول

الفصل الأول

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، في ليلةٍ مقمرةٍ كهذه نُحييكم سيداتي آنساتي سادتي من مسرح الأزبكية.. لتُكمل ضياء هذه الليلة السيدة أم كلثوم بطلتها الآخذة للأنفاس، والقلوب المعتادة والمنتظرة كل ليلةٍ كهذه من جمهورها العزيز.. وليس فقط المصطف أمامكم في المسرح، ولكن في كل بيتٍ مصري وعربي.. في كل شرفةٍ وشارع؛ ينتظرها الآباء والأبناء.. العاشقين والمتألمين حبًا.. الأسياد والفقراء.. لتصدح أنغامها بين الشوارع وجدران المنازل، ليصعد صوتها بالأرواح والقلوب لأعلى درجات النشوة الروحية، فيتمايل على إثرها كل قلبٍ لُمِس بكلماتها وألحان أغانيها.

وهنا من مسرح الأزبكية ننقل لكم صورةً حية من أزواجٍ يصطحبون زوجاتهم.. ينتظرون أن تتوج ليلتهم معًا بظهور السيدةً أم كلثوم، ليحكوا يومًا لأحفادهم عن هذه الليلة المتميزة، حيث ستطرب آذاننا الليلة أغنية «فكروني»، كلمات الشاعر عبد الوهاب محمد، وتلحين الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب، ولن تكون تلك المرة الأولى التي تُلقى على مسامع سيادتكم، ولكن ينتظر

القلب متلهفًا بالرغم من ذلك أن ينكوي بنيران الذكريات مجددًا، ليتذكر مع كل جملةٍ للسيدة أم كلثوم قائلةً: «كلموني تاني عنك فكروني.. صحوا نار الشوق في قلبي وفي عيوني»، وتأخذه في رحلةٍ على شواطئ الذكريات، تتلاطم به كلمات الأغنية هنا وهناك، ليرسى ويعترف بالنهاية كل عاشقٍ يتلوى من الفقد أنه لم ينسَ، ليردد وراء السيدة أم كلثوم بنيران الاشتياق: «فكروني ازاي هو انا نسيتك؟».

والآن وبعد طول شوقٍ وانتظار يُرفع الستار سيداتي آنساتي سادتي وتطل من خلفه السيدة أم كلثوم.

نترككم الآن مع الفرقة الموسيقية، وبداية عزف المقدمة الموسيقية.. نتمنى لكم ليلةٍ سعيدة بمزيجٍ من الذكريات والحب.

«سهرة ممتعة».

القاهرة/ الثانية صباحًا/ حي الزمالك.

مع آخر كلمات مقدمة الحفل، وقبل أن تشرع أم كلثوم في الغناء، أغلقت «داليدا» الراديو، واتجهت للشرفة، اختلست سيجارة من علبتها، وبدأت في متابعة المارة في الخلاء، الأجواء الهادئة بعد منتصف الليل تثير رغبتها في الحديث مع نفسها.

«الوحدة أن تقضي حياتك وسط الحشود بينما لا تملك شخصًا واحدًا تخبره أنك لست على ما يرام، أن تكون في حاجةٍ لمن يشاركك مأساتك وحزنك، لكن كل من حولك اعتادوا منك

الضحك والسخرية، أن تقول المواقف التي تؤذيك كنكتةٍ يضحك عليها الجميع، بينما هي في الحقيقة تؤلمك وتعذبك.

الوحدة أن تتأثر سرًا وسط الحشود، ثم تسخر من مرهفي الحس على الملأ، أن ترفض كل الأيادي التي تمتد لك لأنك تعلم جيدًا إن في قلبك أثقالًا لن يتحملها أحد، أنت شخص وحيد ومحطم، لكنك تخلق من حطامك قوة كاذبة، قوة تجعلك أمام الناس شرسًا لا يمكن لأي شيءٍ أن يؤثر في قلبك، يخشاك الجميع أنت الذي تخشى ظلك، يخشاك الجميع أنت الذي ترتعد كل يوم من فرط الآلام، المؤسف إنك لا تستطيع إزاحة هذا القناع الكاذّب عنك، لن تسمح لأحدٍ أن يراك بهذه الهشاشة، وهذا الضعف، بل ستردع كل من يحاول المساس بكبريائك وهيبتك، ستردع كل من يحاول النبش في حقيقتك، أنت الذي قضيت أيامك في وحدتك متباهيًا بقوتك وثباتك ستقضي كل هذه الأيام بهذا الثبات، لكن إلى متى؟ أوليس على نفسك عليك حق؟ إلى متى ستقضي حياتك في هذه الوحدة ممزقًا بين شخصين أحدهما في غاية القوة، والآخر في غاية الضعف، هل سينتهي بك المطاف وأنت وحدك تمامًا؟ هل ستقضي عمرك ولا أحد يعرف حقيقة أمرك؟».

من سيل الأسئلة أنقذها صوت الهاتف:

ـ هل أنتِ مستعدة؟

قالت:

ـ إلى أين ستذهبون؟

ضحك بسخريةٍ قائلًا:

- تملكين جسد فتاةٍ فاتنة في العشرينات، وذاكرة عجوزٍ في الستين، بعد ساعاتٍ ستنطلق الطائرة، ألم أعطِكِ بنفسي تذكرة السفر؟!

- يا الله لقد نسيت هذا الأمر! حسنًا، أين ومتى سنجتمع؟

قال وهو يستعد لإنهاء المكالمة:

- ستنطلق الطائرة في السابعة صباحًا، سنجتمع أولًا في ميدان التحرير في الخامسة، ومن ثمَّ سنذهب إلى المطار، لا تتأخري، وداعًا.

تنهدت داليدا.. صاحبة السبعة والعشرين عامًا، التي قضت عشر سنواتٍ بمفردها بعد وفاة والدها ووالدتها في حادث سيارةٍ أليم، تعيش على مصروفٍ شهري يُقدمه لها «مكرم أبو العزم» عمها رجل الأعمال المعروف، خرجت من الشرفة، وأمام خزانة ملابسها لم يكن من الصعب عليها اختيار ملابس السفر والرحلة الطويلة، هي فاتنة، هكذا يقولون عنها، جسدها الممشوق كـ غزالٍ شارد في الصحراء يستعرض في الخلاء سحره وجماله، شعرها القصير يكتمل جماله بعينها الجذابة ذات النظرات الحادة، عيناها تشبهان محيطًا يثير انتباهك، وتتمنى أن تغرق في عمقه لتستمتع بجماله تمامًا، كما تتمنى أن تغرق في مفاتنها وجاذبيتها المثيرة للحب والنشوة، بملامحها الإيطالية الحادة ذات الأنف الصغيرة، والشفاه المُلهَبة دائمًا بلونٍ ورديٍّ داكن يجذبك أكثر نحوها، وبنهديها اللذين يستكشفان كل تنهيدات من ينظرون ويتمعنون في تفاصيلهما.

لوحة مثيرة تجذب كل عاشقي الجمال والأشياء الفاتنة، فتاة مثلها لم تكن تحب ارتداء الفساتين، هي ليست من النساء اللائي يُحببن إظهار مفاتن أنوثتهن، ولا تهوى جذب نظرات الرجال لها؛ لكن من قال أن النساء اللائي يتعمدن إظهار قناع الحدة والصرامة لا يملكن لحظات يتمنين لو أن بإمكانهنّ ممارسة حياتهنّ بشكلٍ طبيعي؟! يرتدين الألوان الوردية والفساتين، ويُطلقن لشعرهن العنان، يخرجن أنوثتهن من قالب الحدة والصرامة.

لطالما أزعجتها نظرات الناس التي تتهمها دائمًا أنها فتاة قاسية، هي لم تكن كذلك يومًا، لكنها الحياة التي تجبرنا على التظاهر بقسوةٍ دائمًا، لم تكن القسوة في صفات داليدا لولا الكثير من الصدمات، المواقف التي هزمتها وحطمتها تمامًا، شوهت براءتها، وبدلت ابتسامتها الجميلة لأنياب حادة، تفترس كل من يحاول الاقتراب منها والعبث بها؛ لتحمي ما تبقى منها.

قالت لنفسها: «لنعد لطبيعتنا يا داليدا»، اختارت بنطالًا أسود، وتيشرت رمادي، صففت شعرها القصير، ووضعت العطر مع شنطتها الصغيرة وعلبة سجائرها، وفي حقيبة السفر وضعت ما تبقى من ملابسها، وبعض الكتب والروايات، ومستلزماتها النسائية، ومن ثمَّ جلست في الشرفةِ تتابع نشرة الأخبار، لم يكن هناك حدث يثير اهتمامها، واصلت متابعة الأخبار حتى توقفت أمام خبر: «رجل الأعمال المعروف مكرم أبو العزم يحصل على ٥١٪ من أسهم الشركة الوطنية لتداول العملات الأجنبية».

لثوانٍ حاولت داليدا استيعاب الخبر، أشعلت سيجارتها في غضبٍ، وقالت لنفسها:

- في الكتب والروايات ينتصر الخير دائمًا على الشر، في الأفلام لا بُدَّ أن يختم المخرج عمله بمشهد عودة الحق لصاحبه، لا بُدَّ أن يستجيب القدر لدعوات المظلومين، ومهما طال فجر القسوة والضلال، سيظهر من عتمتهم صباح الحق واللين، مثل هذه الأشياء لا علاقة لها بالواقع، إنها جرعة من المخدرات يدسها الأدباء والفنانون في عقول العامة ليُهوِّنوا عليهم مأساتهم، إنهم يقدمون لهم الأمل الزائف، الخداع، يحثونهم على الصبر، لكن الحقيقة ليست كذلك؛ إنهم يحثونهم على الاستسلام، يعلمونهم كيف يخضعون ويرتضون بالأمر الواقع، منتظرين عدالة السماء التي ستُنقذهم من مملكة الطغاة، الأول يمارس حياته بشكلٍ طبيعي، يمارس ظلمه وطغيانه، يستمتع بما حصده ويحصده من ظلم وفساد، أما الآخر فيجلس وينتظر، ينتظر بضعفٍ مدعي قوته بقناع الأمل والصبر، يخفي عجزه وقلة حيلته في الانتقام، ينتظر حتى يقضي الظالم حياته ويموت، ومن ثمَّ يولد بعده ألف ظالم، ومعه يموت المظلوم ويولد بعده آلالف المظلومين والضعفاء، وتستمر الحياة بهذه الوتيرة الكئيبة التعيسة إلى ما لا نهاية.

تذكرت داليدا أنها تستعد للسفر، وأن الوقت لم يعد يسمح لها بلقائها ومناقشاتها المستمرة مع نفسها، خرجت من المنزل إلى ميدان التحرير حيث تجمّع أصدقاؤها.



الفصل الثاني

الطريق الصحراوي.. (الإسكندرية - القاهرة) الثالثة فجرًا.

«شبابيك، الدنيا كلها شبابيك، والسهر والحكاية والحواديت، كلها دايرة عليك والكلام كان كان عليك، واللي كان خايف عليك انتهى من بين إيديك، دي عنيك شبابيك، والدنيا كلها شبابيك.

سرقت عمري من أحزاني، سرقتة لكن مجاني، ولا حد شاف فين مكاني ورا الشبابيك، غيرت ياما كتير أحوالي، وانا كنت عاشق وكان يحلو لي، أحب بس يكون حلالي ورا الشبابيك، أنا بعت الدموع، والعمر، طرحت جنايني في الربيع الصبر، وقلت أنا عاشق سقوني كتير المر، ورا الشبابيك، دي عنيك شبابيك، والدنيا كلها شبابيك».

على أصوات محمد منير، وبسرعة ١٤٠ كم دون وضع أي اعتبارٍ للرادرات المعلقة على أعمدة إنارة الطريق؛ انطلق ضابط الشرطة المفصول مروان درويش بسيارته قاصدًا ميدان التحرير حيث تجمع أصدقاؤه، تمرده على القوانين لم يكن إلا حبًا في

فرض السيطرة لإرضاء شعوره أنه لا يزال يحتفظ بهيبته وقوته، بعدما فُصل من خدمته والتهمة هي الحب، الحب هو التهمة التي لا يمكن التبرأ منها، التهم الأفضح عبر التاريخ، السر الأعظم الذي لا يمكن إخفاءه مهما حاولنا؛ حيث تفضحنا نظرات الغيرة، اللهفة في اللقاء بعد غيابٍ طويل، تفضحنا كلماتنا عن أحبائِنا، ابتسامتنا حين يثني أحدٌ على الشخص الذي نحبه، الحب الذي وبسببه قضى أرفيوس حياته بحثًا عن حبيبته في العالم السفلي بعدما قتلها أخيه، وهو الذي جعل ابنة الملك دانوس ترفض وتتمرد على أوامر والدها بقتل زوجها، بل وهربت معه لتقضي حياتها في سعادةٍ رغمًا عن مطاردة أبيها لها، الحب جريمة روميو وجوليت، الذي بسببه اشتعلت حرب أهلية بين القبيلتين، الكثير من الحروب والمعارك التي كانت تُهمتها الحب، الحياة نفسها خُلقت بدافع الحب.

وقد كان الحب، وهو المسمار الأول في نعش حياة مروان العملية، بدأ الأمر حين كان مشرفًا على تأمين إحدى الكنائس المشهورة في الإسكندرية، في هذا اليوم كانت الكنيسة تستعد لصلاة واحتفالات يوم الميلاد، وقتها كانت تسود حالة من التوتر والقلق خوفًا من شن الإرهابيين هجماتهم المعتادة في مثل تلك المناسبات على الكنائس، ومن شدة القلق حدث شجار بسيط بين ماريان درغام ابنة القس درغام ميخائيل مع الرجال المسؤولين عن التأمين، تعالت الأصوات بعد أن اتهمتهم بالتقصير والإهمال المتعمد في تأدية خدمتهم، لم يبالِ مروان الذي كان يجلس في سيارته المصفحة،

لكن ومع ارتفاع أصوات الاتهامات والدفاع؛ اضطر وقتها لمتابعة الحدث عن قرب، وهنا وقع في غرام ماريان درغام، الحب من النظرة الأول، ذاك الذي يجتاحك فجأة كالصاعقة، لا يعترف بالظروف المحيطة، لا يعترف بالمواقف والساعات واللحظات، لا يراعي إن كنت في حالةِ ثورة وسط الحشود أو في جلسةٍ شعرية، سلطان لا سلطان عليه، ملك لا مالك له، حين يغتالك الحب من النظرة الأولى فلا عليك إلا أن تطاع وتخضع له، تابعها مروان وهي تتحدث إلى زملائِه بعنفٍ وقسوة، أوقعته في غرامها رغمًا عنها وعنه، بدا صوتها وكأنها مقطوعة موسيقية تلحن للعالم فتتراقص الطيور وتتمايل الأشجار عليها، رجل هيبته وحضوره قويان بات أمامها كـ درويشٍ تائه في ملكوت الكون يتأمل صنع وإبداع الخالق، كانت غاضبة، بينما كان يبتسم لها، يأمل أن يستمر الشجار لأطول فترةٍ ممكنة ليواصل تأملها، ليراها وهي بطبيعتها وتلقائيتها دون الخجل الأنثوي الذي يجتاح قلوب النساء حين يتابعهن رجل بشغفٍ وهيام، لكن سرعان ما استعاد ذهنه حين اقتربت منه وقالت له:

- رجالك لا يؤدون عملهم على أكمل وجه.

ابتسم لها، ثم اعتذر على غير عادة شخصيته العسكرية، ثم بدأ بتعنيف زملائه على إهمالهم، وأعاد ترتيب صفوفهم من جديد، ابتسمت ماريان بعد تأملٍ لثوانٍ في عينيه، وبخجلٍ أنثوي عفيف ارتبكت حين لاحظ الحشود نظراتهما المتبادلة، شكرته ثم استدارت وعادت إلى الكنيسة.

رحلت لينتهي الشجار، ويبدأ معه قصة غرامه الملحمية.

مع آذان الفجر وصل مروان درويش إلى بوابة دخول القاهرة، استوقفته نقطة المرور، فتش الظابط محتويات السيارة، حقائب السفر وأوراقه، دون أن يهتم كثيرًا بكلمات مروان بأنه ضابط مثله، مع تكرار الكلمات واعتراض مروان على طريقة المعاملة نظر الضابط إلى مروان وقال:

ـ تقول أنك ضابط سابق، أصبح هذا في الماضي يا رجل، الآن يحق لي التأكد من هويتك، وكشف أغراضك، والتأكد من أنك لا تحمل معك أيةَ ممنوعاتٍ يُعاقب عليها القانون، لو أنك رجل شريف ما كنت الآن تتحدث عن الماضي، أقصد ما تم فصلك من جهاز الشرطة.

اقتظ غيظ مروان، كاد أن ينفجر ويثور في وجهه، لولا أن أحد مساعدي الضابط طلب منه أن يرحل وينهي خلافًا قد يؤدي به إلى السجن.

أدار مروان المحرك وانطلق في حالةِ ثورة يفكر فيما حدث معه.

«كلنا نحب السُلطة، نحب فرض الأوامر على بعضنا البعض، هذه طبيعتنا البشرية، لا بُدَّ من السيد والخادم، القوي والضعيف، الآمر والمطاع، مثل هذه الأشياء لا تناسبني، لطالما كنت ودودًا مع الناس، كنت أخدم الجميع، أحب مساعدتهم وأُحب الوقوف

بجانبهم، ولطالما عاملني زملائي وحتى جيراني باحترام وتقدير، لم تكن علاقتي بقاداتي جيدة، كنت بالنسبة لهم أقرب لمواطنٍ مدني، هذا ما كان يهز هيبة البدلة العسكرية، بعد أن قرروا فصلي عن العمل تغيرت معاملة الناس معي، لم أعد الشخص المفضل بالنسبة لهم، لقد فقدت مميزاتي كشخص يمكنه مساعدتك في أي وقت، لقد فقدت بريقي بينهم، وإن كانت تُهمتي لا تمت للفساد بأي شيء، لم يعد يتصل بي زملائي، أصبح منزلي مهجورًا من الجيران وأفراد عائلتي، منزلي الذي كان يتسع للجميع طوال الوقت، أصبح مهجورًا لأنني لم أعد أملك أيةَ سلطة أو نفوذ، لو سألتني ماذا أريد الآن لقلت لك إن أكثر ما أحتاجه بندقية وأقتل الجميع.. القادة، المواطنين، السادة، العبيد، كل شخصٍ لم يحترمني بعد فصلي من الشرطة، كل شخصٍ استهان وسخر من حزني ومأساتي، كل شخصٍ أظهر وجهه الحقيقي بعد سنواتٍ من الكذب والنفاق، أنا أكره الجميع.

أوقف مروان سيارته بعد أن وصل إلى ميدان التحرير، ثم اتجه إلى أحد المقاهي منتظرًا أصدقاءه لينطلقوا معًا إلى رحلتهم.

الفصل الثالث

القاهرة/ حي السيدة زينب/ الخامسة فجرًا.

ـ وداعًا يا أمي.

على سجادة الصلاة ابتسمت العجوز ابتسامة حزنٍ وقالت:

ـ ياسين، قلبي يؤلمني، أرجوك يا بُني لا تتركنا!

ضحك ياسين وهو يجمع آخر ما تبقى من أغراضه:

ـ إن لم أسافر الآن ستؤلمك معدتك غدًا، ستنهال الديون علينا بعد عدة أشهر، وسيتم إيداعك في سجن الغريمات، لن تجد أخواتي مأوى لهن غير أحضان الرجال المنتظرين من أجلهن في الخارج، ستتشرد عائلتنا، وسنموت من الجوع خزيةً، ومن العار خزيةً أخرى.

أحنت العجوز رأسها، والدموع تتغرغر من عينيها وهي تقول:

ـ أنت سندنا الوحيد في الدنيا يا بني بعد رحيل أبيك، بالله كيف ستتركنا وحدنا، كيف سندبر أمورنا؟!

أمسك بيدها بعد أن قبلها ونظر لعينيها:

- لا تقلقي يا أمي، لا تقلقي، سأرسل كل شهرٍ مصاريفك الشهرية، أوصيك بأن لا تسمحي لأخواتي أن يعملن مهما اشتدت الظروف، لا تسمحي لهن بالنزول إلى الشارع والتعامل مع أولئك الأوغاد الذين ينتظرون الفرصة للانقضاض عليهن، لقد تركت لكنَّ ما يكفي من المال لمدة شهرين، وأعدك سأرسل لك مصروفًا آخر قبل نهاية هذه المدة.

عانقته العجوز، ثم انهارت في البكاء، خرج ياسين من غرفة أمه، وودع أخواته النائمات على الأرض في الصالة دون أن يوقظهنّ، وقبل أن يخرج من باب المنزل، عاد ونظر وكأنه يتأمل منزله للمرةِ الأخيرة في حياته، وقفت أمه أمام باب غرفته، ودعها وداعًا جافًا وخرج منكسرَ الوجدان.

في الشارع كان الهدوء يُسيطر على الحي الشعبي الفقير، يودع الأهالي الغارقين في نومهم العميق قبل أن يستيقظوا بعد ساعاتٍ لشقاء البحث عن قوت يومهم المعتاد، وقبل أن يتجه إلى موقف السيارات سمع صوت خطواتٍ خلفه تنادي:

- ياسين.. أرجوك يا ياسين! أرجوك لا ترحل! يمكننا البدء من جديد.. أرجوك يا ياسين أنا لا أستحق أن أتحمل كل هذه الأيام الصعبة دونك!

رد ياسين وهو يحاول السيطرة على نبضات قلبه:

- اسمعيني يا رقُية، لم تعد بلدتنا تتسع لنا، لم أعد بإمكاني مواصلة الركض والسعي وراء أشياءٍ مستحيل تحقيقها، لم تعد لدي طاقة للمعافرة، لقد استُهلكت، هل تفهمين؟ لقد استهلكت، في البداية اهتممت بدراستي رغم كل شيءٍ كان يدفعني إلى الخروج من المدرسة، واصلت رحلتي التعليمية أملًا في وظيفةٍ محترمة، كانت أمي تخرج إلى الشارع، تبيع الخضروات، تنظف المنازل، تتحمل شقاء الآلام ظهرها وجسدها، كنت أتعذب وأتألم وأنا أرى التعب يزداد قسوةً على جسدها الهذيل، واصلت حتى التحقت بكلية الهندسة، أفنيت شبابي في كليةٍ كانت تجيد وضعنا دائمًا تحت الضغط، ضغط لا يطاق، تحملت، تحملت كل هذا الضغط، حتى أصبحت من أوائل الدفعة في قسم الحاسب الآلي والبرمجة، خرجت للحياة وأنا مُنهك، منهك تمامًا، ومع ذلك، قدمت في كل الوظائف المتاحة، كل الوظائف المتاحة بلا استثناء، ثم ماذا حدث؟ كانت الأفضلية دائمًا لأصحاب النفوذ، أقصد لأصحاب المعارف ومن يجيدون دفع الرشاوي، قاومت اليأس بكل قوتي البائسة، لم أخجل، ولم أرفض أيةَ فرصة عمل، عامل نظافة، بائع

في محل ملابس، عامل في مقاهي، لم أخجل رغم مرارة ما أشعر به، أنا المهندس ياسين أول دفعتي في الكلية، لم أخجل من العمل على أرصفة أسواق العتبة والسيدة زينب، قررت البحث عن أبسط أبسط حقوقي اليومية، ومع ذلك لم تتركني الحياة وشأني، وفجأة شنت المباحث حملات على أسواقنا، وضاع بينهم مشروعي البسيط، ومن ثمَّ عليَّ المواصلة من جديد.

قاطعته وهي تبكي:

- وماذا عني يا ياسين؟! لم أخطر ببالك ولو للحظةٍ من كل هذا؟! لقد أعطيتك قلبي وكل مشاعري، ماذا سأفعل في غيابك يا ياسين؟ كيف سأقضي الليالي دون محادثاتنا، دون كلماتك وهي تهون قسوة الفقر والجوع؟ أنا أستمد منك حياتي، أنت رجلي الوحيد، أنت سندي وعوني يا ياسين، ابني وأبي وأخي، ولدت وتربيت وأنت المسؤول عني، أنت المراقب وأنت الناصح، أنت من تغازل ضحكتي فتجعلني أضحك رغم شحوب ملامحي، وأنت من تحدثني عن روعة ملابسي رغم أنها قديمة ومستهلكة، كنت تجعلني أشعر إنني سيدة كل نساء العالم وأنا في أسوأ حالاتي، كيف سترحل وتتركني بين ذكرياتنا وتفاصيلنا وحدي؟ كيف سأتحمل عناء الأيام؟ أنت سترحل وسيرحل معك

شبابي، أيامي، ضحكتي، شعور الطمأنينة والأمان، سيرحل معك قلبي يا ياسين هل تفهمني؟! سأصبح فتاةً بلا روح، بلا قلب، سأنتهي رويدًا رويدًا حتى أفنى يا ياسين، أنت عالمي وحياتي، الحلم الوحيد الذي حلمته طوال حياتي، الأمنية الوحيدة التي تمنيتها طوال حياتي، أرجوك فكر في الأمر مرة أخرى، تعال سأحاول مرة أخرى أن أقنع أبي بزواجنا.

ضحك ياسين وهو يستعد للرحيل:

ـ سنتزوج وننجب أطفالًا يعانون من الفقر والجوع والبؤس، سنتزوج وننجب أطفالًا يلعنوننا في كل وقتٍ وزمان على مجيئنا بهم في هذه الظروف.

قالت وهي تبكي وتمسك يديه وترتجف:

ـ لنحاول مرة أخرى.

قبَّل يديها ونظر لعينيها:

ـ لا تنتظريني يا رقية، تزوجي من أراد أبوكِ منكِ الزواج منه، اهربي من الفقر والتعاسة، واصنعي مستقبلًا جديدًا من بعد ليالٍ من البؤس والجوع، لا تنتظريني يا رقية، لكن إياكِ أن تصدقي أن هناك رجلًا أحبك وسيحبك أكثر مما فعلت.. أحبك، وداعًا.

تقدم خطوات للأمام، نادته وارتمت بين ذراعيه:

- لن أحيا بدونك، لن أحيا بدونك.

ربت على رأسها، ثم علق حول رقبتها قلادة:

- احتفظي بها معلقة على رقبتك، احتفظي بها للأبد.

ودعها ورحل عنها، حاملًا معه حقائب السفر، ذكرياته، آماله وأحلامه، قلب أمه وأخواته وحياة عشيقته، ودعها وودع بلدةً لم تقدم له إلا الفقر والشقاء، تحرك نحو ميدان التحرير، ثم تواصل مع مروان والتقاه في المقهى وفي رأسه فكرة واحدة، وهي الاستعداد لكسر تأشيرة السياحة، ومن ثمَّ الإقامة الغير شرعية بحثًا عن المال وفرصة أخرى للحياة، وهذا ما لم يعرفه أحد من أصدقائِه.

الفصل الرابع

القاهرة/ حي مصر الجديدة/ الخامسة فجرًا.

عزيزي..

أعلم أن هذه الطريقة ليست مُحببة بالنسبةِ لك، لكنني أعلم أيضًا إنك ستلتمس لي العذر مرة أخرى، لعلك تعلم أن تسامحك الكبير معي هو الذي قادني للوقوع في غرامك. لقد كنت دائمًا شخصًا جيدًا معي، قدمت كل شيءٍ في سبيل أن أتعافى، قدمت الحب والتضحية ولم تبخل عليَّ بالصبر يومًا، أحببت وجودك بجانبي، أحببت طريقة دفاعك عني أمام عائلتي، وإيمانك بكوني فتاة صالحة رغم كل المساوئ، ورغم كل الذين حاربوا لإظهار عكس ذلك.

كنت الشخص الوحيد الذي آمن بي، لم يفهمني أحد مثلما فعلت أنت، لم يرَني أحد جميلة مثلما رأيتني أنت، لم يمر على قلبي رجل مثلما مررت أنت، لكن الأشياء الجميلة لا تبقى للأبد، وهذه المرة بالتحديد قررت أن أرحل أنا عنها قبل أن ترحل عني، لقد كنت طفلة جميلة، تحب الضحك والناس، أحب التجمعات،

وأحب أن أكون دائمًا متفوقة ونبيلة، لكن ثمة مواقف حدثت لا يسع الوقت الآن أن أذكرها هي ما جعلتني بهذا السوء، مواقف جعلتني غارقة في الخوف واليأس والكآبة، جعلتني أرفض الناس، وأرفض بقاء أحدٍ بجواري، حطمتني وأفسدت حياتي مع عائلتي، وفي اللحظة التي قررت أن أُصلح ما تبقى مني وأوافق على الزواج لم أتعافَ بشكلٍ جيد، وهذا ما أفسده التفكير، فلم يستمر زواجي طويلًا لنفس الأسباب، الصمت يا فخر الدين، الصمت أمام الحق والحقيقة، الصمت خوفًا من أن تؤذي عائلتك بما تعرفه عنهم.

عزيزي أردت أن أقول لك إنني لست محامية ومعيدة جامعية ذكية باهرة في التعامل مع الطلاب والمتهمين؛ بل كنت أشعر فقط بمعاناتهم، برغبة الطلاب في النجاح وإظهار الحق، ورغبة المتهم في البراءة وظهور الحقيقة، كنت أعاني الأمرين، كنت أنا الجاني والمجني عليه، القاضي والمتهم، الحق والضلال.

لم أستخدم طرقًا مبتكرةً وحيلًا ذكية في الدفاع عنهم، كنت أشعر بهم فقط، صدقني أكثر ما يحتاجه المرء أن يشعر به أحدهم، يفهمه ويستوعبه ويحتويه، ولقد وجدت في وجودك بجواري أكثر ما أحتاجه، لكن مع الأسف لا يمكنني تدمير حياتك لأنني لست فتاة صالحة، لا يمكنك الارتباط بفتاةٍ صمتت أمام الحق، واستدارت في الكواليس خوفًا من إزاحة الستار عن فجاعة ووحشية عائلتها، أكتب لك وأنا أستعد للسفر، لن أعود أبدًا، سأحاول البحث عن حياةٍ أخرى في مكانٍ آخر؛ فأنا لن أتحمل البقاء هنا وأنا أعرف الحقيقة

وأصمت، شقاء نفسي يزداد وأنا أستمر في الصمت، وفي الوقت نفسه لن أحب تحطيم عائلتي إن قررت التحدث والاعتراف بما أعرفه عنهم، سأغادر عسى أن يهدأ عقلي وتنطفئ رغبتي في الانتقام منهم.

كل الحب والسلام على قلبك حبيبي وأستاذي/ فخر الدين.

محبوبتك/ يمنى.

تركت يمنى رسالتها على المكتب، ومن ثمَّ استعدت للتوجه لميدان التحرير للقاء أصدقائِها، هذه المرة لم تودع أباها، ولم تُخبر طليقها بقرار السفر، فقط أرادت أن تغادر وحدها، ابنة الثلاثين التي قضت حياتها تحتفظ بأسرارٍ يمكنها تدمير عالمها الصغير، أرادت أن تغادر بلدتها سرًا تاركةً خلفها قسوة وفجور عائلتها، زوج لم يفهمها، وحبيب كان يأمل أن يقضي ما تبقى من حياتهما معًا.

في الطريق كانت تفكر في مصيرها المنتظر، لقد قررت أن تودع أصدقاءها بالسفر معهم في رحلةٍ قصيرة، ومن ثمَّ التوجه إلى لندن وبِدء حياتها الجديدة، لم تُخبر أصدقاءها أن هذه الرحلة ستكون اللقاء الأخير معهم، هي لا تحب لحظات الوداع، يُمنى فتاة جميلة وخجولة، حتى إدمانها للكوكاين أثناء عملها كـ معيدة في كلية الحقوق لم يكن إلا للدفاع عن الحق، بينما هي في الحقيقة مُتهمة في جرائم ضد البشرية، كان نوعًا من أنواع الهروب من الحقيقة،

كانت تقسو على نفسها وهي تحارب الفساد والظلم، ذكية للحد الذي يجعلها توازن بين العاملين، برَّأت الكثير من المتهمين ظلمًا، وساعدت في ظهور محامين دافعوا عن الحق بكل قوة، لكن وفي الخفاء، كانت تقسو لتواصل الحرب، لتواصل رسالتها.

إن هروبها من الحقيقة هو من كلفها توتر العلاقة بينها وبين عائلتها، وهو ذاك الذي فرَّق بينها وبين زوجها، ولم تسلم بالرغم من كل هذا من صراعها تجاه ذاتها وجلدها المستمر لها، فـ واحدة من أشد الصفات المؤذية في المرء أن يجلد ذاته دائمًا.

هو لا يعرف إن كان شخصًا جيدًا يستحق أن يعيش في هدوءٍ وسلام مع العالم أم أنه شخص سيء يستحق كل الأذى الذي يحدث له؟ أن يكون متوترًا يفكر كثيرًا في كلماته قبل النطق بها، يخوض صراعًا يوميًّا بين ما يرغبه قلبه وما يرفضه عقله، يخشى التعبير عن غضبه أو حتى الاعتراض على الكلمات التي تفسد قلبه حتى لا يرى الناس شخصًا سيئًا في غضبه؛ فيتألم ويلوم ويجلد نفسه على كتمانه وصمته، يخشى أن يكون الجانب السيئ في حياة أحد، ويجلد ذاته حين يشعر أحدهم بالضيق والحزن من تصرفاته.

حين يعتذر تشعر وكأنه قد ارتكب كل جرائم البشر، وحين يعتذر له أحد يتقبله سريعًا، وإن لم يحدث يلقي بكل كلمات اللوم والقسوة على نفسه لأنها تأبى وترفض التسامح، يلتمس العذر للجميع، لكنه لا يعطي لنفسه عذرًا واحدًا لتصرفاته وكلماته.

يجلد المرء ذاته حين يسأل نفسه: «هل أنا شخص جيد؟».
يجلد المرء ذاته بالتساؤلات..
يجلد المرء ذاته بالأفكار..
يجلد المرء ذاته بالخوف والقلق.

وأشد أعدائه هي نفسه، تلك التي تخوض صراع كل يومٍ مع الحياة لا يعلمه أحد.

وقد عانت يمنى من جلد الذات طوال الوقت، بعد لحظاتٍ طويلة جدًّا من التفكير وجلد الذات خرجت واتجهت إلى ميدان التحرير لتلتقي بأصدقائها.

وصلت ميدان التحرير، وفور وصولها هاجمتها ذكريات أخرى لم تكن في الحسبان، هنا ميدان الثورة، هنا خرجت أصوات تنادي بالحق، شعب ثار وأبى استمرار الظلم والفساد، هنا ذكريات وتفاصيل حدثت تستحق أن يدونها التاريخ، هنا بدأ أبطال في رسم طريقٍ جديد لحياتهم، هنا احتموا ببعضٍ أمام هجمات الموالين للنظام، وهنا سخروا من إشاعاتٍ واتهاماتٍ بالتمويل والدعارة وتجارة المخدرات، في هذه الرقعة صلوا ودعوا الله، وفي هذه الرقعة كادت رؤوسهم أن تعانق السماء فرحةً بعزل رأس النظام، هنا أبرياء قُتلوا في سبيل أن يحيا الناس في عدلٍ وعدالة، هنا خرج أفضل من عرفتهم بلدتنا، هنا اجتمعوا على الأمل ولأن الناس يموتون من فرط الأمل، هنا التقت يمنى بصديقها نائل، صديقها الوحيد في مرحلة الشباب، كان يجمعهما الحلم والأمل، وفرقت بينهما

الرصاصات الطائشة، ما الذي حطم هذا الحلم الجميل؟ غباء الثوار أم دهاء ما تبقى من رجال النظام الحالي؟! لا يمكن بكل تأكيد اعتبار هذه الثورة مجرد مظاهراتٍ عابرة، لقد صنعوا التاريخ ولو لم يستمر صراخهم وانتفاضاتهم طويلًا، لقد هزوا أركان نظام عتيد لم يكن يجرؤ أحد على الاقتراب من قلاعه، هنا صدعوا كلَّ الطغاة بضجيجهم، جعلوا نومهم مضطربًا؛ يراقبون عقارب الساعة خوفًا من أن ينتهي اليوم بالقبض عليهم بعدما كانوا يفكرون في مكاسب يومية جديدة وفي كيفية ملء خزائنهم، لقد صنعوا ما لم يصنعه أحد قبلهم، وقد يكون ولا بعدهم.

كانت جولتها في ميدان التحرير صفعة جديدة لذاكرتها لم تكن تتحملها بكل تأكيد، تذكرت أنها تأخرت كثيرًا، فاتجهت إلى نقطة الالتقاء، ومن ثمَّ الانطلاق إلى مطار القاهرة.

الفصل الخامس



مطار القاهرة / السابعة صباحًا.

وصل الأصدقاء إلى المطار في انتظار الإقلاع، كانت داليدا تواصل قراءة خبر استحواذ شركة عمها مكرم أبو العزم على أسهم إحدى الشركات الكبرى للصرافة وتداول العملات، بينما ذهن مروان كان لا يزال يفكر فيما حدث مع الضابط على بوابة القاهرة، ويتحدث مع يمنى عن الأمر، وهنا تدخل ياسين ساخرًا:

- اللهم اضرب الظالمين بالظالمين وأخرجنا منهم سالمين!

نظر مروان إلى ياسين وهو يقول في غضب:

- أي ظلم يا أنت؟! لم أكن ظالمًا يومًا، لطالما حاولت أن أكونَ شخصًا لطيفًا، ليس كل رجال الشرطة بالنظرة التي تظنها عنا.

ضحك ياسين بسخرية:

- صمتك عن الحق مساندة للظلم يا صديقي.

أثارت كلمات ياسين الضيق في نفس يمنى فقالت:

ـ أحيانًا تجبرنا الحياة على الصمت يا ياسين.

واصل ياسين سخريته:

ـ أظن أن هذا مبدأ الضعفاء يا عزيزتي، لا يوجد قوة في العالم أقوى من الحق، صمتك يعني موافقتك، إن لم تكن شريكًا في الظلم نفسه.

اقترب مروان من ياسين وكاد أن يحدث شجار بينهما، لكن سرعان ما تدخلت داليدا وقالت لهم:

اسمعوا، لنترك هذه المواضيع جانبًا لحين العودة من الرحلة، ولنستمتع بالسفر، وإلا فلنعد لمنازلنا ونجتمع في مقاهينا نتحدث عن هذه المواضيع المملة المكررة.

صمت الجميع، فـ لاحقهم صوت المذياع الداخلي: «على السادة المسافرين إلى روما في الرحلة رقم ٣٦٥٥ التوجه إلى الطائرة التي ستنطلق بعد نصف ساعة من الآن».

في الطائرة جلس مروان بجوار ياسين، وجلست داليدا رفقة يمنى، كان كل منهم مشغولًا بعالمه، الرحلة لغرض السياحة، لكن بداخل كل شخص كان يوجد غرض آخر، سر آخر ينتمي له لا يريد إخبار أحد به، داليدا كانت تأمل في معرفة السوق الأوروبي، ومدى توسعه، وفرصتها في الانضمام له، كانت تفكر دائمًا كيف تصبح امرأة قوية، ومن ثَمَّ تبدأ في الانتقام من عمها الذي دمر جزءًا كبيرًا من حياتها، لكن في قلبها كانت أيضًا تتشوق لزيارة روما، المدينة

التي أحبها الرجل الوحيد الذي أحبته ولم تكتمل العلاقة بينهما لأسبابٍ غامضة، ثمة تفاصيلٍ حدثت بينهما جعلتها ترفض فكرة رحيلهما حتى بعد مرور ثلاثٍ سنوات على نهايتهما.

مروان هو الآخر كان يحتاج للتنزه، لتهدأة أعصابه بعد علاقة انتهت، ومستقبل تحطم تمامًا، والسبب كان العرف والعادات والتقاليد، ربما أراد أن يعرف أكثر عن السينما الإيطالية؛ فقد يتعثر في رحلته بمخرج سينمائيٍ يكتشف جودته في التمثيل ـ هكذا يظن عن نفسهـ فيصنع مستقبلًا آخر لـه يعوضه عما فقده في مصر.

أما ياسين فذاك الشاب الفقير الذي اضطر أن يضع كل أمواله في تأشيرة السفر من أجل فرصة جديدة في الحياة، حتى وإن كانت غير شرعية محفوفة بالخطر، لقد أدرك أن بقاءه في مصر لن يُسمن ولن يشفي من جوع، فما المانع من الجوع بعيدًا عن تصادمه كل يوم بنظرات الضعف والأسى في عين أمه، بعيدًا عن تصادمه كل يوم بأخَواته خوفًا عليهن من الذئاب البشرية التي تلهث وراء كل فريسةً ينهكها الفقر، وبعيدًا عن انتظار حبيبته ويأسها من قوته في تحقيق حلمهما في الزواج، وفي حقبته تفاصيل أخرى يتجنب الحديث عنها.

لـ يُمنى شخصية وظروف مختلفة، هي مطلقة لا تعول إلا نفسها، لم تشعر يومًا بأنها تدافع عن الحق؛ لطالما لاحقها شعور الخزي والعار والنفاق، لطالما تخيلت نفسها خلف القضبان مُتهمة بكل الجرائم التي ارتكبتها عائلتها، تهرب من حقائق كثيرة، من زوجها الذي أحبها ولم تحبه بما ينبغي، من عائلتها، ودماء ملطخة في كل ملابسها.

ـ لم أقصد الإهانة لك يا مروان.

هكذا بدأ ياسين حديثه مع مروان الضابط المفصول.

رد مروان وهو يبتسم:

ـ أنا ابن الفقر مثلك يا ياسين، أنا أعرف ما تعاني منه وأشعر به، لم يحزنني قدر نظرتك واتهامك لي أنني مثل هؤلاء الأوغاد الذين يسلبون حقوق الفقراء.

قاطعه ياسين:

ـ صدقني وأنت في القاع ترى كل من ما هو في الأعلى مجرد أوغاد لصوص سارقي أحلام البسطاء.

ضحك مروان:

ـ والآن نحن على متن طائرة واحدة، وكل منا نُهب منه جزء من حقوقه في الحياة.

رد ياسين وهو يسخر:

ـ لكنني لن أعود إلى مصر إلا بعد أن أصبح رجلًا آخر.

استقبل مروان كلمات ياسين بسخرية ولم يعلق عليها، ومن ثم بدأوا في التحدث عن الأمور الرياضية.

داليدا كانت مشغول في قراءة إحدى رواياتها، حتى قاطعتها يمنى:

ـ سمعت إن مكرم أبو العزم اشترى أسهم إحدى الشركات الكبرى للصرافة.

لم تُثِر كلماتها انتباه داليدا، قالت وهي تواصل القراءة:

- رائع، أحب كثيرًا نجاح هذا الرجل، وأتمنى له المزيد من النجاح.

وهي تنظر من النافذة:

- لست متأكدة من صدق أمنياتك يا داليدا، أعرف رغبتك في الانتقام منه.

أغلقت داليدا الكتاب، ثم نظرت لها:

- أنا لا أفكر في الانتقام من أحد، أنا لا أفكر سوى في مرور أيامي في سلام نفسي، هذا كل شيء، هل تفهمين؟

شعرت يمنى بغضبٍ في كلمات صديقتها، فقالت وكأنها تدندن لنفسها:

- سلام نفسي! إن هذا أكثر ما أرجو، أن يتوقف العالم في رأسي عن الدوران، أنا مُتعبة ومنهكة تمامًا، يلاحقني دائمًا شعور أنني لست في المكان المناسب، أمارس حياةً لا تشبهني، لا أنتمي لها، أجلد ذاتي دائمًا، أقسو عليها بسبب تفاصيل تبدو عادية بالنسبة للبعض، أخاصمها وأبتعد عنها، ومن ثمَّ أدرك مدى وحدتي وضعفي؛ فأعود لها باكية لأنني أعاملها بما لا تستحق.

ضحكت يمنى بعد أن شعرت بأنها على وشك البدء في حديثٍ لا ينتهي من جلد الذات، فتابعت:

- أتمنى أن ينعم العالم بسلامٍ نفسي، كل العالم!

روما/ الساعة ٩ صباحًا.

استقلت «جورجينيا» سيارتها، وانطلقت للمطار لاستقبال الضيوف، هذا الفوج الخامس التي تستقبله في هذا الشهر، هي المساعدة المباشرة والوحيدة لصاحب شركة السياحة، هذه المرة تأمل جورجينا أن لا تخيب أمالها فيما طلبه منها صاحب الشركة، هو رجل أعمال يملك الكثير من الشركات والمشروعات، من بينهم هذه الشركة التي تستقبل أفواجًا صغيرة لغرض السياحة في أنحاء إيطاليا.

في الطريق رن هاتفها:

- لا تقلق سيدي أنا في الطريق لهم، لا يوجد فارق توقيت بين مصر وإيطاليا، لذلك سيصلون مطار روما بعد ساعةٍ من الآن، نعم أعرف ما عليَّ فعله، لا تقلق، سيكون كل شيءٍ على ما يرام، وداعًا.

وصلت جورجينا إلى المطار تنتظر الفوج السياحي بشغف، هي تحب مصر كدولة سياحية فريدة ومهد أقدم الحضارات، علاقتها بشعب مصر تقتصر على صديقتها داليدا رغم عدم التواصل الدائم بينهما، إلا أن بينهما حب متبادل، وهي من دعت داليدا لزيارة إيطاليا رفقة أصدقائها، وقد استجابت داليدا للدعوة بالفعل.

تقف جورجينا في ساحة الاستقبال وهي تفكر في البرنامج السياحي الأول، وفي رأسها تُفكر فيما طلبه منها سيدها.

بعد نصف ساعة خرج الأصدقاء، وفي استقبالهم كانت جورجينا تنتظر: «أهلًا بكم في روما».

الباب الثاني



الفصل السادس

«روما عاصمة الثقافة»

إن أردت السيطرة على العقول يا جوماني، أخبرهم إن أمنهم مرتبط بك، وإنك تضحي في سبيل الحفاظ عليهم من الخطر شرط الولاء لك.

إن أردت الارتباط بحسناء روما اصنع لها حفرة من الطين، وانتظر لحظة وقوعها في الوحل، ومن ثمَّ قل لها كم هي فاتنة، إن الأقوياء يسيطرون على الضعفاء باستغلال نقاط ضعفهم، حاجتهم للأمان والحب والطمأنينة هي من ستدفعهم لتصديقك، وهي من ستجعلك تتحكم في مصيرهم.

من سيل كتاباته طرقت جورجينا الباب، توقف عن الكتابة، وأغلق دفتره، ثم سمح لها بالدخول، دخلت جورجينا وعلى ملامحها علامات التعب:

ـ لقد وصل الشباب إلى الفندق، وقد وافقوا على برنامج الرحلة، سيقضون هذه الليلة في روما، وفي الصباح ستبدأ أولى رحلتهم إلى ميلانو، ومن ثمَّ قضاء الشق الثاني من البرنامج في نابولي، وهنا يمكننا البدأ.

ارتدى الرجل معطفه الأسود، ثم قبعته الرمادية، وجمع بعض الأوراق من على مكتبه، ثم وقف أمام الشرفة وسألها:

ـ وما انطباعك الأول عنهم؟

قالت دون أن تتحرك من على كرسيها:

ـ داليدا أعرفها، هي فتاة عدوانية وشرسة رغم هدوئها واتزانها، ياسين يبدو أقل اجتماعيًا منهم، على الرغم من لباقته في التحدث بالإنجليزية والإيطالية، يمنى أكثر شخصيةٍ متوترة رأيتها، تشعر وكأنها دائمًا مطاردة من شيءٍ ما، أما مروان الضابط المفصول حسب ما علمت من داليدا فهو رجل ثقيل الظل، لم أحب التعامل معه.

رد الرجل وهو ينفث دخان سيجارته:

ـ الضابط المفصول! حسنًا، اليوم مبارة برشلونة وروما، دعيهم لمشاهدة المبارة في مطعم الفندق، ودعي لي الأمر.

اتصلت جورجينا بداليدا، وأخبرتها إنها ستكون في انتظارهم في العاشرة مساءً لمشاهدة مبارة روما وبرشلونة، في البداية اعتذرت

داليدا لأنها في حاجةٍ للراحة، مع إخبار أصدقائها بالدعوة، رفضت جورجينا بلطفٍ اعتذار داليدا، وأصرت على حضورها، استجابت الأخيرة واتفقتا على كل شيء.

أغلقت جورجينا الهاتف، ثم أبلغت الرجل أنهم سينتظرونها في العاشرة مساءً في الفندق.

قال لها:

ـ حسنًا، يمكنك الذهاب الآن، لا تتأخري عليهم.

في الفندق وضع الأصدقاء مستلزماتهم في الغرفة، ومن ثمَّ بدأوا في التجول حول الفندق، كانت الأجواء في الشارع مشتعلة، اليوم سيلعب فريق المدينة مع برشلونة الأسباني، الأعلام والاحتفالات تُسيطر على شوارع روما رغم صعوبة أمل عبور فريق المدينة إلى الدور الثاني، خصوصًا بعد الهزيمة الساحقة في مبارة الذهاب بأربعة أهداف مقابل هدف واحد، أثارت الاحتفالات تساؤلات مروان الذي قال:

ـ من الجنون أن مدينة بأكملها بفريقٍ انهزم في مبارة الذهاب، لديها أمل في الفوز والعودة بنتيجة شبه مستحيلة.

ضحكت يـمنى:

ـ أنا لا أفهم في كرة القدم، لكن يعجبني تمسكهم بالأمل.

وهو يتابع الاستعدادت لمشاهدة المبارة قال ياسين:

ـ كرة القدم أفيون الفقراء.

قاطعه مروان ساخرًا:

ـ لكنك تشجع ريال مدريد نادي الملوك والعاصمة الأسبانية.

قال بصبيانة مشجع متعصب:

ـ إن كان حظنا من السعادة قليلًا وبختنا في الأمل معدومًا، فلا مانع أن نشجع فريقًا يزرع بداخلنا الأمل في كل مرةٍ نظن أنه انتهى، مشاهدة ريال مدريد كفيلة بإسعادي أيًا كانت نتيجة المباراة، وقصة هذا النادي مُلهمة تستحق كل الاحترام.. ريال مدريد نادي عظيم.

قاطعته داليدا:

ـ ياسين فيلسوف، ومهندس، ومحلل رياضي.

غازلها مروان وهما يضحكان:

ـ دعك من هذا المجنون، أنا أصلح كعاشقٍ إن أردتِ.

ردت وهي تضحك لـ يُمنى:

ـ يبدو إنكم ستقرأون خبر مقتل ضابطٍ مفصول في روما لأسبابٍ غامضة.

ضحك الأصدقاء وهم يستمتعون بحماسة الجماهير في روما، وقد بدأت الأجواء اللطيفة تُسيطر على نفوسهم بعدما اشتدت حالة الشد والجذب بينهم.

عادوا للمطعم منتظرين جورجينا التي لم تتأخر عليهم، بدأت جورجينا تتعرف على أصدقاء داليدا عن قرب، تحاول ربط الصفات التي يبحث عنها سيدها بصفاتهم وانفعالاتهم، خصوصًا أنها تعرف اللغة العربية، فقد قضت أيام المراهقة في الإمارات مع أسرتها.

بدأت المباراة لتجذب انتباه الجميع، عدا داليدا التي أعادتها الأجواء إلى الوقت الذي جمعها بصديقها «فادي»، كانا يجتمعان لتشاهد معه المباريات الهامة، والتي لا تعرف مدى أهميتها من الأساس، لكنها كانت تحب أن تشاركه مثل هذه اللحظات التي تبدو تافهة للبعض، فتاة مثلها حادة وقاسية، حين تقع في الحب تتحول لطفلةٍ بريئة، تمارس طفوليتها وعفويتها مع من تحب، وكأنها تلخص العالمَ كله في وجوده، لقد كان الرجل الوحيد الذي أحبها وأحبته، مأساتها الثانية في التفاصيل، لطالما تمنت أن تقطع من رأسها الجزء الذي يحتفظ بالذكريات، مدى تحمل عقلها لأدق أدق الذكريات سيقودها للجنون لا محال.

ـ هل كل شيءٍ على ما يرام يا داليدا؟

سألتها جورجينا.

سرعان ما استعادت انتباهها وقالت:

ـ نعم، أنا بخير، ماذا سنفعل في الصباح؟

أعطت المرشدة منديلًا لتجفف داليدا دموعها التي سقطت رغمًا عنها، ثم قالت:

- سننطلق في الصباح إلى ميلانو، هناك حيث الآثار والأديرة والكنائس المسيحية، كذلك جولة في مسرح لاسكالا وساحة دومو، وبعد أن ننهي جولتنا في ميلانو سنذهب في اليوم التالي إلى الجنوب، حيث روعة السواحل والتعرف على عادات وتاريخ الغجريين في نابولي.
- وماذا عن جولتنا في روما؟
- سنؤجل جولتنا هنا إلى نهاية البرنامج.. حيث ستكون روما هي أجمل ختام للبرنامج قبل عودتكم إلى بلدكم.

لم يكن سؤال داليدا إلا محاولة للهروب من فخ التعري أمام جورجينا، تابعوا جميعًا ما تبقى من المباراة، في الدقائق الأخيرة كانت النتيجة هدفين مقابل لا شيء لصالح فريق المدينة الإيطالية، وهنا بدأ الأمل يراودهم في إحراز هدف آخر ليتأهلوا للدور الثاني، بدأ الأمر كـ مُزحة، وها هو على وشك أن يتحقق ويصبح أمرًا واقعيًا، مثل كل الأشياء التي تبدأ بفكرة ساخرة، ومع السعي والأمل تُصبح الأمنيات واقعية تتحقق أمام أعيننا، مع تسارع أحداث المباراة بدأت بعض الجماهير في الدعاء إلى الله، كان شغفهم يجعلك تشعر إنهم ينتظرون الفوز في معركةٍ على خصم اغتال واغتصب أرضهم لا مجرد مباراة كرة قدم، الأمر الذي أثار دهشة يمنى وإعجابها، سألت أصدقاءها في دهشةٍ:

- إنها مجرد مباراة كرة قدم، إنهم يُصلُّون كما لو أنها ساحة حرب!

لم يكترث أحد لكلماتها، فقد كانت أجواء المباراة أشد سيطرةً من الرد عليها.

غريب أمر الإنسان، قد يقضي حياته بعيدًا عن الله، لكن حين يحتاج للسند والعون لا يتردد لحظةً في عودته إلى الخالق، حتى في أتفه الأسباب وأبسطها يحتاج دائمًا للشعور بأن هناك من يسمعه ويستطيع تحقيق أمنياته، ربما لهذا الشعور فقط علاقة المرء بخالقه لا تقارن بأيةِ علاقة بشرية، أجمل ما يُقدمه الله لك هو شعور بأنك لست مضطرًا للتعبير المناسب أمامه، لا تحتاج لاختيار الكلمات بعناية، لا يهم إن كنت تهرول له مهزومًا أو منتصرًا، لا يهم إن كنت تملك خزائن الأرض أو تدعوا وأنت خالِ الوفاض، الله يسمعك وينتظرك طوال الوقت بكل ما فيك، الله يحبك دائمًا.

حدثت المعجزة، وأحرز فريق روما الهدف الثالث، استطاع أن ينتصر على فريقٍ عملاق يملك في ميزانيته الرياضية ما قد لا تملكه خزائن المدينةِ بأكملها، حدثت المعجزة وخرجت الجماهير تُعبر عن سعادتها بالألعاب النارية في قلب العاصمة، مسيرات احتفالية رائعة أجبرت الأصدقاء على الاحتفال معهم وكأنهم من أبناء المدينة، حتى ياسين الذي يشجع الفريق الأسباني نسِيَ ميوله الرياضية واحتفل معهم.

بعد نهاية اليوم عادت جورجينا إلى منزلها، بينما صعد الأصدقاء إلى غرفهم في الفندق، غدت يُمنى في نوم عميق بعد شقاء أولى أيام السفر، للمرة الأولى تغدو في نومها مطمئنّة بعيدًا عن مخاوفها بأنها مُتهمة دائمًا، بينما كان مروان يجهز ملابسه لجولة اليوم الثاني، داليدا لم تنسَ المهدئات، فتناولت جرعتها لتهرب من ضجيج أفكارها، بينما ياسين كان يتأمل في الفراغ وهو يراقب حساب «رقية» على الفيسبوك، يقرأ منشوراتها اليومية، ويتابع التعليقات، إنه اليوم الأول منذ فترةٍ طويلة التي سيغدو فيها لنومه دون أن يتحدثا ويتشاركا تفاصيل يومهما المعتادة، الليلة الأولى التي لن ينام كل منهما على صوت الآخر، الليلة الأولى التي لن تمارس رقية عاداتها في الغيرة، ولن يمارس ياسين عاداته في طمأنينة قلبها بكلمات الحب والجمال عنها، الليلة الأولى التي لا يمكنك أن تقول أنا مُتعب للشخص الذي اعتدت معه أن تقول له كل شيء، لا يمكنك اللجوء له في حزنك وتعبك، ولا يمكنك مشاركة سعادتك وجنونك معه، لم يعد المكان الذي طالما احتواك دون العالم يتسع لك، لم يعد بإمكانك ممارسة تفاصيلك مع شخص كان يتقبلك بكل ما فيك، الليلة الأولى في الفقدان، حيث الوحدة والتساؤلات وصراع على هل كان القرار من البداية صائبًا أم إننا تسرعنا في وضع نهايةٍ لقصتنا؟

أغلق ياسين الهاتف خوفًا من قضاء ليلةٍ في غاية التعاسة، غدا هو الآخر في نومٍ عميق منتظرًا أولى جولاتهم السياحة في إيطاليا.

الفصل السابع

«أنا غريب عن هذا العالم.. أنا غريب وليس في الوجود من يعرف كلمة من لغة نفسي».

جبران خليل جبران

«أقترب خطوة من دوافع الشخص، أكشف مدى رغبته وقدرته على التضحية والتنازل في سبيل تحقيق دافعه، حاول بشتى الطرق البحث عن نقاط ضعفه التي يمكنك من خلالها غرز أفكارك في السيطرة عليه، هل تفهمني يا جوماني؟».

أغلق الرجل دفتره، أشعل سيجارته، ثم أخرج من الثلاجة زجاجة النبيذ الفرنسي، وجلس يستمع لأغاني «frank sinatra»، هو يؤمن إن الإنسان أكمل ما صنعه الله في مخلوقاته، ويؤمن إن الفن أصدق ما صنعه الإنسان، الفن يُغذي الروح ويملؤها بالشغف

والأمل، الفن رسالة للبقاء، لولاها لغرق الناس في تعاستهم وبؤسهم، الفن اللغة الوحيدة التي يفهمها ويعرفها كل البشر، يجتمعون عليها بالرقص أو الغناء، يستمتعون صامتون وهو يتغلغل في نفوسهم، يعريها ويداويها ويعانقها، قد تغتالك أغنية تجعلك لا تنام لليالٍ من فرط الحنين، وقد تثيرك لوحة جميلة لتعبر بها عن مدى حبك لمعشوقتك، أو قد تنقذك من الانتحار، عبارة كتبها كاتب يعاني مثلك نفس المعاناة ويشعر بما تشعر، الفن قد يجعلك تقلب مدينة رأسًا على عقب، تثور لكلمات أغنيةٍ أو تهدأ لقصيدةٍ شعرية، تلهمك قصة أو تدفعك رواية للجنون، هو يؤمن إن الفن أعظم ما صنعه الإنسان.

قطع لحظات التجلّي مع الموسيقى اتصال جورجينا التي أخبرته أنهم سينطلقون لتبدأ أولى جولاتهم السياحية إلى مدينة ميلانو.

سألها:

ـ وما انطباعك عنهم بعد اللقاء الثاني؟

قالت جورجينا:

ـ قلت لك مسبقًا، إن لكل شخص منهم رؤية مختلفة عن الآخر، لستُ مختصة نفسية، لكنني أستطيع أن أجزم إن خلف هؤلاء قصصًا حدثت جعلت هذه الرحلة أكبر من وقتٍ للرفاهية، ربما نحن في حاجةٍ بالفعل لمختصٍ نفسي واجتماعي سيتدارك هؤلاء.

صمت الرجل لثوانٍ، ثم قال:

ـ حسنًا، سأتصل بكِ لاحقًا.

أنهى المكالمة، فكر لثوانٍ في الشخص المناسب الذي يمكنه اقتحام حياة هؤلاء ليثقوا به ويصبح فردًا منهم، فقد كان من بين مساعديه أشخاص كُثر يمكنهم الوثوق بهم.

عاد الرجل من جديد للكتابة في دفتره:

- إذا أردت أن تصبح فردًا جديدًا في مجموعةِ أصدقاءٍ تربطهم علاقة وطيدة، ارتدي ملابسهم، تحدث بلغاتهم، بادلهم نفس الاهتمامات، وشاركهم نفس أحزانهم وأثقالهم، كن متعاليًا قويًّا، للحد الذي يجعلهم يرونك مثالًا وقدوةً لهم في القوةِ والثبات، ومتواضعًا للحد الذي يجعلهم يطلبونك في الرابعة صباحًا ليحدثونك عن أوجاعهم، كـن مثلهم.

توقف عن الكتابة وبدأ في تصفح المعلومات الخاصة بـهم، قرر أخيرًا الاستقرار على أحد مساعديه، فتاةٌ في العشرينات، لها تجارب عملية وعلمية فريدة في مجال علم الطب النفسي، جميلة وجذابة للرجال، وودوة مع الفتيات، وعلاقتها باللغة العربية قوية، تصلح للقيام بمهمتها على أكمل وجه.

طلبها على الهاتف:

- Buongiorno، signore

- Buongiorno

بصوته الحازم دائمًا وباللغة العربية قال:

ـ بعد قليل ستذهبين إلى ميلانو، هناك في فندق «أبتاون بلاس» غرفة مخصصة لك، فور وصولك اتصلي بـ جورجينا وهي ستخبرك بما عليكِ فعله.

لا أحد يجرؤ على سؤال الرجل عما يدور في رأسه، قالت الفتاة:

ـ حسنًا، سأنطلق إلى هناك بعد ساعةٍ من الآن.

قال وهو ينهي المكالمة:

ـ إلى اللقاء يا تالا.

هنا لم تفهم الفتاة مقصده، فقالت في تعجبٍ:

ـ تالا!

قال وهو يودعها:

ـ هذا اسمك المستعار طوال هذه الفترة.

أنهى المكالمة، ثم عاد واتصل بـ جورجينا وأخبرها بما حدث، ثم أبلغها أن تحاول قدر المستطاع أن تؤجل الجولة الأولى في معالم ميلانو إلى صباح الغد، اتفقت جورجينا مع السيد على كل شيء، ومن ثمَّ اتجهت إلى الأصدقاء، وعاد هو ليفكر فيما سيحدث مستقبلًا.

ذهبت جورجينا إلى الأصدقاء، وانطلقوا في رحلةٍ مدتها ٥ ساعاتٍ من روما إلى ميلانو، وصلوا إلى فندق «أبتاون بلاس»، أقنعتهم أن يستريحوا ويقضوا ما تبقى من اليوم في الفندق، ومن ثمَّ تبدأ رحلتهم في الصباح، وافقوا واتجهوا لغرفهم.

في المساء أخبرتهم موظفة خدمة العملاء إن هناك حفلةً لـ فرقة «لاكونا كويل» الغنائية، وهي واحدة من أشهر الفرق الغنائية في ميلانو، وتدعوهم للحضور، رفض الأصدقاء الخروج عدا ياسين الذي بدأ يشعر بالملل، خرج وحده للحفل، وهناك كانت الأجواء رائعة، الرقص والغناء طوال الوقت، بعد وصلةٍ من الرقص والغناء جلس على البار، وظل يتابع الجماهير، ويُفكر في خططهِ القادمة، حتى فوجئ بفتاةٍ تقف أمامه.

بالعربية سألته:

ـ أنت عربي، أليس كذلك؟

توتر ياسين قليلًا، ثم رد:

ـ نعم.

جلست بجوارِه:

ـ اسمي تالا، مصورة في الحفل، تابعتك وسط الحضور لملامحك المميزة، أنا إيطالية من أصول تونسية، لم ألتقِ بشخصٍ عربي منذ مدةٍ طويلة.

ابتسم ياسين وقال:

ـ أهلًا تالا، أنا ياسين من مصر.

سألته وهي تُحدق في ملامحه:

ـ آسفة إن قطعتُ عُزلتك.

رد وهو يُشعل سيجارته:

- لا، لقد بدأت أشعر بالملل فخرجت من الغرفة وبدأت في استكشاف الأجواء.

سألته:

- هل هي الزيارة الأولى لك لميلانو؟

ضحك ياسين وقال:

- نعم، إنها المرة الأولى التي أسافر فيها خارج القاهرة.

ارتفع صوت الغناء من جديد، فاقترحت تالا عليه جولةً في شوارع ميلانو، لم يمانع ياسين وخرج معها.

كانت الأجواء الباردة تُسيطر على شوارع ميلانو، لاحظت تالا أن ياسين لا ينبهر بالمباني القديمة كعادة السائحين هنا في ميلانو.

سألته:

- ألا تعجبك المباني القديمة؟

أجاب:

- أراها طوال الوقت في مصر.

سألته متلهفة للإجابة:

- هل تسكن في حيٍّ أثري؟

رد ساخرًا:

- نعم، أثري بالفقر، والجوع، والبيوت المتهالكة، وأصحابهم ببطونهم الفارغة.

ردت:

- لم أفهم ما تقصده.

قال:

- لا عليكِ، الأجواء هنا رائعة.

سألته:

- كم يوم ستقضي هنا؟

رد وهو يتأمل المارة:

- سنبدأ في الصباح أولى جولاتنا هنا، ومن ثمَّ سنسافر إلى نابولي.

- لقد تغيرت اللغة العربية بالزاف وأصبحتم تستخدمون مرادفات الجمع على الأفعال الفردية.

قال لها ليوضح الصورة:

- أنا هنا مع أصدقائي في رحلةٍ سياحية.

قالت وهو تضحك:

- يبدو إنني أصبحت أملك أصدقاءَ جددًا من العرب.

رد لها كلمات الحب والود، وواصلا السير حتى جلسا في أحد المقاهي الشعبية، وهناك غلب الصمت؛ كان يفكر في عدة أشياءٍ يريد معرفتها من تالا، لكنه تردد حتى سألها سؤالًا آخر:

- وأنتِ تعيشين مع عائلتك هنا؟

قالت تالا:

ـ ولدت في تونس، وقضيت طفولتي هناك، لكنني لم أرَ أمي؛ فقد ماتت بعد ولادتي بفترة، ومن ثمَّ قضيت مع أبي فترة في باريس حتى العودة إلى موطنه وبلدته الأصلية هناك في تورينو/ إيطاليا، ومات هو الآخر قبل ثلاث سنوات؛ فأصبحت أعيش بمفردي، أتنقل بين البلدان، وأكتشف عوالم جديدة، كنت أفكر في السفر إلى جنوب إفريقيا، لكنني علمت بميعاد الحفلة، فقررت المجيء إلى هنا في رحلةٍ داخلية في إيطاليا، أنجز بعض أعمالي هنا، ومن ثمَّ أغادر إلى جنوب إفريقيا.

سألها وهو يغلب عليه علامات التوتر:

ـ وما طبيعة العمل هنا؟

ردت بعدما طلبت فنجانيّ لاتيه:

ـ كل الشبان العرب فور وصولهم يسألون مثل هذه الأسئلة، هناك فرصة قوية للانضمام لسوق العمل الإيطالي، خصوصًا بعد عودة إيطاليا للاتحاد الأوربي.

اندفع ياسين رغمًا عنه وقال:

ـ هل بإمكانك مساعدتي؟

ردت تالا التي كانت تتوقع هذا السؤال:

- وأكثر من ذلك، لا تقلق.

بدأ الأمل يراود ياسين، وظهرت على ملامحه علامات الارتياح قليلًا.

قضى الاثنان وقتًا رائعًا، ثم عادا إلى الفندق، فقد قالت تالا لـ ياسين أنها نزيلة معه في الفندق ذاته.

اتفق الاثنان على تناول وجبة الإفطار معًا، واقترح أن تسافر معهم إلى نابولي، فكان رد تالا أنها ستخبره في الصباح إن كان بإمكانها المغادرة أم لا.

انتهى اليوم بنسمات أملٍ داعبت روح ياسين المنطفئة.

الفصل الثامن

في ميلانو بدأ كل شيء

«في البداية لن تتمكن من السيطرة على مجموعةٍ دفعةً واحدة، فرقهم لمجموعتين، وابدأ في زرع أفكارك بين إحدى المجموعتين، ابذل كل طاقتك لتُقنع المجموعة الأولى بأفكارك، ومن ثمَّ ستصبح تلك المجموعة مواليةً لأفكارك، سيدافعون عنك حتى تؤمن المجموعة الثانية بمثل ما يؤمنون، ومن هنا يمكنك السيطرة عليهم، هذه نصيحتي لك يا جوماني».

أغلق الرجل دفتره، واتصل بـ جورجينا وتالا، أخبرهما بما عليهما القيام به في هذه الجولة.

بدأ الرجل في وضع خطواته الثانية في خطته، وواصل متابعة التقارير التي أرسلتها له صديقته في مصر عن الأصدقاء.

في الفندق..

استيقظ ياسين منتعشًا بالأمل الذي راوده من وعد تالا بمساعدتها لـه، ارتدى ملابسه، وخرج للمطعم، كانت هناك تالا تجلس وحدها، اقترب من طاولتها فلاحظت وجوده، وجلست معه على طاولةٍ واحدة.

سألته:

- إلى أين ستذهبون اليوم؟

قال وهو يطلب من النادل فنجانًا من القهوة:

- ستكون جولتنا في أنحاء ميلانو.

قالت تالا:

- كنت أتمنى مرافقتكم في هذه الجولة، لكنني أرى الكنائس والمتاحف والمباني القديمة بشكلٍ يومي لأنني أعمل هناك طوال الوقت، استمتعوا بيومكم.

قال ياسين:

- وليست الأماكن المفضلة بالنسبةِ لي، هل يمكننا الذهاب إلى مكانٍ آخر؟

ردت تالا:

- ميلانو واحدة من أهم عواصم الأزياء والموضة، وعنصر جذاب جدًّا للسياحة في مجال التسوق، سأقضي يومي في المتاجر والمولات التسويقية.

التسوق أيضًا ليست العادة المفضلة بالنسبة لياسين، لكنه أراد أن يُعمق العلاقة مع تالا، وهذا ما قد حدث بالضبط، فقال:

- يمكنني مرافقتك إن أردتِ.

ردت والسعادة ظاهرة على ملامحها:

- بكل سرور.

توافد الأصدقاء رويدًا رويدًا على الطاولة عدا مروان الذي استيقظ متأخرًا، وما إن وصل حتى لاحظ وجود فتاةٍ غريبة بينهم تجلس رفقة ياسين.

فقال له:

- ألم نتفق أن لا نرافق النساء يا رجل؟ ثم هذه الفتاة لا تملك أردافًا أو نهدين مثيرين.. انحدر ذوقك النسائي يا صديقي!

احمر وجه ياسين، وتلعثم في الرد.

فقالت تالا ساخرة:

- لولا إنني أعرف أنك لا تعرف إنني عربية لقطعت لسانك!

بثقلٍ وبديهةٍ سريعة لرجلٍ عسكري رد:

- لا عليك، لقد قلت الحقيقة، لكنك تملكين وجهًا جميلًا.

جلس مروان على الكرسي، وقدم يديه للمصافحة:

- مروان صديق ياسين المقرب، رجل أعمال أعزب يبحث عن علاقة رومانسية مع فتاةٍ مجنونة في سريةٍ تامة.

ضحكت داليدا وقالت:

- وضابط مفصول من عمله لأنه يبحث دائمًا عن هذه العلاقة.

قاطعها مازحًا:

- المرأة يا سيدتي التي من أجل إنصات آدم لها هبطنا إلى الأرض، المرأة التي من أجلها اشتعلت الحروب والمعارك، ألا تستحق أن أُضحي من أجلها أنا أيضًا؟!

قالت وهي تواصل المزاح:

- حسنًا أيها المضحي، تناول فطورك في صمتٍ لنبدأ رحلتنا.

كانت تالا قد اندمجت سريعًا بينهم، ولم يكن اندماجها بالمهمةِ الصعبة؛ المصريون اجتماعيون بطبيعتهم مع الغرباء، حتى وإن كانوا نفسهم هم الضيوف، إنه شعب لا يرفض الغريب بطريقةٍ ساذجة، ولهذه الطبيعة لم تكن مصر دولةً شرسة مع المدنيين من ضيوفها، فقد استقبلت على أرضها من مختلف الشعوب والأديان، ولا تزال بعض الأماكن في الإسكندرية والقاهرة تحتفظ بطبيعتها القديمة، وأسماء شوارعها منسوبة للضيوف سواء اليونانيين والإيطاليين

واليهود في الإسكندرية أو الإنجليز والفرنسين في القاهرة، وكافة المحافظات التي استقبلت مختلف الجنسيات.

مع مجيء جورجينا التي تظاهرت بالطبع بعدم معرفتها بـ تالا، بدأوا في الاستعداد للرحيل.

سألها ياسين سؤالًا يعرف إجابته جيدًا:

ـ ماذا سيحدث اليوم؟

أجابت جورجينا:

ـ سنذهب في جولةٍ للكنائس والمتاحف والمباني القديمة من مختلف الحضارات، وفي الختام سنقوم بجولتنا التسويقية.

اقترح ياسين أن يقضي يومه مع تالا في التسوق رافضًا قضاء يومه في جولتهم الأثرية.

تعجبت داليدا من اقتراح ياسين، لكنها التزمت الصمت، في حين لم تُبدِ يُمنى أي انطباعٍ عن اقتراح ياسين.

وكان من البديهي أن لا يترك مروان الفرصة لياسين ليستمتع وحده بهذه الجولة مع فتاةٍ يمكن أن تدعو صديقاتها، ومن ثمَّ يقضيان سهرة لطيفة، فـ انضم لياسين وهو يهمس له: «لنتقاسم الكعكة يا صديقي».. في النهاية تفرقوا لمجموعتين.. الأولى: يمنى وداليدا رفقة جورجينا.. والثانية: مروان وياسين رفقة تالا.

بدأت رحلة جورجينا في ساحة دومو الخاصة التي تحتوي على كاتدرائية دومو أكبر كاتدرائيات العالم، كانت الأجواء لطيفة، لكن

كان رأس داليدا مشغولًا بـ تالا، هي لا يعجبها وجود شخص غريب بينهم، ولا تعجبها التفرقة التي حدثت للمجموعة، لكن في النهاية لا تملك أسبابًا مقنعة لعدم ارتياحها لأمر الفتاة، فالتزمت الصمت وواصلت الجولة مع يُمنى وجورجينا.

لم تتحمل داليدا حمل الأفكار في رأسها لوقتٍ أطول، وأثناء تناول الغداء قالت لـ يمنى:

ـ لا أحب فكرة وجود تالا بيننا، صحيح إن لقاءنا بها لم يتجاوز الساعة، لكن لم أشعر بالراحةِ معها، لا أعرف، لكنني أخشى على ياسين ومروان من مرافقتها.

ردت يمنى:

ـ لا أجد أسبابًا مقنعة لعدم ارتياحك لها، على أي حال دعينا نستمتع بالرحلة.

لم تشارك جورجينا في الحوار معهما، كانت تحاول أن تترك الحرية لصديقتين من أجل التعبير عما يدور في رأسهما، لكن لم يستمر صمتها طويلًا حين سألتها داليدا عن رأيها في وجود تالا بينهم.

فقالت:

ـ مسؤوليتي هي تلبية وتنفيذ البرنامج المتفق عليه، لا أحب التدخل في أشياءٍ لا تعنيني، لكن كنت أعرف إن مروان لن يترك ياسين بمفرده، مروان يحب النساء، لاحظت هذا منذ اللقاء الأول، ولن يسمح لصديقه

التنزه مع فتاةٍ بمفرده، صحيح إنني فوجئت باقتراح ياسين في البداية، لكن أظن إن ما قد يجمعهم هو الألفة والود، وعلى أي حال هم في رحلة، ويحق للجميع فعل ما يحلو له.

ساد صمتٌ طويلٌ بينهم، ومن ثمَّ اتجهوا إلى مسرح لاسكالا، واحد من أشهر المسارح في العالم، وعلى الجانب الآخر وفي مركز غاليريا فيتوريو إمانويل أقدم مراكز التسوق في العالم كانت الأجواء أكثر حماسة بين مروان وياسين وصديقتهما الجديدة تالا، بدأ الأمر بالتسوق في المتاجر الصغيرة، كان مروان يُشبع عينيه بأقدام النساء، ويغازلهن بكلماتٍ شعبية لم تفهمها تالا، بينما ياسين كان مشغولًا بالبائعين، يسأل تالا من حينٍ لآخر عن المرتبات وساعات العمل وطبيعة الحياة هنا، كانت إجابات تالا دائمًا تنهيها بكلمات الطمأنينة لياسين، أثناء التجول ودون أن يشعروا دخلوا في أحد الشوارع القديمة الشعبية في ميلانو، وفجأة سمعوا صوت رجلٍ يستغيث، تابعوا الصوت حتى وجدوا رجلًا عجوزًا يحاصره رجلان بنيانهما قوي قاصدين سرقته بالقوة، تابع مروان الموقف ولم يتحمل الصمت أمام استغاثة الرجل، منعته تالا من مساعدة العجوز، لكنه رفض واشتبك معهما، لم يتحمل ياسين أن يرى مروان يتصارع معهما بمفرده؛ فـ انقض هو الآخر نحوهما لمساعدة صديقه.

فوجئت تالا بقوة وسرعة ردود أفعال مروان القتالية السريعة، كاد أن ينتهي التشابك بسفك الدماء، لولا تدخل الحكماء وهروب

الرجلين، شكرهما العجوز، وأعطى لهما مبلغًا ماليًّا كبيرًا، في البداية رفض الاثنان قبول المبلغ، لكن مع إصرار العجوز وافق الاثنان ومضوا جميعًا.

- تخيل من كل عملية إنقاذٍ أن نتكافأ بمبلغٍ كهذا!

قالها ياسين مازحًا لمروان الذي رد:

- أنا أستمتع وأنا أرى الناس يتألمون من قوتي وقسوتي عليهم.. أحب فرض السيطرة والقوة على الجميع.

قالت تالا:

- لكن هناك أضرارًا كبرى في مثل هذه العمليات، فقد تتعثر بمجموعةٍ مُسلحة لن تتغلب عليهم.

رد ياسين:

- الأمر يستحق العناء.

قالت تالا:

- تعجبني قوتك يا مروان، أحتاج في أعمالي رجلًا مثلك أستطيع الاعتماد عليه.

شعر ياسين أن البساط ينسحب من تحت قدميه، فقال:

- يبدو إننا وجدنا عملًا هنا يا صديقي.

بنرجسيةٍ وثقلٍ معتادين من مروان رد:

- دعيني أفكر في الأمر.

رد ياسين في محاولةٍ أخيرة لإثبات وجوده ورغبته في البقاء هنا:

ـ أظن إن البقاء هنا يحتاج لإجراءاتٍ معقدة.

ردت تالا وهي تُمسك يديه:

ـ لا تقلق، بإمكاني القيام بكل شيء.

قرروا أخيرًا العودة إلى الفندق، ومن ثمَّ الخروج مرة أخرى بعد منتصف الليل.

لم يختلف قرار المجموعة الثانية، وعادوا أولًا إلى الفندق، ثم الخروج بعد منتصف الليل.

في الثانية صباحًا اجتمع الأصدقاء مرة أخرى لاستكمال جولتهم، اقترحت جورجينا قضاء سهرتهم في إحدى البواخر في ساحل ميلانو، وافقوا جميعًا على الاقتراح، وانطلقوا إلى هناك.

كانت الباخرة مخصصة لهم فقط، مما أعطى لهم الحرية في الرقص والشرب والغناء، عدا يُمنى التي لا تشرب الخمر.

راقص ياسين تالا، بينما كان مروان يراقص داليدا، وجورجينا تجلس بجوار يُمنى، فسألتها:

ـ لم لا ترقصين معهم؟

ردت:

ـ أنا خجولة بعض الشيء، أحب الجلوس ومتابعتهم وهم يستمتعون بحياتهم.

ردت جورجينا:

- أنت جميلة يا يُمنى، لكنك تحتاجين لكسر بعض عاداتك لتظهري جمالك.

ابتسمت بخجلٍ وقالت:

- أنا محامية ومعيدة في الجامعة، ويتوجب عليَّ الظهور في وقارٍ طول الوقت.

قاطعتها مازحة:

- أنت هنا في إيطاليا يا صديقتي.. استمتعي بالحياة.

ابتسمت يُمنى، وبعد ثوانٍ سألتها من جديد:

- هل أنا جميلة؟

ردت جورجينا:

- أكثر مما تظنين عن نفسك.

من فقرة الرقص والغناء استراح الأصدقاء، ومن ثمَّ اقترحت جورجينا أن يلعبوا اللعبة القديمة المشهورة «الزجاجة»، وافق الجميع، لكن كان لياسين إضافة أخرى حينما عرض عليهم اللعب على أغاني أم كلثوم، لم يمانع أحد، حتى جورجينا وتالا اللتان أيدتا الفكرة، ووافقتا عليها.

بدأت اللعبة على أغنية «إنت عمري»، كان الجميع في حالةٍ مزاجية جميلة تسمح لهم بالفضفضة والتحدث بتلقائية وسرد ما يدور بداخلهم.

أثناء اللعب قالت داليدا وكأنها تتحدث إلى نفسها:

- «أنت عمري» وصف مُبهم وغريب مليء بالتساؤلات.. لم أرَها رومانسية أبدًا، قد تكون أنت عمري من الحزن، أنت عمري الضائع في الانتظار، أنت عمري الضائع في خذلاني منك، أنت عمري الضائع في محاولة نسياني لك، أنت عمري الضائع في الخيبات، أنت عمري الضائع في الحنين.. الاشتياق والمأساة.. أنت عمري والعمر يأتي مرة واحدة، ويا للقسوة حين يكون عمرك مضى في الحزن والتعاسة!

قاطعتها يُمنى:

- حطمتِ نظرتي الرومانسية عن الأغنية.

ضحك الجميع، فقالت يُمنى وكأنها تشارك داليدا نفس المأساة:

- لقد قضيت عمري متنكرة، متنكرة في أشياءٍ لا تشبهني ولا أنتمي لها، أحب الرقص، لكن لا يصح لفتاةٍ مثلي أن ترقص أمام الجميع، أحب الغناء، لكنني لم أُغنِ يومًا حتى لنفسي، أحب الوقوف أمام مرآتي لكنني لا أرى أمامي إلا وجهًا لفتاةٍ تعيسة خجولة، فاقدة للثقة في نفسي وفي العالم، وحتى حين تعثر قلبي في الحب لم أحصد منه إلا الشقاء.

همس مروان لـ ياسين:

- يبدو إننا على وشك قضاء ليلةٍ كئيبة يا صديقي.

سريعًا حكى مروان ما حدث لهم في جولتهم، والمشاجرة التي حدثت مع اللصوص.

قالت جورجينا:

- أحب نُبلك في مساعدة الرجل.

قال ياسين وهو يصب لنفسه كأس النبيذ:

- لو كان العجوز هو من يُبرحهم ضربًا بما يكفي لساعد اللصوص، هو مفتون بفرض السيطرة والقوة فقط.

رد مروان:

- ولو لم يراودك الشك في الحصول على مكافأة لما تحركت من مكانك.. كلانا تُحركه غرائزه يا صديقي، نحن بشر ولسنا ملائكة.

ردت داليدا:

- أتفق معك، نحن صنع غرائزنا، لكن هناك ثمة مبادئ لا بُدَّ أن نلجأ لها حين تضعنا الحياة أمام المواقف الصعبة.

قاطعها ياسين:

- لو شاء القدر ووضعتك الحياة أمام موقفٍ يستدعيك للانتقام من عمك لن تترددي للحظةٍ في الانتقام.. لا

تحاولي ارتداء قناعًا لا يناسبك، كلنا في انتظار فرصة لرد الاعتبار على صفعاتٍ مؤذية شوهت حياتنا، وإن أُتيحت الفرصة لن يتردد أحد.

شعرت داليدا بنغزةٍ في قلبها بعد كلمات ياسين، كانت تعرف أن ثباتها ينهار، لكنها تواصل الثبات.. أقدامها ترتعش في نهاية اليوم لكنها ما زالت واقفة.. قلبها ينبض أسرع مما كان عليه لكنها تتظاهر بالقوة.. تلاحقها الكوابيس في منامها، لكنها تستيقظ وتواصل مهامها.. الصداع يأكل رأسها طوال الوقت لكنها لا تشكي لأحد.

كانت تشعر بقوتها وهي تتحطم رويدًا رويدًا، لكن لم يكن بمقدورها إنقاذ الموقف؛ لقد استُهلكت طاقتها في صراعاتٍ قديمة.. في صراعاتٍ لم تجنِ منها إلا الهزيمة.

ساد صمت طويل بين الأصدقاء، قرروا المبيت في الباخرة بعد أن تغلب النوم عليهم.

أخبرتهم جورجينا إن الطائرة ستنطلق في السابعة مساءً إلى نابولي، فعليهم أن يستيقظوا مبكرًا ليذهبوا للفندق لجمع أغراضهم، ومن ثمَّ سينطلقوا معًا إلى نابولي.

الفصل التاسع

«كان غيورا، قلقا، ورقيقا وقد أحبّني، كأنني شمسُ الرب»

أنا أخماتوفا

«المال هو السلاح الأكثر فاعلية للسيطرة على ملايين البشر، إن الناس يركضون طوال الوقت من أجل تحقيق هدف الثراء، فإن كنت تملكه فالطريق ممهد لك لتتسيد الأرض، وفي حوزتك المال بإمكانك شراء الآراء، الأفكار، الأحلام، بإمكانك التفاوض على المبادئ والحقوق، المال هو العصاة السحرية لكل الأزمات التي تقف أمامها عاجزًا عن إيجاد مخرجٍ لها يا جوماني».

دوَّن الرجل كلماته في دفتره، ثم أشعل سيجارته، وانتظر جورجينا وتالا اللتين لم تتأخرا ووصلا في ميعادهما المتفق عليه، تالا هي الفتاة المفضلة بالنسبة له، فتاة في منتصف العشرينات،

ذكية وجميلة وشخصية قيادية، تكن كل الاحترام والتقدير والمودة، الوحيدة التي يسمح لها أن تقول آراءها وأفكارها في تصرفاته، هو يُقدر ذكاءَها وقوتها وقدراتها الهائلة في تحليل الأشخاص، غير إيمانه التام بولائها الكبير له.

جلست تالا، وافتتحت كلماتها سريعًا:

- بإمكاننا البدء من الغد، أراهما مناسبان لما نريد، مروان ضابط ذكي وقوي وسريع وسنحتاج لخبرته العسكرية في فنون القتال، ربما أكثر ما يعيبه هو شخصيته المرحة طوال الوقت، مع حبه المبالغ للنساء، لقد قالت داليدا مازحة إنه فُصل من العمل لهذا السبب، لم أستطع التحقق من الرواية التي تقصدها داليدا، لكن هو شخص عدواني يمكن ترويضه بسهولة، ناهيك يا سيدي عن حبه للسيطرة وفرض النفوذ والقوة على الناس، ربما هذا الاضطراب نتيجة لفصله من العمل، لم يسمح الوقت لمعرفة تفاصيل القصة، لكن أرى شخصًا يمكن الاعتماد عليه.

واصلت تالا التي لاحظت إن الرجل يقرأ أحد الملفات وهو يستمع لها:

- ياسين شخص مضطرب، فقير بإمكانه القيام بكل شيءٍ في سبيل الهروب من دائرة الفقر، على ما يبدو إن زيارته السياحية ما هي إلا مجرد تأشيرة للهروب من

جحيم الفقر في مصر والعيش هنا في إيطاليا، هو ذكي لكنه مشوش جدًّا، ويخشى دائمًا من هروب الأشياء من بين يديه، كنت أفكر في رد فعله حين يعرف ما نريده منه، لكن حين قالت داليدا إننا في النهاية من نصنع مبادئنا كاد أن ينفجر في وجهها، لكنه لم يحب الظهور بهذه الصورة فسخر منها، لم أسأله عن تخصصه التعليمي، لكنه لا يميل للقتال، وإن حدث فمشاركته معتمدة على ما سيحصده من هذا الشجار، لا أعرف هل سنحتاجه معنا أم لا؟ بعض التفاصيل لا تزال غائبة عني تحتاج لوقتٍ أطول.

نظر الرجل لجورجينا في إشارةٍ منه لتبدأ الحديث عن داليدا ويُمنى:

- داليدا بوابة إقناع يُمنى، داليدا شخصية قوية وعنيدة، تفرض شخصيتها على الجميع، متشككة فيمن حولها، لم تشعر بالراحة من وجود تالا، تشعر بالمسؤولية تجاه الجميع مهما أظهرت عدم اكتراثها لأحد، لقد ركزت تالا في الكلمات التي قيلت بين السطور، وهذا ما لاحظته حين قال ياسين لو سمح لك القدر للانتقام من عمك لما ترددتِ لحظة واحدة، توقعت أن تثور داليدا، لكن صمتها كان بمثابة الدليل القاطع على أن هذه الفتاة تُخفي سرًا ورغبةً حقيقة في الانتقام، يُمنى

فاقدة للثقة في نفسها، يبدو إنها لم تكن محببة لدى الرجال، معقدة ومتحفظة بشكلٍ كبير، لكنها ليست ملتزمة دينيًا، إنما هي خاضعة للعادات والتقاليد، حين تجلس مع يُمنى تشعر وكأنها تهرب من شيءٍ ما حولها، دائمًا تراها خائفة ومهزوزة، لذلك هي تشعر بالأمان والطمأنينة في وجود داليدا، لا أعرف مدى استعداد الاثنتان للأمر، ولست متأكدة من موافقتهما، خصوصًا دليدا.

ساد صمتٌ طويلٌ بينهم، تنهد الرجل ثم قال:

ـ بعد التقارير التي قُدمت لي من مصر، اخترقت هواتفهم، وكشفت بعض أسراهم، كانت المشاجرة التي حدث مع العجوز أول اختبارٍ للكشف عن أسرار مروان وياسين، في الباخرة تابعت الحفل، ومحادثتكم، وأعجبني ذكاء داليدا، بالمناسبة ياسين مهندس عبقري لم ينل ما يستحقه في مصر، لكلٍّ منهم أحداث غيرت مجرى حياته، سنحتاج منهم أن يكشفوا عنها بأنفسهم، وأمامهم المفتاح لبوابة العبور من مأساتهم، أقصد إننا سنعرض عليهم أولًا ما نريده، ومن ثمَّ سنتركهم لأفكارهم وتجاربهم، لن تخيب ظنوني وخططي، الآن عودا إليهم، واذهبوا إلى نابولي.. سأنتظركم هناك.

خرجتا وتوجهتا للباخرة، كان الأصدقاء لا يزالون غارقين في نومهم، أيقظتهم جورجينا لتخبرهم أن عليهم الذهاب إلى الفندق وجمع أغراضهم للسفر إلى نابولي، بينما قالت تالا إنها لن تسافر معهم من المطار لنفاد تذاكر الطائرة، مما سيضطرها الأمر للسفر على طائرةٍ أخرى، فرصة رائعة أخرى تسمح لـ ياسين لمشاركته لـ تالا، لكن هذه المرة رفضت داليدا اقتراح ياسين، التي قالت إننا اتفقنا على قضاء الرحلة معًا، وهذا التصرف غير مقبول، سريعًا احتوت جورجينا الأزمة، ووضحت أنه لا يوجد إمكانية لاسترداد قيمة التذكرة من الأساس، في النهاية عادوا للفندق ومن ثم توجهوا للمطار.

في الطائرة كان يجلس مروان رفقة يُمنى، بينما انشغل ياسين بمشاهدة أحد الأفلام على الهاتف، وكانت جورجينا تتحدث مع داليدا:

ـ حدثيني عن أخبارك يا صديقتي.

قالت داليدا:

ـ صدقًا لست على ما يرام.

سألتها:

ـ كيف حال فادي، لمَ لم يأتِ معكم؟

ابتسمت داليدا:

ـ فادي! لقد انتهت علاقتنا منذ فترة طويلة.

صمتت جورجينا لثوانٍ ثم قالت:

ـ تغيرتِ كثيرًا يا داليدا، يبدو أن الضغط عليك أكثر من أي وقتٍ مضى، أنا هنا، تحدثي معي، ربما تزيل الكلمات عبء وأثقال ما تشعرين به، حتى أُصدقائك الذين سافروا معك لا يشبهونكِ.

تنهدت داليدا، ثم عادت لصمتها، فاحترمت جورجينا رغبتها، وفجأة قالت:

ـ لا أعرف بالضبط وصف ما حدث معي، لكن بعد وفاة أبي انخلع قناع الود من وجه عمي، ظهرت حقيقته وأهدافه، كنت وقتها في السابعة عشر، أرى عمي الرجل الطيب الجميل الذي تربيت على كلماته ومودته، لكن الواقع لم يكن بهذه النظرة الوردية، مرت الأيام الأُولى على وفاة أبي باردة وهادئة، أعتصر ألمًا لفقدانه، وأعتصر من شعوري بالوحدة؛ كان أبي بمثابة العالم الصغير الذي يحتويني ويحميني من قسوة الأيام المنتظرة، ظننت بعد وفاة أبي إن عمي سيكون هو السند والعون، لكن بدأ الأمر حين قرأ المحامي وصية أبي، والمفاجأة كانت إن أبي تنازل عن نص أملاكه لعمي ليتصرف فيها كيفما يشاء، وقتها لم أبالِ ولم أكترث، وبمرور الأيام بدأ عمي يعرض عليَّ فكرة الزواج من ابنه الوحيد، كنت في الجامعة،

وكان مشروع الزواج بالنسبة لي محالًا، رفضت اقتراح عمي، وأخبرته إن «أدهم» بمثابة الأخ بالنسبة لي، ولن يكون إلا أخًا، وإن تركيزي مُنصب على إدارة أعمال أبي، سخر عمي من رأيي، ولم يعطِ انطباعًا واضحًا، مرت الأيام وبدأت مضايقات أدهم، شخص ثقيل الظل والروح مرفَّه وسطحي، مجرد وجوده معك في مكانٍ واحد يجعلك تشعرين بالضيق والتعب، لطالما حذرني أبي من أدهم، ولطالما قال إن مكرم أبو العزم -عمي- لم يحسن تربيته، كانت مضايقاته تجعلني أستشيط غضبًا، لكنني واصلت الصمت احترامًا لعمي، حتى بدأت المضايقات تتحول لتحرش نظري، هنا لم أتحمل، وأخبرت عمي بنظرات أدهم، واقتحامه لغرفتي أثناء نومي، بالطبع لم يصدقني، ومع تكرار الموقف واجهت أدهم بأفعاله، الذي أنكرها تمامًا.

تكرر الوضع حتى وصل للتحرش الجسدي المباشر، حين أمر من أمامه يلمس جسدي ثم يعتذر، وذات يوم قررت أن أصنع له فخًا، لم أغلق باب غرفتي وأنا نائمةً حتى رأيته يتسلل كاللصوص، جلس على السرير، وبدأ في ملامسة جسدي، وهنا صرخت وانتفضت، الأمر الذي جعل أدهم ينهال علي بالضرب المبرح، ويتهمني بأنني راودته عن نفسه، وحين رفض قررت

الانتقام وفضحه، فجأة أصبحت بينهم ينهالون عليَّ بالضرب المبرح، وبينما كان عمي يعذبني ويتهمني بالفجور كان أدهم يتحرش بجسدي، كنت أصرخ من قسوة الضرب المبرح والتحرش القذر من أدهم، بعد يومين استيقظت مُنهكة، لم يكن من فرط الضرب المبرح؛ بل كان من فرط التحرش والاعتداء الجنسي، يبدو إن أدهم قضى يومين يمارس معي كل أنواع التحرش والاعتداء، توجهت فورًا للحمام لأطمئن على عذريتي التي لم تخدش، بعد أن خرجت من الحمام كان كل شيء جاهزًا لإتمام عقد زواجي من أدهم، نظرت باستحقارٍ لعمي الذي صدقه وساعده، كنت أضعف من مواجهتهما معًا، رفضت مرة أخرى مما استدعى طردي من منزله، كنت أمشي في الشارع وحيدة لا أعرف وجهتي، لا أعرف إلى أين أمضي وإلى من أذهب، فلم يكن لدي أي أصدقاء، قادتني أقدامي لسوق العتبة، وهناك ذهبت لياسين، كانت علاقتنا ودودة رغم سطحيتها، فكنت أحتاجه لصيانة أجهزة المصرف، هو مهندس مكافح يعمل في أحد محلات الكمبيوتر، يسعى في الخير دائمًا، وبإمكانه مساعدتك دون مقابل، فوجئ حين رآني؛ فالوقت كان متأخرًا جدًّا، هرول نحوي وسألني إن كان مكروهٌ أصابني،

كانت علامات الضرب المبرح تلطخ وجهي، أخبرته إنني مُتعبة وأحتاج مكانًا للمبيت لليلة واحدة، عرض عليَّ المبيت مع أمه وأخواته، واعتذر عن رداءة المنزل والمعيشة، لم أكن في حالةٍ تسمح بأبسط الكلمات، وفي الصباح أيقظتني رسالة من أدهم عبر الواتساب، كانت عبارة عن...

قطع حديث داليدا صوت قائد الطائرة وهو يقول: «لقد وصلنا مطار نابولي...».

كانت جورجينا في حالة انتباهٍ شديد لحديث داليدا للحد الذي لم يجعلها تنتبه لصوت قائد الطائرة، فسألتها:

ـ وماذا كانت في الرسائل؟

ضحكت داليدا:

ـ رحلتنا طويلة، لا تقلقي، سأخبرك بكل شيء، هيا لنتحرك حتى لا يلاحظ أحد الحالة التي نحن عليها.

استعادت داليدا ذهنها، وجففت دموعها التي سقطت رغمًا عنها.

وصل الأصدقاء إلى جنوب إيطاليا (نابولي)، وهناك كانت الأجواء مختلفة عن روما وميلانو، شعب الجنوب هناك أقرب طبيعة للشعب المصري، من حيث التلقائية والفوضى، واجتماعيتهم التي تسع الجميع، أرسلت جورجينا رسالة لسيدها عما قالته داليدا، فوجئت بأنه على علمٍ بكل هذه الأحداث منذ فترة، لم تطرح عليه

أي سؤال على الرغم من كم الاسئلة التي دارت في رأسها، اتصلت بـ تالا لتخبرها بالخطوط العريضة التي عرفتها عن حياة داليدا، لم تعطِ تالا أي انطباع، لكن قبل أن تغلق المكالمة قالت: «ومن هنا بدأت علاقة داليدا بـ يمنى»، ردت جورجينا وهي لم تفهم ما تقصده الأخيرة، لكن دون جدوى، في النهاية اتجه الأصدقاء إلى الفندق ليستعدوا لجولتهم الثانية، بينما كان كل منهم مشغولًا بوضع أغراضه كانت داليدا لا تزال تحت تأثير التحدث عما جرى.

لم يولد أحد وفي قلبه ضغينة من الحياة، ولدنا أنقياءً بملامح بريئة، ونظرة طفولية ترى كل الأشياء حولنا جميلة ووردية، نحن لا نكبر بمرور الأيام، نحن نكبر بمرور المواقف والتجارب، بالخيبات والهزائم ولحظات الحزن والتعاسة، لكن واحدة من أقسى وأشد الأشياء التي تجعل المرء يكبر ويشيخ فجأة هي وفاة شخص يحبه، ولقد عانت كثيرًا بعد وفاة والدها، كان سؤال يراودها دائمًا، كيف ستقضي أيامها بعد وفاة أبيها، كانت تظن إنها ستلحقه، لكنها اكتشفت إجابة أصعب حين قضت أيامها ممزقة.

أقصد إنها قضت حياتها أمام الناس بشكل طبيعي، تحاول الخروج للعالم من جديد بقلبٍ محطم، تمارس عملها بشكلٍ طبيعي، تكتب المنشورات على مواقعِ التواصل الاجتماعي، تُحاولُ بشتى الطرق أن تكون اجتماعية؛ فتخرج للتجمعات، ترافق الأصدقاء في لحظات سعادتهم، وتشاركهم لحظات الحزن والتعاسة، تسعى دائمًا أن تكون بخيرٍ أمام الناس، لكن وفي نهاية كل يومٍ تعود لغرفتها

لتواجه حطامها، تواجه الذكريات والتفاصيل التي جمعتها بفقيدها، تتألم من قسوة الفقد والحنين، وتمارس طقوس حزنها وحدها في الظلام، ثم تستيقظ من جديد لتواصل حياتها الطبيعية كما لو أنها لم تتألم في الظلام.

لا أحد يواصل حياته بشكلٍ طبيعي بعد وفاة أحد المقربين لقلبه، كلنا نفقد جزءًا أصيلًا منا؛ جزءًا لا يظهر إلا معهم ولن يعود أبدًا.

لا تندهش من قدرة أحد على مواصلة حياته سريعًا بعد وفاة شخصٍ من المقربين لقلبه، فأشد أنواع الحزن ذاك الذي تحتفظ به بينك وبين نفسك.

وقد عانت داليدا أشد أنواع المعاناة بعد وفاة والدها.

في الثانية عشرة مساءً اجتمع الأصدقاء من جديد، كانوا ما بين قضاء هذه الجولة في التنزه، ومن ثمَّ العودة إلى الفندق بعد نهاية الجولة، أو ترك أغراضهم في الفندق وصنع «خيمة» على الساحل، وقضاء جولتهم هناك، وقد نال الاقتراح الثاني الذي عرضته يمنى استحسان الجميع، ومنها انطلقوا إلى الساحل ورافقتهم تالا.

صنع الأصدقاء خيمتهم، وبدأوا في جولة حرة ليلية ساحرة، وقضى كل منهم إلى رحاله، تالا مع ياسين، بينما رافقت جورجينا صديقتها داليدا، وذهب مروان لإحدى الحفلات الليلية، بينما فضلت يمنى البقاء في الخيمة وحدها.

بعد إصرارٍ من جورجينا واصلت داليدا قصتها وهما يستكشفان الساحل:

- فوجئت برسالةٍ من أدهم، كانت عبارة عن مقطع فيديو وصور وأنا عارية تمامًا، ومعها: «الآن يمكننا التفاوض على مسألة الزواج»، كنت عاجزة تمامًا، لا أقوى على إخبار أحد عما حدث، في هذه اللحظة بالذات تمنيت أن تبتلعني الأرض، هو الآن يملك ورقة رابحة للضغط عليَّ بكل السبل الممكنة، لقد استخدم أبشع الطرق للضغط عليّ، الصدمة الكبرى كانت من عمي الذي ساعده في خطته، بت أملك ضغينة لا نهاية لها، كنت مترددة بعض الشيء، فكرت لوهلة في الموافقة على الزواج منه وتجنب فضيحة ستلاحقني طوال حياتي، لم يكن في حياتي شخصٌ أثق به إلا ياسين الذي أخبرته بكل ما حدث في حضور أمه، السيدة التي أحببتها من الوهلة الأولى، واعتبرتها أمي وصديقتي، أتذكر وقتها كلماتها حين كنتُ على وشك الخضوع، فقالت:

- إياكِ أن تستلمي يا داليدا، إياكِ أن تعطي لأحدٍ حق الضغط عليكِ، ولدتِ حرة ولن تموتي إلا حرة في اختيارك لكل شيء، الفضيحة وتوابعها أهون من قضاء حياتك وأنتِ تشعرين بالعار من نفسك لأنك تنازلتِ عن حقوقك، لأنكِ رفضتِ المواجهة والسعي،

سيلاحقك شعور الندم طوال الوقت، وستنظرين لنفسك بهزيمة وخزي، لا يهم أن يؤمن العالم بك، الأهم أن تؤمنين أنتِ بنفسك، لا يهم ما سيقوله الناس عنكِ، الأهم ما تعرفينه عن نفسك، إيمانك بأنك تستحقين حياةً أفضل سيحقق لك ما أردتِ، مهما طال الانتظار.

كانت كلماتها مجرد فتيل المواجهة ضد عمي وأدهم، اقترح ياسين أن أرفع قضية ضد أدهم بتهمة الابتزاز، وبالفعل بدأنا في الإجراءات، وبحثنا عن محامٍ مهتم بهذه القضايا، فضلنا أن يكون الدفاع امرأة، ومن هنا تعثرنا بـ يُمنى التي ساعدتنا بكل قوتها، ارتبطت علاقتنا أكثر وأكثر، وتحول الأمر من مجرد وكيل وموكل لأصدقاء، رفضتُ الزواج من أدهم، وعليها منع عمي استمراري في الإشراف على أملاكي وحقي في الميراث بعدما فرض قوته وسيطرته ونفوذه، لم يكن أمامي إلا الزواج من أدهم للعيش في سلام تحت رحمتهم ومنعًا للفضيحة.

صمتت داليدا وأشعلت سيجارتها، ثم قالت لـ جورجينا:

ـ سيطول الحديث في هذا الأمر، لنعد إلى الخيمة.

عادتا بالفعل إلى الخيمة بعد ساعاتٍ من المشي، لم يكن أحد هناك، اتصلا بـ يمنى ليطمئنا عليها فلم ترد، سكنتهما الطمأنينة حين طلبا ياسين وأخبرهما إنه رفقة تالا على الساحل، بينما كانت أصوات الأغاني تغطي على صوت مروان في الحفل، وبعد ساعة

وصلت يمنى التي قالت إنها شعرت بالملل فخرجت للتنزه، وفي نهاية اليوم قالت جورجينا إن صاحب الشركة يدعوهم للغداء غدًا في باخرته في عرض البحر، وافق الأصدقاء بلا تردد، جهزوا مساكنهم في النوم حتى غلب عليهم جميعًا.



الفصل العاشر

حتى الشيطان كان ملاكًا

غرفة كبيرة، إضاءة خافتة يقطعها دخان مسيطر على الأجواء، لوحات معلقة على الجدران، صور لأشهر الأدباء والرسامين، جرامفون يخرج منه ألحان أغنية «موتسارت »، في خلفيته صورة مرسومة لفتاة تبدو على معرفة شخصية بصاحب المكان، كرسي كبير، وسبعة كراسي يجلس عليها كل من: داليدا، يمنى، مروان، ياسين، جورجينا، تالا، ومقعد فارغ.

الصمت يسود المكان.

يظهر من الباب الخلفي رجل يجلس مباشرة أمامهم، ومعه تتقدم امرأة عجوز تجلس على المقعد الفارغ، يتأمل الرجل ملامحهم في هدوءٍ وسط حالةٍ من الترقب.

لم ينطق أي من الحضور بأيةِ كلمة حتى ولو بكلمات الترحيب.

بعد ثوانٍ قال:

- في حياة كل شخص فرصة ذهبية لقضاء حياته كما يُحب، أمنياتنا في طفولتنا كانت بسيطة، لكن كلما كبرنا في العمر، ومع تجاربنا، ومعاشرتنا للناس، وتصادمنا المباشر بالواقع أدركنا صعوبتها، أدركنا إن العمر لا يُقرب منا أحلامنا؛ بل يقذفها بعيدًا جدًّا عنا، فتصبح مستحيلة تحتاج لمعجزةٍ لنحققها، نحن نولد بإنسانيتنا، نولد لا نحب مشاهدة الدماء، نتألم لتألم أحبائنا، لا نقوى على قطف زهرة من مكانها أو رمي الحجارة على الطيور في مساكنها، نولد بفطرة تمنعنا من الابتسامة في وجه الذين يكرهوننا، نولد بلا حقدٍ طبقيّ أو تحيز دينيّ وفلسفيّ، نولد أنقياء تمامًا، فلا نملك ضغينة أو ضيق من أحد، ولا نستطيع أن نتخيل أن نؤذي أو نتأذَّى من أي شخص، لكن مع الوقت نرى إن سفك الدماء أمر عادي، بل البعض يبرره، ويبتكر لأجله الحجج، نتألم ونتحطم ونعاني من أحبائِنا، وكم قذيفة حربية دمرت مساكن أبرياء عُزل كانت أقصى أحلامهم أن يقضوا حياتهم في سلام ومودة مع العالم، ندرك إن بإمكان الناس سرقة أحُلامك وأمنياتك، والتفاوض على عرضك وانتمائك، كنا أبرياء في نظرتنا، وكم شوهتنا الأيام لتغيرنا، لتُظهر أسوأ ما فينا، حولتنا لأولئك الذين أقسمنا أن لا نكون مثلهم مهما حدث.

تنهد الرجل، ثم واصل وكأنه يخاطب مجموعة من الأصنام:

- في قانون الغابة البقاء دائمًا للأقوى، هذا القانون الذي أنشأه السكان الأصليين للأرض، واستمر الصراع طويلًا بينهم قبل أن يهبط عليها بني آدم، إن خطأ بني آدم الأول حدث هناك في السماء، كان الفضول البشري الذي قاد حواء وآدم لقضم التفاحة من الشجرة الملعونة التي حذرهم منها الله، والخطأ الأول في الأرض كانت جريمة قتل قابيل لهابيل، الأرض التي أمرهم الله أن يعمروها ويعيشوا عليها في سلام ومودة تحولت لساحة حربٍ سُفكت عليها الدماء، لقدً أخلفوا وصية الله لهم، ولم يحترموا ولم يقدسوا أوامره، هذه الطبيعة البشرية التي قادت الجنرالات لشن الحروب، وتدمير أحلام الأطفال، والسبب في بكاء الأمهات والآباء، والموت حسرة من شعور العجز والخيبة.
- إن الطبيعة البشرية هي من استولت على حقوق الفقراء والمهمشين، سمحت بنهب وسرقة الحقوق والمتاجرة بالبشر والعرض، لم يكن إبليس أشد ضراوة علينا من الذل، لم يكن أشد ضراوة علينا من السرقة والمرض والفقر، لم يبتكر إبليس أفكارًا خبيثة ليُزين للناس السلطة والنفوذ، وإرضاء رغباتهم في الحياة، لقد كنا الفريسة الأسهل بالنسبة له، لقد رسم الطريق وجعلنا

نركض بكل سرعتنا للنهاية، حتى بدا لنا إن كل نقطة نهاية ما هي إلا نقطة بداية جديدة، لأننا من صنع مطامعنا نحن البشر أولاد القاتل قابيل.

على هذه الأرض بإمكان كل شخص أن ينهب، يسرق، يقتل، ويوسوس حتى يصبح أشد خُبثًا ودهاءً من مكر الشيطان، كل منا تعرَّض في حياته لجريمة قتل واحدة على الأقل، وليس كل القتل يعني إزهاقًا للأرواح، الخيانة تعني إزهاقًا للثقة، الفساد يعني إزهاقًا للسعي، القوة إزهاق للضعف، الفقر والجوع إزهاق للنفس، والعلاقات التي لم تكتمل إزهاق للقلب، الانتظار إزهاق للحياة، كلها من أشكال القتل، وفي حياتنا يقتل الإنسان كلما تقدم في العمر حتى يصبح محطمًا ومهلهلًا ورخوًا تمامًا في آواخر أيامه.

على هذه الأرض بإمكان كل شخص أن يُظهر الوجة الآخر منه، أنت لم تصوب مسدسك تجاه أحد لأن الحياة لم تضعك في موقفٍ يستدعي منك القتال، وأنت لم تسرق لأن الحياة لم تجبرك على السرقة، وأنت لم تسرق أحلام غيرك لأنها لا تناسبك، وأنت لم تؤذِ أحدًا لأنك لم تتأذَّ بشكل كافٍ أو لأن الحياة لم تعطِ لك فرصةً للانتقام، ولولًا القانون والمبادئ التي نصنعها ونلتزم بها لعادت الأرض لصنيعتها الأولى: ساحة للقتال، وإن كانت هي بالفعل كذلك تحت حجة الحرب.

ظهرت علامات الحيرة على وجوه الحاضرين، لم يكترث الرجل كثيرًا لهم، أمسك بجريدة عربية وارتدى نظارته الطبية ثم واصل:

- في صباح اليوم قرأت ما نشرته الصحف المصرية، دعوني أقول لكم بعض الأخبار: «اندماج كل شركات مكرم أبو العزم مع مجموعة السادات للصرافة ليصبح اسمها الجديد: «الوطنية المصرفية المتحدة».

نظرت داليدا في دهشة، ثم قاطعته:

- أنا لا أفهم، ماذا يحدث؟ وماذا تريد بالضبط؟!

واصل وكأنه لا يسمعها:

- الوطنية، كلمة عظيمة شوهها رجال الأعمال الفاسدين، إنه القناع الذي يختبئ خلفه كل مُجرم ولص فور إتمام سرقته للفقراء والضعفاء، وقد كانت داليدا ضعيفة لم تقوَ على مجاراة رجلٍ فاسد مثل مكرم أبو العزم، الذي استولى على حقك، بل وهددك بنشر صورك ومقاطعك الجنسية حين رفضتِ الزواج من ابنه الوحيد، ومعها بدأت تابعية أحداثٍ لا تنتهي.

وقفت داليدا وكادت أن تتهجم على الرجل، لكن سريعًا ما أمسكت بذراعيها جورجينا، وقالت:

- اهدأي، لم ينتهِ الأمر بعد.

وضع الرجل ذو اللحية المهندمة والشعر الأسود الذي تغتاله شعيرات بيضاء الصحيفة على المكتب، ثم وقف أمام الصليب المعلق على جدران الغرفة وهو يقول:

ـ «وَصِيَّةٌ جَدِيدَةٌ أَنَا أُعْطِيكُمْ: أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا، كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ أَنَا تُحِبُّونَ أَنْتُمْ أَيْضًا بَعْضُكُمْ بَعْضًا». ـ يوحنا ١٣ : ٣٤، «ونقول في نشيد الأنشاد: «اِجْعَلْنِي كَخَاتِمٍ عَلَى قَلْبِكَ كَخَاتِمٍ عَلَى سَاعِدِكَ».

هذا ما يؤمن به المسيحيون منذ عهدٍ قديم، المحبة.

هل كنت أول رجل مُسلم ويتزوج مسيحية؟ لا يا مروان، لم تكن ولن تكون الأخير، على الأغلب لا تحدث مشكلة من الأساس في هذا الزواج، لم تكن ابنه القس هي الأزمة، لقد أحبَّتك ماريان بصدق، كادت الأمور تسير في طريقها الصحيح، لم يعترض القس في البداية على زواجكما، لكن الذي وسوس لآدم وحواء ليأكلا تفاحة الشجرة هو من ارتدى قناع شخصٍ ما وأفسد عليك حياتك، ذاك الشخص الذي أشعل فتيل الفتنة ووسوس للجميع بأن زواجكما يعني الهلاك للقس، مما جعله يرفضك رفضًا تامًا، لم يكتفِ هذا الشخص بأفعاله، بل سعى لإنهاء خدمتك في الداخلية بحجة إنك لا تصلح لمنصبك، ولست جديرًا بارتداء البدلة العسكرية، ومن ثمَّ تم فصلك من

عملك وأصبت بالاكتئاب، هذا الشخص لا تعرفه، ولن يفضح نفسه أمامك، لكنني أعرفه، وأعرف أفعاله ومكائده، هو المسؤول عما حدث، وعما قد يحدث لك مستقبلًا حال عودتك إلى مصر.

تردد مروان، وبدأ فتيل حماسه يشتعل، لكن سرعان ما واصل الرجل كلماته للجميع:

- لم يَسْلم ياسين، ولم تسْلم يُمنى من أذى الناس، لم يَسْلم أحد من الفتنة، المكائد، الأذى، لا مكان للطيبين في الأرض ما دمت لم تُظهر قوتك، فأنت معرض للسحق في أيةِ لحظة، الناس يحترمون ويقدرون الأقوياء، يخشونهم، ويفكرون كثيرًا قبل اتخاذ خطوة واحدة ضدهم، لكن فور سقوطهم ينهالون عليهم بالسخرية والإهانة والانتقام، تجد ألف من يشفي غليله لأنك امتلكت ما لم يملكه، يعوض شعوره بالنقص والعجز طيلة فترة قوتك، هذا الشعور الذي يجعلك تتمنى لو أن بإمكانك العودة من جديد لما كنت تملكه حتى تعذبهم، تخرسهم، تواجههم بقناعهم الحقيقي، وتشفي غليلك منهم.

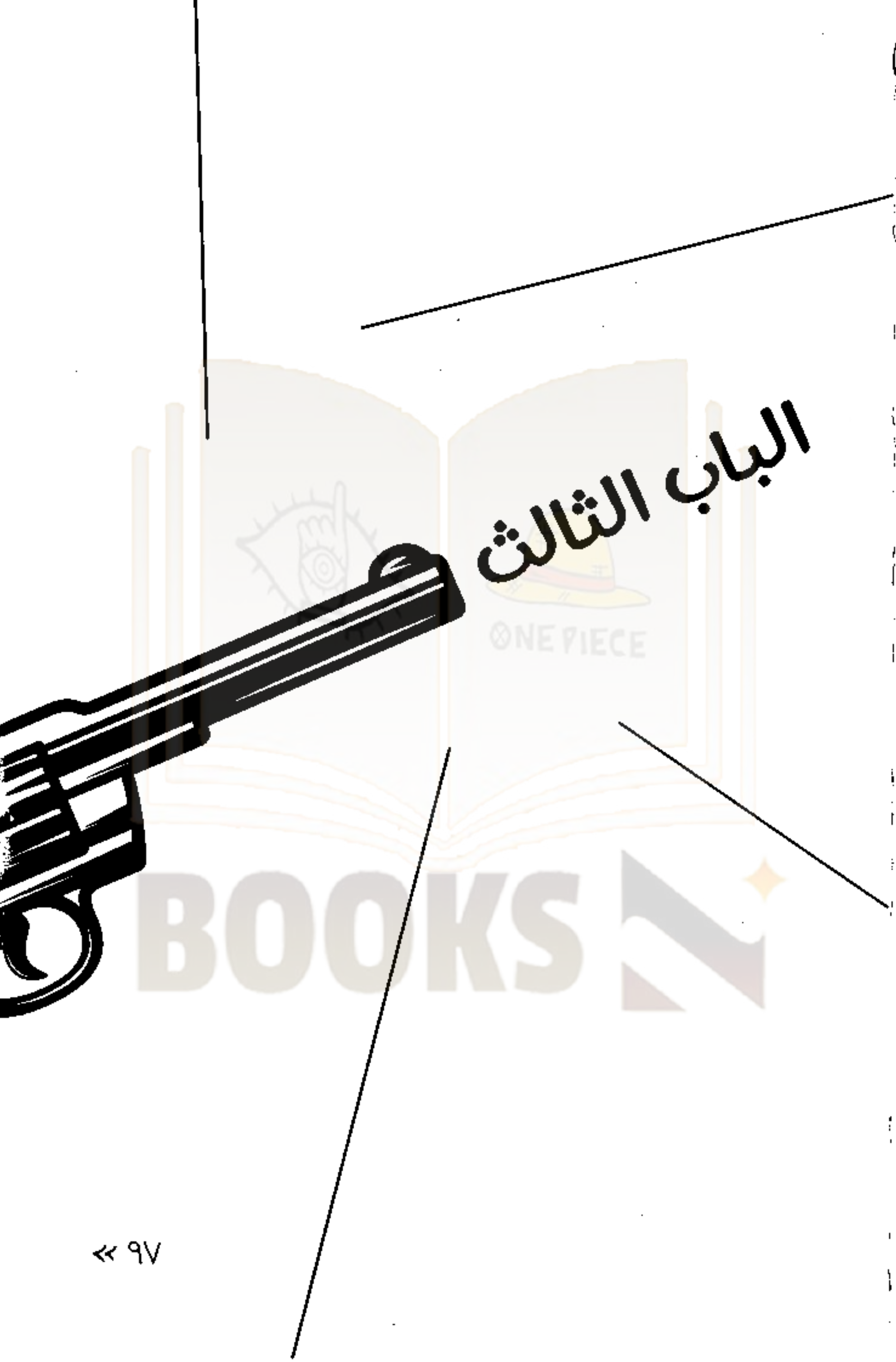
في داخل كل منا قصة ورواية لم ولن نتعافى منها، مقبرة تعرف مئات الأحاديث والأسرار، قلوب الناس مقابر مفخخة يمكن أن تنفجر في وجه كل من حاول

الاقتراب منها، في حياتنا لحظات مضت نتمنى أن تعود، لكن الزمن لا يعود للوراء، والأشياء والفرص التي رحلت لا تعود أبدًا، وأنتم أمامي الآن كل منكم يتمنى نفس الأمنية، ولقد كنت مثلكم حتى وجدت الحل.
لقد درست وعرفت كل ما يخص حياتكم، ووجدت إن بيننا شيئًا مشتركًا هو الانتقام، داليدا تريد أن تنتقم بسبب السرقة والابتزاز الذي حدث لها، مروان يريد الانتقام من المكر والخبث، ومن كل شخصٍ كان سببًا في فقدانه لحبيبته وعمله وإصابته بالاكتئاب، ياسين يريد الانتقام من الفقر والجوع والمحسوبية وسرقة الأحلام؛ من كل شخصٍ اشترى وتفاوض على أحلامه وطموحاته، وأذاقه وأذاقَ أسرته الفقر والحرمان، ويمنى تريد الانتقام من كل شخصٍ تسبب في كونها شخصية ضعيفة فاقدة للثقة في نفسها ومشاعرها، الانتقام وحده سيقودنا لرد حقوقنا في الحياة، لرد الأذى الذي وقع علينا، ورد الصاع صاعين، لكن في الوقت نفسه سيكون ولاؤنا وانتماؤنا لمن يشبهوننا، لسنا جماعة خُلقت لإنقاذ العالم، ولسنا أبطالًا خارقين، سنسعى فقط لرد حقوقنا، ورد حقوق المهمشين مثلنا، لكن بنفس الحيل التي استُخدمت ضدنا، ومع نفس الأشخاص، سنمارس نفس الأشياء التي مارسها أولئك الأوغاد معنا،

سنسرقهم ونقتلهم ونحطم قلوبهم مثلما فعلوا معنا، وسننتقم من كل شخص فاسد ومؤذي، الله سيعاقبهم في السماء، ونحن سنكون جحيمهم في الأرض. أمامكم أسبوع ستقضونه هنا لتفكروا في الأمر، من سينضم إلينا فأهلًا به، ومن لم تعجبه الفكرة سيكون حرًا طليقًا، لكن في حال تحدث مع أحدٍ عما سمعه سيصبح في عداد الموتى.

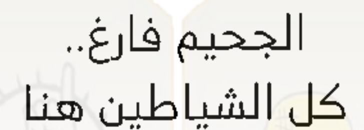
لا تتسرعوا، وفكروا جيدًا، ولا تخجلوا من السؤال في كل التفاصيل لتطمئن قلوبكم، معكم جورجينا أو كما أدعوها دائمًا مارتينا، وتالا، والعجوز ماري.

وأنا ديفيد.. ديفيد شاهين.



الباب الثالث

الفصل الحادي عشر



غادر الأصدقاء المكتب وهم في حالةٍ من الغضب والذهول من كلمات وعرض ديفيد شاهين، الذي ظل يقرأ في الجريدة وكأن شيئًا لم يحدث، كان هادئًا بطريقةٍ أثارت تساؤلات مساعديه.

- لماذا لم تذكر الأحداث التي حدثت في حياة ياسين ويمنى؟

كان هذا السؤال الأول الذي طرحته تالا لـ ديفيد شاهين.

رد ديفيد في هدوء:

- لا بُدَّ أن أجعل شخصًا ما في هذه المجموعة يشعر بالتميز عن غيره، إن فكرة تعرية حياة الناس ليست دائمًا صائبة، ولها مخاطرها، لذلك وجب الاختيار

بعناية ودقة، ياسين يشعر دائمًا إنه الأقل بينهم من حيث الطبقة الاجتماعية رغم إيمانه أنه الأكثر علمًا وثقافة، ولهذا حين تأتي الفرصة ليشعر بالتفوق عليهم سيحسن استغلالها ويقودهم هو لفكرتنا، ياسين هو الذراع الأهم بالنسبة لنا رغم إنه ليس الرجل الأقوى، لكنه الأكثر ذكاءً، وهذا ما يدعم فكرتنا، إننا لا نسعى للقتال والحرب، وإن أهدافنا لغرضٍ إنسانيٍّ بحت.

- وماذا عن تجاهلك لحياة يمنى؟

- يمنى تعاني من فقدانٍ للثقة، وهذا يظهر في كل تصرفاتها، هي لا تحتاج للتعرى أمامهم، بل تحتاج لوشاحٍ يُغطي حياتها لتبدأ في التصرف بشكلٍ طبيعيٍ، نحن نحتاج لإعادة تأهيلهم نفسيًا أولًا، هذا ضروري.. هذه مهمتك يا ماري، عليك أن تقدمي لهم الأمان والطمأنينة ليثقوا بك، اجعليهم يعبرون عما في صدورهم، أريدهم أن يتعروا تمامًا، كل ما سيقولونه عن حياتهم مهمًا وضروريًا، الأمر لا يتعلق فقط بما ستقومي به، أريد التقرب منهم، أريد أن أوثِّق في أعمالي إن هناك فرقًا بين شخصٍ يشعر بالحزن، وشخص يعاني من اضطرابات نفسية، أقول للعالم إن أشد مصابي هذه الاضطرابات كانوا في البداية أشخاصًا رائعين واجتماعيين، أريد أن أكتب وأدون ما

يُحكى عنهم، وعن مأساتهم، فإن أضرار الاضطرابات النفسية التي يتجاهلها المجتمع قد تدفع المرء للإدمان، للانتحار، للسرقة والقتل، أريد أن يعرف العالم ونحن نوثق عملياتنا، إن أغلب المرضى النفسيين صادقون مع أنفسهم.

تالا أنت المفضلة بالنسبة لمروان وياسين، لكن هناك صدام متوقع ستفتعله داليدا، تمالكي أعصابك، هي لا تحبك، وما حدث سيزيد عليكِ الضغط، احترسي من مروان؛ هو ذئب نساء، سيوافق على عرضنا بالتأكيد، لكن سيحل لنفسه مضايقتك، وربما الاعتداء عليكِ بدافع الحب، ياسين يحتاجك دائمًا بجواره، ثمة علاقة نشأت بينكما، هو يمتن لك، لكن قلبه معلق بفتاته في مصر، لا تقتربي من هذه المكانة، كوني لطيفة لا أكثر.

مارتينا ما زلتِ أنتِ محور التساؤلات والاهتمام، وطدي علاقتك بـ داليدا، صحيح إنها ستهاجمك بكل قوتها، ستراكِ مخادعة وكاذبة، لكن بعد نهاية موجة غضبها ستعود لطبيعتها معكِ، لا تدافعي عنا باستماته أو تحاولي تأييد فكرتنا، اتركيها تقول وتفعل ما تشاء، أما عن البقية فما عليك سوى الاقتراب منهم على مسافةٍ واحدة.

سألت تالا مرة أخرى ديفيد شاهين:

ـ ماذا عن يمنى؟

رد وهو يسمح لهما بالخروج:

ـ لندع ليمنى الحرية في كل شيء.

خرجت الفتاتان لمواجهة الأصدقاء الذين كانوا يجلسون حول طاولةٍ على سطح الباخرة.

ـ أهلًا أهلًا بالمخادعتان.

هكذا بدأت يمنى أولى كلماتها فور أن رأتهما تتقدمان نحوهم، واصلت وهي في حالةٍ من غضب:

ـ أريد العودة إلى مصر.

ردت مارتينا:

ـ لا يمكننا العودة الآن.

قالت بعنفٍ:

ـ إذًا نحن رهائن مختطفون.

ردت تالا بحزم غريب عليها:

ـ بإمكانكِ أن تعتبري هذه الرحلة مجرد فقرة نقاهة من الضغط والتعب، بإمكانك أن تقولي عنها رحلةً لإعادة هيكلة نفسيتك، خصوصًا مع وجود امرأة حكيمة بيننا مثل ماري، بإمكانك أيضًا أن تصنيفها كمعسكر إعدادٍ لخططتنا وأفكارنا، أو بإمكانك اعتبارها اختطافًا،

الوضع قائم ولن يتغير شيء، مسألة عودتكم بسيطة على أي حال، لكن كما اتفقنا لن نعود إلى البر إلا بعد أسبوع، حينها كل شخص سيصبح حرًا طليقًا، اختاري ما يلائم عقلك، ويقبل للوضع الراسخ.

وهي تنظر لـ داليدا واصلت:

ـ وتأكدوا أن أية محاولة للعنف لن يقابلها إلا عنفًا أشد قسوة.

ردت داليدا وهي تنظر لـ مارتينا:

ـ عزائي ليس في هذا الوضع أو في كلمات هذه الفتاة القبيحة، من اللحظة الأولى وأنا لا أشعر بالراحة في وجودها، عزائي على خداعك لي يا مارتينا طيلة هذه المدة.

قاطعتها يمنى موجهة كلماتها لـ داليدا:

ـ لا أستبعد أن تكوني على علمٍ بما يحدث.

قاطعهنَّ مروان ساخرًا:

ـ حسنًا، الوقت لا يسمح لمشهدٍ دراميٍّ حزين، تعاتبن بعيدًا عنا الآن؛ علينا التفكير في العرض الذي أمامنا.

ردت يمنى:

ـ وهل هناك نية للتفكير في عملٍ إجرامي؟! أنا سيدة قانون ومبادئ، ولن أسمح بالمشاركة في هذه اللعبة السخيفة.

همهم ياسين وهو يبعث بأصابعه:

ـ قانون ومبادئ! قانون ومبادئ! قانون ومبادئ!

بينما كان الجميع ينتظر رأيه أشعل سيجارته، ثم عاد لصمته.

قالت مارتينا وهي تنظر لـ يمنى:

ـ لن يُجبر أحد على شيءٍ كما قالت تالا، أنتم لستم رهائن، أنتم ضيوفنا، وبعد أسبوعٍ سيكون لكم الحرية، في الباخرة هناك غرفة مخصصة لكل فرد، صالة اجتماعات، شاشة عرض سينمائية، وصالة ترفيهية، لنعتبر هذه نزهة مختلفة.

جلست ماري على أحد الكراسي ثم قالت:

ـ لا يوجد مبرر واضح لهذا الشحن النفسي، المسألة بسيطة، نحن لسنا أعداءً، نحن أصدقاء يجمعنا هدف واحد كما وضح لكم شاهين، أليس بينكم شخص ناضج يدرك الموقف؟!

نهضت يُمنى من مكانها وهي تقول غاضبة:

ـ السجن سيتسع لكم جميعًا.

بصوتٍ منخفض لم تسمعه إلا يمنى التي مرت بجواره قال ديفيد:

ـ ولعائلتك أيضًا.

كاد أن يحدث شجارٌ لولا تدخُّل داليدا التي قالت:

- اسمعوا، كفاكم مضايقات لبعضكم البعض، نحن في عرض البحر في حوزة مجموعة من الأوغاد، ليُفكر كل شخصٍ وحده فيما عُرض عليه، سواء بالموافقة أو الرفض سننال حريتنا بعد أسبوع.

تحركت داليدا واتجهت إلى السور الحديدي أعلى الباخرة، وهي تتابع صحة الأخبار التي أخبرها بها ديفيد شاهين.

الوغد استغل سفري، وواصل الانتقام مني، الوغد سرق أموالي، والآن يتاجر ويرفع من سهم نفوذه في كل مكان، كل هذه الثروة الطائلة دفع أبي عمره وشبابه وحياته ضريبة لها.

شعرت داليدا أن أفكارها تميل ناحية الانتقام بالطريقة المعروضة عليها، فقالت لنفسها:

- داليدا إياكِ والطرق الغير مشروعة، إياكِ!

بينما كانت تواصل حديثها مع البحر كان ياسين وتالا يجلسان في البار ويتحدثان:

- إذًا لستِ مصورة كما ادعيتِ مسبقًا.

ردت وهي تضحك:

- ربما خدعتك في هذا الأمر، لكنني وفيت بوعدي حين قلت لك إنني سأبذل قصارى جهدي في مساعدتك.

رد وهو يتأمل عينيها:

- أنتِ على ثقة بإنني سأوافق إذًا؟

هزت رأسها إشارة للموافقة، ثم قالت:

ـ بكل تأكيد، لقد أتيحت لك الفرصة التي تمنيتها.

رد محاولةً لاستدراجها:

ـ بهذه الطريقة؟

قالت:

ـ الذين حكموا بقضاء حياتك وحياة عائلتك تحت طائلة الفقر والجوع استخدموا هذا الأسلوب أيضًا، ألا تقول دائمًا إن من باب العدل أن يتذوق الغنيّ مرار كأس الحرمان ليشعر بالفقراء؟ الآن الفرصة متاحة لك لتطبق العدل.

صب ياسين كأسًا لـ تالا التي واصلت:

ـ اسمعني يا ياسين، يقول ديفيد شاهين «إن القدر يسمح لنا كل يوم بقضاء حياتنا التي نصنعها في مخيلتنا، لكننا نرفضها لأنها لا تناسب واقعنا، وهذا مثير للسخرية؛ لأن الواقع الذي يناسبنا هو من دفعنا لخلق واقع أجمل في خيالنا»، فكر في الأمر بطريقة مختلفة، أيّ ضرر ستجني في هذه الخطوة؟ لا أظن إنك تملك شيئًا يستحق الخوف عليه، حتى عائلتك أنت تراهم كل يوم والفقر ينهشهم ولا تملك حق الدفاع عنهم، هذه فرصتك للنجاة من الفقر، وإن لم تنجح فعلى الأقل يكفيك فخرًا إنك لم تضع رأسك في

التراب كالنعام، بل تمردت على القطيع ورفضت واقعًا لا يشبهك ولا تستحقه.

رد ياسين:

ـ وما قصة هذا الرجل؟

ردت:

ـ للحديث بقية يا صديقي، لا تقلق ستعرف كل شيء، الآن دعنا نستمتع بالرقص والغناء.

نهضت تالا من مكانها، وأدارت الجرامفون، ثم دعت ياسين للرقص.



الفقر للضعفاء.. نحن نملك القوة.. نحن أهل الثراء.

الفقر للمهمشين.. نحن نملك الأفكار.. نحن أصحاب القرار.

الفقر للجبناء.. نحن الشجعان.. نحن محاربي الظلام.

نحارب الفقر، الظلم، والفساد.

نحن الأقوياء.

نحن الأثرياء.

بينما كانت الأغاني تعلو في أرجاء المكان كان مروان ويمنى قد قررا النوم للهروب من التفكير فيما حدث اليوم، بينما واصلت داليدا قضاء يومها أمام البحر، حتى قطعت خلوتها مارتينا.

قالت داليدا ساخرة:

ـ سأكون مساعدة لرجل ينوي بدأ عمليات السرقة، قصة قصيرة حزينة مؤثرة.

ردت عليها وهي تنفي التهم:

ـ الأمر ليس كما تظنين، قبل عشرة أعوام استيقظ هذا الشاب من منامه بعد غيبوبة طويلة إثر سقوطه من أعلى جسرٍ في روما، كان شابًا غريبَ الأطوار، أثناء أيامه الأولى من استفاقته كان يتابعني بالنظرات، يراقبني، يتحدث معي كما لو أنه يعرفني منذ زمن، بطبيعة عملي لم أكترث كثيرًا لنظراته وطريقة تعبيره الغريبة فيما يشعر به، كان ودودًا معي بطريقة أشد غرابة، وفي يومه الأخير في المستشفى قال أننا سنصبح أصدقاء، سخرت منه ومن يقينه ببداية علاقتنا في القريب العاجل، وقد كانت سخريتي ما هي إلا البداية لصدق توقعاته، لقد أحببته وأحببت البقاء معه، وبعيدًا عن تفاصيل لا تهمك لكنني أوكد لك إن هذا الرجل شريف لن يؤذيك أيًّا كان قرارك، أنا أضمن لك الحرية والأمان.

تنهدت داليدا:

ـ لا أستطيع الوثوق بكِ مرة أخرى.

ردت:

ـ وأنا لن أجبرك أن تثقي بي، هي فرصتك في الانتقام من عمك ورد ثروتك، فكري في الأمر ولك حرية الاختيار.

رحلت مارتينا التي تركت داليدا في سيلٍ من الأسئلة لا تنتهي، في هذا الوقت كان الهدوء يُسيطر على الباخرة، غلبهم النوم جميعًا، عدا داليدا التي واصلت التحدث إلى نفسها حتى غلبها النوم أيضًا، من هدوء إيطاليا كان في مصر شيء آخر يحدث...

المهندسين/ القاهرة

ـ انتظرت اتصالك ليلة أمس.

ـ لم أستطع التواصل معك، على أي حال تهانينا لك، لقد ربحت القضية، والآن عليك القدوم للخطوة الثانية.

ـ ألا وهي؟

ـ أخبرتك إنني لا أحب أصحاب الذاكرة الضعيفة، التصاريح جاهزة لهدم البيوت العشوائية في العتبة، وبناء متجرك التجاري العالمي، لكن أولًا لا تنسَ تصوير حفل زفاف ابنك الوحيد وبثه على القنوات الفضائية، ومواقع التواصل الاجتماعي، إلى اللقاء.

رد متلهفًا:

ـ المعذرة! متى سنلتقي؟

ـ حين يشاء القدر، وداعًا.

الفصل الثاني عشر

«كم تمنّيت لو أنّني لم أعرف شيئًا عنّي وعن هذا العالم».

سيوران

من ثباته ونومه استيقظ ياسين على صوت الهاتف، كانت مكالمة صوتية عبر الـ «massenger».

بصوتٍ هادئ قالت:

ـ صباح الخير يا ياسين.

رد متلهفًا:

ـ رقية! ماذا حدث؟ هل أصاب أمي مكروه؟

ردت:

ـ لا تقلق هم بخير.. أريد أن أقول لك شيئًا.

اعتدل ياسين، وأسند ظهره إلى السرير، واستعد لكلمات رقية التي بدأت على الفور بصوتٍ يغلب عليه الحزن:

ـ أنت الرجل الوحيد الذي أحببته، أول من رأت عيناي، أول كلمة حب سمعتها منك، اللمسة الأولى، العناق الأولى، تقاسمنا الفقر والجوع، وسرقنا من الدنيا لحظات السعادة والفرح، كنت مأمني وعالمي وحياتي، تحملت قسوة الفقر، كان صوتك الدافئ يخرس كل أصوات معدتي الخاوية، تقسو عليَّ الدنيا فأذهب إليك، فتسعني وكأنك تملك الأرض، لم أرَ في حياتي رجل مثلك يا ياسين، لم أحب في حياتي إلا أنت...

قاطعها ياسين:

ـ رقية، ماذا تريدين بالضبط؟

تنهدت رقية ثم قالت:

ـ لم أعد أنتظرك.

ـ تقصدين أنكِ لم تَعُدي تشتاقين لي؟

ـ لا، ما زلت أفتقدك، وما زلت أشتاق وأحن لك، لكن اقتنعت أخيرًا أننا لن نجتمع أبدًا.

آمنت بالواقع الذي حاولت كثيرًا أن تقنعني به، مزقت دفاتر أحلامي، واكتشفت إنني كنت أطارد سربًا من الدخان، أيقنت إننا لن نصلح لبعضنا البعض، نحن غارقان في الفقر والتعاسة، لو تزوجنا سننجب أطفالًا أشد تعاسةً وفقرًا منا، لن نستطيع توفير أبسط

احتياجاتهم اليومية، سيغرقون في الذل والحرمان كما غرقنا نحن، وسيقضون حياتهم مهمشين لا قيمة لهم، وقد يدفعهم الفقر للقتل والسرقة، وربما إدمان المخدرات، عندها سنكون نحن المسؤولين عن كل الضرر الذي حدث لهم.

تنهد ياسين ولم ينطق بكلمةٍ واحدة، فواصلت رقية بصوتٍ يرتجف:

- أليست هذه نظرتك التي آمنت بها في أيامنا الأخيرة؟! أليست هذه أفكارك التي قادتك للسفر؟ وبدلًا من أن تودعني بكلماتٍ تمدني بالقوة حطمتني بواقعيتك، بدلًا من أن تزرع في قلبي الطمأنينة دسست الخوف والرعب من رحيلك، تركت روحي ترتجف، وقلبي يتألم، ووحدي كنت أفعل المستحيل لنبقى معًا، بينما لم تفعل الممكن لأجلي، كنت أواجهك بالحب فتواجهني بالصمت، أواجهك بالأمل فتحطمه باليأس، الصمت يا ياسين لعنتك الأبدية، هذا ما زرعته وهذا ما حصدته من قلبي، طمئن قلبك يا ياسين، لن أعترض لك طريقًا بعد الآن، وعائلتك ستبقى تحت رعايتي، أولئك الذين تربيت بينهم، لن أتخلى عنهم، أما عنك، فأتمنى ألا تجمعني بك صدفة أبدًا.

أغلقت رقية المكالمة وانهارت في البكاء، بينما وضع ياسين الهاتف بجواره، أشعل سيجارته، وغلب عليه الصمت والثبات.

لطالما آمن ياسين إن الفقر لا يولد إلا الفقر، وإن حب الفقراء بمثابة شهادة وفاة لأجيالٍ قادمة، نظرته لم تكن وليدة اللحظة، بل قضى أيامًا يطارد هذه النظرة ويُكذبها، يحاول أن يمد نفسه بالأمل والحماس، لكن كلما خطى خطوة ناحية الأمل تعثر بالجوع والحرمان، ياسين مثل أغلب شباب بلدتنا من الطبقة الفقيرة، يولدون في منازل صغيرة مهددة بالهدم، يسعون مع آبائهم على قوت يومهم، مع مواصلة تعليمهم عسى يسمح لهم القدر بفرصةٍ للعمل بشهادتهم، وفور التخرج يلتحقون بتأدية الخدمة العسكرية، هنا نوع آخر من الضغط والتعب، حكم النفس على نفس، والتفكير فيما ينتظرهم بعد إنهاء خدمتهم العسكرية، التصادم المباشر بالواقع، التفكير طوال الوقت، ومن ثمَّ تبدأ رحلتهم العملية بمرتبات بخسة، لا تُغطي مصاريفهم اليومية، يفنون أعمارهم في مصانع وشركات أصحابها لا يهتمون إلا بملء بطونهم وخزائنهم بالأموال، يفنون صحتهم لينعم بها أصحاب الأموال، مثل ياسين هناك من يولدون وعلى عاتقهم ذويهم، يولدون ليحملوا راية العناء من آبائهم، يولدون وهم ضحية للضغط والفقر والمسؤوليات، دورة حياة بائسة يقضيها الشاب المصري حتى يتزوج، لينجب أطفالًا يعانون ويحملون معه راية الركض في دائرةٍ لا تنتهي من التعب والشقاء.

لقد رفض ياسين فكرة الزواج لإيمانه بأن الواقع لا يحتاج لمزيدٍ من البؤساء الفقراء، رغم إن الحب أجمل ما قد يحدث في حياتك، لكن يفقد قيمته أمام العجز، أمام الحرمان، أمام الجوع.

كان يؤمن إن نظرته صائبة واقعية، لكن ومع ذلك تألم، تألم لأن قلبه تعلق بالحب، والحب دين الفقراء، تألم لأن قلبه أراد أن يقضي حياته مع الجميلة التي أحبها وأحبته، كانت آلامه تكمن في شعوره بالعجز، هو لم يجلس مكتوف اليدين يلعن ويسب في الفقر، بل حاول بكل ما أوتي من قوة أن يحصل ولو بالقليل جدًّا مما أراد، لم تكن أحلامه كبيرة، لكن الأحلام لمثل هؤلاء تبقى بعيدة ومستحيلة، أراد أن يعيش مع حبيبته في منزلٍ آمن، سقف مغطى، حين يشعر بالجوع يفتح ثلاجته ويأكل ما يريد، حين يشعر أحد أبنائِه بالتعب يعالجه ولا يتركه للمرض ينهش في جسده، أراد وظيفة محترمة تسمح له بأقل أقل سبل الحياة، تضمن السلام والعيش لعائلته، هو لم يجلس مكتوف اليدين، بل حاول وسعى، كان يحمل على ظهره المنتجات، ويلف الأسواق ليعرضها للبيع، لم ينحنِ ظهره من ثقل البضاعة، بل انحنى من ثقل الهموم والفقر، يحارب الجوع، ويحارب الحرمان، ويهرب من مطاردات الحكومة كل يوم، لم يُقبض عليه يومًا من رجال أشغال الطريق، لم يستولوا على بضاعته، لقد قبض عليه اليأس، استولى على أحلامه بعد سنواتٍ قضاها في الشارع والجامعة، لم يُسجن خلف الجدران، بل سجنته الهزيمة في قلبه، أراد ياسين أن ينعم بالحياة، لكن الحياة لا تبتسم لأولئك الذين يركضون خلفها، الحياة لا تعطي وجهها الجميل للفقراء.

سقطت دمعة دخيلة من عينيّ ياسين وهو يتذكر أيام طفولته الصعبة، ومحاولاته للهروب من الفقر، لكن لم يعد الوقت يسمح لكلمات الرثاء والمواساة، كانت الشمس قد فرضت سيطرتها على

السماء، وما إن خرج ياسين من غرفته حتى التقى بـ ماري صاحبة الخمسين عامًا، استقبلته بابتسامة لطيفة، ودَعته لتناول فنجان قهوة، لم يمانع ذو القلب المحطم دعوة ماري ذات الملامح الصافية البشوشة، سألها ياسين:

ـ هل يمكنني مقابلة السيد ديفيد شاهين؟

ردت وهي تقدم له فنجان القهوة:

ـ بكل تأكيد، مسموح للجميع مقابلته، لكن أولًا أخبرني لماذا تريد مقابلته؟

ـ أشعر إنني اتخذت قراري بالفعل في العرض المقدم لنا.

لفت رد ياسين أنتباه ونظر ماري فسألته:

ـ لا يزال الوقت أمامك لتفكر.

رد ساخرًا:

ـ أليس دورِك أن تساعدي ديفيد شاهين في السيطرة على أفكارنا حتى نوافق على عرضه؟!

ضحكت ماري وقالت:

ـ بالطبع لا، نحن لسنا عصابة يا ياسين لنوجهك ونغير أفكارك، صدقني من الممكن أن توافق على الانضمام لنا، لكننا نرفض موافقتك لأنك لا تناسبنا، دوري هو إعدادك ومعرفة إن كنت تصلح أو لا تصلح لما نريد القيام به، يبدو إنك لست على ما يرام، هل حدث لأحدٍ من عائلتك أي مكروه؟

رد نافيًا:

ـ لا، هم على ما يرام، مشكلة عابرة في حياتي الخاصة لا أكثر.

همهمت وهي تتساءل:

ـ ومن هذه المشكلة قررت أن تنضم لنا؟

لم يرد ياسين، فواصلت ماري:

ـ حسنًا لن تقابله، إياك أن تسمح للغضب أن يقودك لاتخاذ قرار مصيري في حياتك، فقد تندم عليه طول حياتك، ثمة جرائم وأفعال عدائية لم تكن تحدث لولا إن صاحبها صمم على قراره في الوقت الخطأ، ثمة نهايات حدثت نتيجة لخضوعنا لطاقتنا المشتعلة للذة رد الاعتبار والانتقام والتصرف السريع، الحياة تحت معاملة عقلانية هادئة ومتزنة تفوز بها، في حياتك الجديدة ستضعك الظروف أمام مواقف تهز أركان قلبك ومشاعرك، قد تثير غضبك وثورتك وجنونك، لو لم تُسيطر على انفعالاتك ستؤدي بنا جميعًا إلى الهلاك، وهذا بالضبط دوري؛ إعدادك نفسيًا حين انضمامك لنا.

رد ياسين:

ـ أحتاج لأن أشفي غليلي من الفقر.

ردت ماري:

- الفقر عدونا، لكن صانعي الفقر هم ألد أعدائنا، اليأس عدونا لكن الذين حطموا آمالنا أشد عداوة من اليأس، الجوع عدونا، والذين حرمونا من متاع الحياة أعداؤنا، هل فهمت ما أقصده، الآن تعال لنجلس مع أصدقائك.

خرج الاثنان من المطبخ واتجها إلى أعلى الباخرة، كان الأصدقاء مجتمعين على طاولةٍ واحدة، جلسا معهم، فلاحظت داليدا علامات الحزن على وجه ياسين، سألته إن كان مكروهًا قد أصاب عائلته، فطمأنها إن كل شيءٍ على ما يرام، وبعد صمتٍ طويل قالت يمنى ساخرة:

- لطالما تمنيت أن أقضي فترة زواجي الأولى هنا، لقد تحققت أمنيتي لكن مع مجموعة من المجرمين.

ردت تالا قاصدة استفزازها:

- لو كنا كما تظنين عنا لكنتِ الآن وجبةً إفطارٍ رائعة للسمك.

ردت ماري:

- هي رائعة على أي حال، تستحق أن تقضي أيامها في سلام.

قاطعتها داليدا لفرض الهدوء عليهم:

- لا أنبهر بالزواج الذي يقضي فيه العروسان أولى أيامهما الزوجية في رحلةٍ حول العالم، أتمنى لهما السعادة بكل

تأكيد، لكنني لا أنبهر بهما، أفكر في شعور كيف يرى البسطاء مثل هذه الصور، دعونا نتفق أن كلنا نتمنى أن نقضي أيامنا في سعادةٍ وراحة، نشرب القهوة في روما، ونتراقص حول برج إيفل في باريس، ونستمتع بروعة المحيط الهادي في المالديف، لكن هل الأمر بهذه البساطة؟ هل أغلبنا يعيش نفس رفاهية العمل بالساعات ومن ثمَّ يقبض مئات الدولارات؟ بالطبع لا.

دعيني أقول لكِ إن صفحات التواصل الاجتماعي مثلًا جعلتنا ننسى حقيقتنا، في بلدتنا الفقيرة كم شاب في بداية العشرينات تُنهك أعصابه وجسده ويتحمل كل الضغوطات في العمل لمدة أكثر من ست عشرة ساعة في سبيل بضعة جنيهات التي توفر أبسط احتياجاتهم اليومية؟ كم شاب لم يعد يحب الأعياد لأنه لا يملك ثمن شراء سترة جديدة؟ أو كم شاب يتغاضى عن تفاصيل مهمة في حياته لينجز حلمه وحلم حبيبته في زواجهما؟ وكم فتاة قوية تحاول بشتى الطرق أن تدخر في مصاريفها حتى تساعده ولو بأبسط الأشياء؟ كم فتاة خرجت للشارع وتحملت شقاء العمل رغمًا عنها من أجل أن تهرب من ضغوطات أهلها في قبول الزواج من رجلٍ لا تحبه، أو لتخبره أنها تشعر مثله بالضغط؟ تقولُ له: «أنا أشعر بك»، كم أب يريد

أن يقدم لأبنائِه كل شيء، لكنهم يفاجئونه بأن الأشياء الجميلة التي حاول إسعادهم بها بالنسبة لهم قديمة ومستهلكة؛ يعرفونها ويرونها كل يوم على صفحات التواصل الاجتماعي؟ وكم أم في بداية حياتها تحاول أن تُزيل عبء الحياة على زوجها بشتى الطرق لتخبره أنها ما زالت تراه أجمل من في الأرض، وأن وجوده أسمى وأفضل ما حدث لها؟

الحياة في غاية الشقاء يا صديقتي.

مثل هؤلاء أيضًا يبذلون أقصى ما عندهم ليقضوا أيامًا جميلة، يركضون ويعملون ويواصلون كفاحهم في معركةٍ قاسية ضد الحياة، لا يستحقون أن يخبرهم عالم التواصل الاجتماعي إن أُحلامهم تزداد صعوبة، لا يستحقون شعور الشك في قوتهم من أجل البقاء حيًّا ضد معركة الحياة.

أنا أنتمي لهؤلاء البسطاء.

رغم كلمات داليدا التي أعجبت ياسين، لكن في نفسه كانت كلماتها متأخرة جدًّا.

واحدة من أصعب الأشياء التي تحدث للمرء أن يتعثر برسالة متأخرة، كانت هذه الكلمات كفيلة أن تدفعه للأمل ولو لمرة واحدة على الأقل، أن يكتشف إن العلامة المناسبة لمواصلة الركض في الحياة قد أتت بعد أن أعلن استسلامه تمامًا، أن توهبه الحياة قبلتها

بعد أن يصبح رخوًا ومحطمًا لا قوة له، لطالما آمنت رقية بما تؤمن به داليدا، لكن كعادة الرجال لا يصدقون نظرة حبيباتهم لهم، يحترمون ويقدرون غيرها من النساء، لطالما آمنت رقية ودافعت عن هذه النظرة، ولطالما حاولت أن تجعله يؤمن بها، لكنه تمرد وكفر بكل الأمل، بكل ما كانت تؤمن به رقية.

«لا تزال الفرصة سانحة للعودة يا ياسين، الباب لم يغلق حتى الآن»، هكذا ردد بينه وبين نفسه، أمسك هاتفه واتصل برقية، كان الهاتف مغلقًا، فقرر الاتصال بها بعد نهاية اليوم، استعاد ذهنه سريعًا، ورد على داليدا:

ـ كلمات جميلة، لكن مجرد كلمات لا قيمة لها على أرض الواقع.

ردت داليدا:

ـ هذا ما أومن به.

رد وهو يبتسم:

ـ لأنك لا تعرفين قسوة الحرمان.

هنا تدخلت ماري وقالت:

ـ أتفق مع داليدا، الحب شعور إنساني جميل، نحن نولد نحب العالم والناس، حين يضيق بك العالم ستجد من يحبك في انتظارك يفتح ذراعيه ليسعك ويحتويك، الحب يهون من المأساة، يكفي إن هناك من يشعر بمأساتك، الحب يجعلنا نتحمل الحرب على الأقل، لو

تخوض صراعك مع الحياة وحدك لن تنهزم وحدك، الحب يهون شقاء اليوم حين تجد الشخص الذي تحبه في انتظارك يتغزل ويتجمل فيك؛ يخفف عنك الوجع والتعب، الحب يسع كل من لا تسع له الحياة، أرضٌ للمغتربين في الدنيا، وحلمٌ لمن لا حلم له، شعور أن تنام مطمئن، تنام وفي قلبك السكينة إن الشخص الذي تحبه لن يرحل عنك، في الخصام أنت تعرف إنه لن يقسو عليك، في العتاب لن يدس كلماته السامة في قلبك، الحب يزيل عنا ضغط وعبء الحياة.

قاطعها ياسين ساخرًا:

ـ ولهذه الأسباب قال ألبير كامو «من الضروري أن نقع بالحب.. على الاقل يكون لدينا سببٌ للبؤس الذي يغمرنا بكل الأحوال».

ضحكت تالا وقالت:

ـ ما تقصده ماري هو ما قاله ديستوفيسكي: «كانت أمي تقول لنا دائمًا اضحكوا في وجه أبيكم عندما يعود غدًا إلى البيت، فالعالمُ في الخارج مكانٌ موحشٌ يُحَطم الآباء مثل الأواني الفخارية».

قاطعمها مروان قائلًا:

ـ لندع هذه الآراء السخيفة، وتلك الأسماء التي لا أجيد نطقها، ولنتحدث عن الأهم، ماذا سنفعل اليوم؟

قالت ماري:

- كيفما تريدون، نحن لا نفرض برنامجًا يوميّ.

سألت يمنى:

- متى سنلتقي بالسيد ديفيد شاهين؟

ردت تالا:

- بعد الغداء يمكنكم اللقاء به.

ساد صمت طويل مرة أخرى، اتجه كل شخصٍ إلى وجهته، بينما ظلت داليدا مع ياسين على الطاولة، لاحظت الفتاة أن ياسين ليس على ما يرام، كان بينهما علاقة وطيدة تسمح لها بسؤاله عن عائلته ورقية، حاول ياسين التظاهر بأن كل شيءٍ على ما يرام، لكن سقطت دمعة دخيلة وشت بما كان يُخبئه، فقال وهو يتمالك دموعه:

- لقد اقتنعت رقية بأننا لن نصلح لبعضنا.

ردت داليدا:

- هذا ما أردته منذ فترة، لقد تحقق مرادك.

قال بنبرة صوتٍ منكسرة:

- في داخلي شعور غريب يا داليدا، فعلت كل شيءٍ لتقتنع بإننا لا نناسب بعضنا، لكن داخل قلبي كنت أتمنى أن لا توافق، كنت أحب طريقتها في التمسك بي، أتحمس بكلمات الأمل التي تزرعها في قلبي، أقول لها نحن لن نستمر معًا، وأنتظر أن تمسك بيدي وتقول: «لن نستمر إلا معًا»، أخشى عليها من قسوة

الأيام، ثم أقسو أنا عليها بواقعيتي وقناعاتي الداخلية، أراها ترسم خطوط السعي فأمحيها بممحاة في منتصف الطريق، كانت تحطم كل السدود لنبقى معًا، وبدلًا من أن أشكرها على قوَّتها كنت أشيد أمامها سدودًا أخرى أشد قوة وصلابة، أحببت فكرة إيمانها أن البقاء معي يستحق العناء، أحببت ثقتها أن في نهاية المطاف ستقضي حياتها مع رجلٍ يحبها ويخاف عليها، يخلق لها الجنة التي وعدها بها، كنت أستمد قوتي بما تفعله وتقدمه لأجلي، أستعيد رونقي وقوتي، ومع ذلك لم أبادلها إلا بكلمات اليأس والتحطيم والعجز، اختار عقلي الواقعية، بينما كان قلبي معلقًا بالحب، ذاك الذي منعته عنها، كانت تعطيني قبلة الحياة، وكنت أجيد زرع السموم في قلبها لتُقتل بالعجز والواقعية، لقد كفرت بالوحيدة التي آمنت بي بعدما كفرت بي عائلتي، أصدقائي، والعالم.

تنهدت داليدا، ثم وبكل جرأة قالت:

- لقد قدَّمت روحها وطاقتها قربانًا لك يا ياسين، لكنك وبغباء رجلٍ شرقي لم تُقدر ما قدَّمته لك إلا بعدما توقفت عن العطاء.

انشغل كل منهما بالذكريات التي داعبت عقليهما من جديد، فعاد الصمت بينهما.

إن النساء يملكن قدرةً هائلة على العطاء، بإمكان الفتاة أن تقف أمام العالم لتدافع عنك، تحطم كل الآراء والنظرات المشوهة عنك، تؤمن بك حين يكفر الجميع بك، وتدفعك للأمام حين تتوقف أقدامك عن السير، تستطيع أن تعيد بناء أحلامك المحطمة، وتمدك من قوتها لتواصل الحرب والدفاع في معركتك، وقد تجدها تنضم لك في ميدان الحرب ضد الحياة، لا تمل من تلوين لوحاتك السوداوية الكئيبة، لا تتعب من تغيير قناعاتك اليائسة المهزوزة في سبيل بقائكما معًا، لكن وحين تدرك أنها تقدم كل شيءٍ بلا مقابل، أو تشعر إن طاقتها تُستهلك دون أن يحاول الطرف الآخر أن يُقدر طاقتها، تتوقف، تتوقف بكامل إرادتها دون أن تهتم لما سيُقال عنها وعنك، تُعاملك وكأنك شخص غريب جدًّا عنها.

حين تشعر أن الطرف الآخر لن يضحي أو يبذل مجهودًا للحفاظ على علاقتهما كما تفعل؛ تجلس في مكانها، تتابع علاقتهما وهي تنهار رويدًا رويدًا، لا تهتم، لا تبال بما يحدث، تجلس حزينة على التفاصيل التي تختفي، والفجوات التي تزداد يومًا بعد يوم، المسافات التي تبعدهم، وشعور الأمان والطمأنينة الذي ينسلب من بين أيديهما تدريجيًا، ذاك الحزن الذي لا يدفعها إلا لمزيدٍ من الصمت، لأنها أدركت أن مهما حاولت من جديد ستصطدم بجدارٍ من اليأس أقوى من الحب، وأقوى من رغبتها في استمرار علاقتهما، لأنها تدرك إن الدفاع والحرب من أجل رجلٍ مهزوم لا يسعى للفوز أبدًا؛ انتحار.

- ألا ترين إن من السذاجة أن يعرض هذا الرجل خدماته الإجرامية بهذه البساطة؟

هكذا عاد الحديث بين ياسين وداليدا التي قالت وهي تضحك:

- على العكس، هذا الرجل يعرف ماذا يفعل جيدًا، هو يعرفنا بقدرٍ كافٍ، يعرف الكلمات التي نحتاجها، ودوافع كل منا في الحياة، فيعرف كيف يملؤها، نحن بالنسبةِ له فريسة سهلة، حتى وإن لم نوافق لن نتعرَّض له بمكروه، نحن أضعف من مواجهة جديدة مع أشخاصٍ جُدد، يكفي جدًّا صراعاتنا مع الأشخاص القدامى.

همهم ياسين ثم قال:

- وكيف عرف كل هذا؟

ردت داليدا:

- دون قصدٍ تحدثت مع مارتينا من فترةٍ طويلة عنكم، لكن ما زالت هناك حلقة وصل مفقودة، هو لم يعرض كل أوراقه أمامنا، وهذا في حد ذاته مخيف، لكن دعنا ننتظر.

سألها خائفًا أن يتهمها بسوء:

- داليدا، هل كنتِ تعرفين كل هذا؟

ردت وكأنها كانت تتوقع هذا السؤال:

- لا، لو أردت الانتقام من عمي لما احتجت لكل هذا يا ياسين، لكن وماذا عنك؟ أشعر وكأنك اتخذت قرارك بالفعل.

توتر ياسين قليلًا ثم قال:

ـ ما زلت أفكر في الأمر.

في غرفة المعيشة جلس مروان مع يمنى وتالا يشاهدون أحد الأفلام الأجنبية، وبينما كانوا مندمجين مع أحداث الفيلم كانت الأفكار في رأس يمنى تتصارع، حتى قال لها:

ـ رفقًا بحالك يا يمنى.

نظرت يمنى لـ تالا وكأنها لا تريد أن تتحدث في وجودها، لاحظت الأخيرة نظراتها، فاستأذنت وخرجت، ومعها قالت يمنى:

ـ أنا لا أصدق ما يحدث معنا يا مروان، أنا وأنت تعلمنا الحفاظ على القانون، ومحاربة الخارجين والمتمردين عليه، الآن نصبح أفرادً منهم، وندافع ونحارب لأجلهم.. هذا لا يصدق!

ـ لا أوافقك الرأي، نحن دافعنا عن قوانينٍ لم نضعها، ولم يسألونا عنها، حتى دفاعنا عنها لم يكن لإيماننا بها، بل كانت لإرضاء رؤسائنا، إن وافقنا فسيكون هذا دفاعًا عن أنفسنا بقوانين ومبادئ من صنعنا...

قاطعته:

ـ أنا أختلف معك، لم أؤدِ عملي بدافع الواجب؛ بل لإيماني بالحق والعدالة.

ساخرًا قال:

ـ إذًا لماذا لم تبلغي عن عائلتك حتى يتم محاكمتهم محاكمة عادلة أمام القضاء؟!

بتهكم قالت:

ـ عائلتي ليست مدانة بشيء.

أشعل سيجارته ثم قال:

ـ أنت تكذبين، يمنى أنا أعرف حقيقة عائلتك، أعرف كل الجرائم التي ارتكبوها في حق المواطنين، أعرف تاريخهم الأسود القذر.

بدأ يشيط غضب يمنى، لكنها فضَّلت الخروج من الغرفة، وهنا أمسك مروان يديها بقوة، واقترب من شفتيها وهو يهمس:

ـ وأعرف إنك تزوجتِ من رجلٍ لم يُقدر جمالك حتى أفقدك الثقة في كل تصرفاتك.

ما إن داعب شفتيها حتى استسلمت يمنى تمامًا، وكأنها كانت تشتاق لملامسة حارة من هذا النوع، لثوانٍ استعادت ذهنها، دفعته بعيدًا عنها ثم خرجت.

في غرفته واصل ديفيد شاهين متابعته لتفاصيل حياتهم، بينما كانت تجلس ماري تتحدث مع مارتينا عما تنوي فعله، لقد قررت أن تبدأ معهم جلسات أو حلقات نفسية ليتحدثوا عما يدور في ذهنهم وصدورهم، لكنها تُفكر في طريقة مناسبة لا تُشعرهم بالحرج أثناء الحديث، اقترحت مارتينا أن تكون الحلقات في حضورهم جميعًا، وهنا تدخل ديفيد شاهين مؤيدًا لقرار ماري رافضًا لاقتراح مارتينا قائلًا:

ـ لقد استيقظ ياسين وهو يبكي، وما إن خرج من غرفته حتى استعاد نفسه وتظاهر بالقوة، من قبله كانت داليدا في ميلانو، حتى مروان اختلس قبلة شهوانية من يمنى في الخفاء، كل منهم يحتفظ بتفاصيله في الخفاء، ولن يُحب أن يتعرى أكثر مما يجب أمام أصدقائِه، ناهيكم عن العداوة الباطنة بين تالا وداليدا، ولن تسمح الأولى بالتعري أمامها، لذلك في هذا المساء سنبدأ أولى الجلسات في حضوري أنا وماري فقط.

وجّه نظراته لـ ماري وهو يسألها:

ـ من تقترحين أن يبدأ أولًا؟

فكرت ماري لثوانٍ في الإجابة، ثم قالت:

ـ داليدا ذكية ومحطمة، وحين تتحطم فتاة ذكية تفقد الثقة في الجميع، لذلك البدأ بها ستكون فرصة للتشكيك والتمرد علينا، مروان عدواني، والبدأ معه سيصور لهم إننا عدوانين ودمويين، وهذا ما لا نريده، يمنى متشككة لأبعد مدى، وقد ترفض عرضنا، وهذا الواضح أمامنا، وهذا التشكك سيتحول لانتفاضة علينا وعلى أصدقائِها، ومن ثم ستقنع أصدقاءَها برفض عرضنا، لذلك قد نبدأ بـ ياسين؛ هو في حالةٍ يُرثى لها، ويحتاج لمجهودٍ أقل ليقتنع بما نريد، وعليه سيكون أول من يساعدنا في إقناعهم.

وجه ديفيد شاهين نظراته لـ مارتينا التي قالت:

- أرى إن داليدا في حالة ثورة كفيلة بالانتقام من عمها في أقرب وقت، لذلك أقترح أن نبدأ بها.

بعد دقائق قال ديفيد موجهًا كلامه لماري:

- بعد الغداء سنبدأ مع يمنى.

استغربت ماري من رأي ديفيد شاهين، وهنا وضَّح الرجل فكرته:

- في الدولة الديكتاتورية يُفضل حكامها الاعتماد على الفاسدين من رجال الدين والقانون في تسهيل فرض ديكتاتوريتهم على شعوبهم لأنهم يملكون الحجج الدينية والقانونية الكافية للسيطرة على العامة، أولئك يملكون ضمائرًا هشة يستطيعون تلوينها كيفما يريدون، الأهم أن يحتفظوا بالنسق العام لأفكارهم، ما أقصده إن المحامي الذي يدافع عن قاتل هو نفسه الذي تجده يدافع عن المجني عليه؛ لإيمانه التام إن حجته الوحيدة هي القوانين، سواء كانت صالحة أو فاسدة، وما دام لم يعتدِ عليها فهو لا يزال رجلًا شريفًا، الأديان التي حرَّمت قتل النفس هي نفسها التي اعتلى عليها المتطرفون، وسفكوا الدماء دفاعًا عنها، الفرق ليس في الدين، الفرق في مدى استيعاب وفهم المؤمن لها، يُحكى إن جنديًا إنجليزيًا كتب: «قتلتُ جنديًا

ألمانيًا، وعندما فتشته وجدت ورقة كُتب عليها: «نحنُ سننتصر لأن الله معنا»، خفت وقتها؛ فقد أخبروني أن الله معنا نحن»، هذا بالضبط ما يؤمن به المعتدي والمعتدى عليه، لذلك إذا أردت السيطرة على الناس تحدث مع البسطاء عن الله الذي تعرفه أنت حسبما تريد أن يكون في صالحك بلسان رجل دينٍ يلون نفسه لخدمة مصالحه، ويرضي ضميره بحجة الدفاع عن أوامر الله، وتحدث مع النخبة بمبادئ القانون، ورجل قانون؛ لتقنعهم بحجتك وأفكارك تحت إطارٍ دبلوماسيٍّ صريح، وهذا ما سنحتاجه في يمنى.

خرجت ماري، وتبعتها مارتينا دون أن يتناقشا مع ديفيد شاهين عن رؤيته، الآراء والأفكار الشخصية في الأمور العادية قبل الهامة تظهر طبيعة الشخص نفسه وميوله، ولديفيد شاهين أسبابه الخاصة التي شكلت جزءًا كبيرًا من شخصيته، من المهم أن تعرف كيف يُفكر ويؤمن حلفاؤك قبل أعدائك، ما الدوافع التي تجعلهم يتقبلونك أو يرفضونك، ما الدوافع والأسباب التي تجعلهم ينقلبون عليك، لا تستهين ولا تستضعف أحد؛ فلكل شخصٍ قوة وقدرة هائلة على الرفض والتمرد والانقلاب عليك، اهتم بنقاط ضعفهم جيدًا، وحين تعري أجزاءً من حقيقتهم، اسمح لهم أن يقتحموا جدار غموضك، وإن فشلوا فتعرى أنت أمامهم لتشعرهم بالأمان، ارضِ قدرتهم على الانتقام منك حال شن الأذى على قلوبهم، وتأكد

إن الفكر والطريقة التي تسلكها ربما يسلكونها هم أيضًا، لكن الفرق في مدى مهاراتك في تنفيذ فكرتك، ادرس حلفاءك جيدًا قبل أن تبدأ المعركة، فحجارة حليفك أشد قسوة من رصاصة ألد أعدائك.



الفصل الثالث عشر



«ابنة الشيطانة»

ـ أتفق معكِ يا يمنى، الدفاع عن الحق هو أسمى ما يقوم به الإنسان، وأنا أعرف جيدًا مجهوداتك في رد المظالم لأصحابها، لكن هل تنتكس راية الحق أمام عاطفتنا؟

كانت كلمات ديفيد شاهين قاسية حين بدأ حواره معها بسؤالها عن قناعتها بدورها في المجتمع، لم تسمح يُمنى لديفيد شاهين ببدأ مناقشته حول طبيعة عملها، وقاطعته معلنة إن الدفاع عن الحق عمل إنساني بحت يستحق التقدير والاحترام، لكن وبذكاء رجلٍ يعرف كيف يستهدف فرائسه وضعها أمام هذا السؤال المحرج، توترت يمنى قليلًا، ثم سألت مستنكرة:

ـ ماذا تقصد بالضبط؟!

أخرج ديفيد شاهين من المكتب ملف صغير وهو يقول:

- يُمنى حسن النجار، ابنة رجل مكافح من الدرجة الأولى، كان يعمل موظفًا في إحدى الشركات الخاصة قبل عشرين عامًا، ثم قدَّم استقالته وسافر إلى جنوب إفريقيا لخمس سنوات، ثم عاد لمصر وأسس مجموعة شركات ومصانع هي الأكبر في الشرق الأوسط لاستيراد الملابس ومستحضرات التجميل، قصة رجل عظيم بكل تأكيد يستحق أن يتباهى به الجميع في المصابرة والإصرار، لكن دعينا ننظر لما هو خلف الكواليس، رجل لم يُكمل مرحلة تعليمُه الأساسية، وسافر إلى جنوب إفريقيا بهجرة غير شرعية عن طريق أحد الوسطاء، ثم عاد ودفع غرامة كبيرة واستقر في مصر، تُرى ماذا كان يعمل هناك في جنوب إفريقيا ليعود بكل هذه الثروة؟

رفضت يمنى مواصلة الحديث قائلةً:

- أنا لست متهمة، وأنت لست محققًا لتسألني كل هذه الأسئلة.

بثباته المعتاد:

- أنت ضحية يا يمنى، أنا هنا لمساعدتك.

ردت ساخرة:

- مساعدتي! محاولات اتهامك لأبي مجرد أفكارٍ في رأسك.

تحرك ديفيد شاهين من مكانه تاركًا كرسي المكتب وجلس أمامها:

- ليست في رأسي يا يمنى، إنها موثقة بالمستندات والتسجيلات الصوتية.

تنهدت يمنى، لكنها واصلت الدفاع باستماتة:

- اعتني بها جيدًا، لكن مع الأسف لن تفيدك أمام القضاة.

ضحك ديفيد شاهين، ثم أمسك هاتفه المحمول، وبدأ يتصفح بهدوء، وبعد دقائق أعطاها الهاتف وهو يقول:

- في هذا الملف بعض الدلائل التي تُثبت صحة كلامي، مكالمات صوتية، فيديوهات مصورة لبعض العمليات، ومقاطع جنسية ساخنة.

أعطاها الهاتف، ثم خرج هو وماري ليتركها تتصفح كل شيءٍ وحدها.

جلست يُمنى تسمع وتشاهد المقاطع الصوتية والمرئية، هادئة تمامًا لم يفاجئها ما سمعت، كانت مخاوفها الوحيدة أن يعلم أحد بحقيقة والدها، صاحب أكبر وكالة لمرتزقة القتل، ومستورد له ثقله في تجارة الأسلحة، عائلتها ما هي إلا مجموعة من المجرمين،

في صدرها تبرأت منهم، لكن ظاهريًا كانت قناعهم المتين الذي يحميهم من الشكوك والتساؤلات، في الوقت التي كانت تتابع يمنى محتويات الهاتف، اقترحت ماري على شاهين أن تستمر مارتينا في حديثها مع داليدا دون الحاجة للجلسات النفسية معها، بينما اقترحت أن تكون علاقة ديفيد شاهين بـ مروان أشبه بالصداقة، خصوصًا إن مروان اعتاد على دور القيادة، وعلاقتك به قد تكون بداية للموافقة على العمل معنا، وأن تستمر هي بحديثها مع ياسين، لم يعارض ديفيد، على العكس أيد اقتراحها شرط أن تبدأ العمليات في أسرع وقت.

بعد نصف ساعة عاد ديفيد شاهين إلى الغرفة، كانت لا تزال يمنى تشاهد المقاطع، جلست ماري بعيدًا عنهما تتابع انفعالات يمنى.

ـ حسنًا، وماذا بعد؟

تنهدت يمنى وقالت:

ـ أحب التحدث معك بمفردنا.

شعرت ماري بالحرج، لكن سرعان ما رد ديفيد:

ـ ماري مساعدتي الخاصة، ووجودها هنا لتأدية عملها، تأكدي أن ما سيقال سيبقى سرًا بيننا.

تنهدت يمنى، ثم تساءلت:

ـ ما فائدة أن تعرف أشياءً عن عائلتي حال وافقت على العمل معك؟

رد ديفيد شاهين:

ـ سنكون عائلة واحدة، يمكن لأي منا أن يقع في فخ القبضة الأمنية، وعند إذن سنحتاج من عائلتنا الدفاع عنا، البعض قد يرفض، لذلك من المهم أن تكون معنا ورقة ضغطٍ نستخدمها لإجبارهم على الدفاع عنا.

أكملت كلماته:

ـ وإن لم أوافق ستكون ورقة رابحة لك من أجل ابتزازي.

قاطعها نافيًا:

ـ بالطبع لا، نحن لا نستخدم هذا الأسلوب مع رجالنا.

فكرت يمنى في كلمات ديفيد شاهين، ثم قالت:

ـ إذًا، لدي اقتراح.. أنا لن أجيبك إلا عن الأسئلة التي تدور في ذهنك.

كان اقتراح يمنى متوقع بالنسبة لـ ديفيد شاهين، هي فتاة متشككة لن تستطيع الوثوق في هذا الرجل سريعًا، غير أنها تعلم وبحكم خبرتها إن مثل هؤلاء الرجال ولائهم الوحيد لمكاسبهم وأهدافهم، والاعتراف بكل شيء قد يجعلها فريسة لـ شاهين، سألها ديفيد شاهين عن بداية معرفة طبيعة عمل والدها، فقالت:

ـ بين انشغال أبي بتوفير أبسط احتياجاتنا اليومية وبين أنانية أمي وانشغالها بما يحدث في حياة أصدقائها، ولدت فجوة نفسية بيننا، كانت أمي مديرة لإحدى المدارس الخاصة، بينما أبي كان يعمل موظفًا في

إحدى شركات القطاع العام، لم أرَ بينهما أيةَ لحظات ودٍ أو حميمية، كانت الصراعات بينهما مستمرة بشكلٍ دائم، كان لا يمر شهر واحد إلا ولا بُدَّ من صدام بين الطرفين، زرعت أمي في قلبي أنا وأختي روح الكرًاهية تجاه أبي، كانت تحدثنا عن مدى إهماله لنا، تتمنى له الشر والأذى، ولأن الطلاق أمر مرفوض في عائلتنا اضطررنا للاستمرار في هذا الوضع.

- بدأ الأمر حين سافر أبي إلى الخليج كما ادَّعى وقتها بعد توصية من خالي الذي كان له ثقله في بلدتنا.

ضحكت ساخرة:

- كان يجيد تلميع رؤسائِه، ويرقص ويطبل لأي منهم في سبيل بعض الامتيازات عن العامة.

واصلت:

- في هذه الفترة قضينا حياتنا تحت قوانين خالي الذي بدا عليه الثراء، بينما في الوقت نفسه كانت أمي تزداد جمالًا واهتمامًا بأنوثتها، وكان أبي ينام بجوارها في الفراش كل يوم، شيء ما كان يحدث لا يروق لي، انصب اهتمام خالي على تعليمي، كان يقول أنتِ هدفنا ودرعنا في الحفاظ علينا، لم أفهم ما قَصَده وقتها، لكنني أحسنت الظن، اهتم خالي بتعليمي بطريقةٍ مبالغ فيها، حتى إنه كان يسرب الامتحانات

خصيصًا لي، شعرت إن المسألة أكبر من كوني مجرد ابنة أخته ويسعى لتقدمها العلمي والعملي، التحقت بكلية الحقوق كما أراد خالي على الرغم من رغبتي في الالتحاق بكلية الطب، وفي عامي الثاني في الجامعة وأثناء انشغالي بمراجعة ليلة الامتحان، سمعت خالي يتحدث مع أمي بصوتٍ خافت، تصنتُّ عليهما من خلف باب الغرفة...

ـ سيعود «أبو البنات» بعد شهر، ومعه سنبدأ كل شيء، لكن الأمر سيحتاج لبعض الوقت حتى يثبت أقدامه في البلدة، ويبدأ في مشروعاته، حينئذٍ ستكون يمنى تخرجت من الجامعة وعملت معيدة، وسأوفر لها عملًا في أحد مكاتب المحاماة.

سمعت أمي ترد: وبالطبع بعد عودته لن يعود ممكنًا أن أطلب الطلاق منه.

رد وهو في قمة غضبه:

طلاق! الرجل عرض حياته للخطر طيلة هذه السنوات من أجلك أنت وبناتك وتطلبين الطلاق منه! هذا هو رد المعروف؟!

لم تُجِب أمي وقتها على سؤال خالي، لكنني لم أفهم لماذا يُعرِّض أبي حياته للخطر؟! وتوالت الأحداث بعد عودته، عاد رجلًا حادًّا وعنيفًا وأكثر صرامة من

ذي قبل، بينما واصل خالي دعمه لنا ولي تحديدًا بعد أن تخرجت والتحقت بالعمل في الجامعة، ثم الانضمام إلى أحد مكاتب المحاماة كما أراد خالي.

شيء ما واحد وثابت في ذاكرتي هو «الإجبار»، لقد أجبرني أبي على ارتداء الحجاب في طفولتي، وكان إجباره حفاظًا على صورتنا أمام الناس، ففي بعض المجتمعات العربية، وبعد أن تبدأ مفاتن الفتاة في الظهور يجبروهن على الحجاب، وإلا يحق للمجتمع أن يبتكر القصص والروايات عنهن، لم يتوقف الأمر عندئذٍ، بل تغيرت هويتنا تدريجيًا حتى أُجبرت على النقاب بل سببٍ واضح، فلم تكن مظاهر التدين في عائلتنا قوية وملموسة، ولم أرَ أحدًا منهم يصلي ويتعبد كما أمرنا الله، كنت فتاة تلتزم بالزي الإسلامي، بينما في عقلي لا أستوعب ما يحدث، لكنني مجبرة على تنفيذ مخططٍ ما يسعون إليه، وتباعًا فرض خالي سيطرته أكثر وأكثر، وأجاد فقداني للثقة في نفسي، نزع مني كل ما أحب القيام به، أجبرني خالي على ترك هويتي في الكتابة، والتركيز على تعليمي الأساسي، والالتحاق بكلية الحقوق، كان يحاوطني من كل اتجاه، اخترت أن أكون فتاة انطوائية لا أقيم علاقات مع أحد، يبتعد الجميع عني لأنني ابنة «المديرة»،

وبإمكان أمي أن تُحطم مستقبل أي شخصٍ يحاول الاقتراب مني، وحين انضممت للجامعة كنت الفتاة الملتزمة التي ترتدي ملابس سوداء دائمًا، لا تضحك، لا تمزح، لا تخرج مع أحد، فقدان الثقة طريق شاق يبدأ من الطفولة ثم تركض بكل قوتك نحوه حتى تفقد إيمانك بالجميع رغمًا عنك، كل اختياراتي كانت خاطئة، فقد سخروا مني جميعًا، لم أكن جميلة، ولم يكن لدي الوقت للاهتمام بأنوثتي، عكس أمي التي كانت تجيد الظهور جميلة أمام الغرباء، وكأنها تسترد ثقتها من نظراتهم لها، طفولة ومرحلة شباب مملة وباردة، لم يدعمني أحد لأجلي؛ بل كانوا يدعمونني من أجل مصالحهم الخاصة.

انكشف الستار حين بدأ أبي وخالي في الاستثمار الداخلي بمجموعات شركات مُدعمة من بعض رجال الأعمال الفاسدين، كانت أسهم شركاتنا ترتفع بشكلٍ غريب ومريب، في الوقت نفسه كانت أمي تائهة في ملكوتٍ آخر، ملامحها باردة طوال الوقت، وكأنها دمية تتحرك حسبما يريدون، مع الوقت تقدم أحد لخطبتي، جاءتني فكرة الرفض، لكنها كانت مجرد فكرة دخيلة لم تستمر طويلًا؛ فقد وافقوا دون عرض المسألة عليّ، واكتشفت إنني أصبحت زوجة لصديق

خالي، اكتشفت إنني مجبرة على مواصلة ما تبقى من حياتي مع رجلٍ لا أعرفه ولا أحبه، جحيم من الأوامر لا ينتهي، في السنة الأولى طلبت من زوجي أن أخلع النقاب، لم يوافق، بل عارضني بشدة، لم أستسلم، وحاولت معه أكثر من مرة حتى لجأت إلى خالي الذي وافق وأيدني وأمرني بخلع النقاب، صدقًا تمنيت أن يحدث شجارٌ وصدامٌ بينهما، لكن لم يجرؤ زوجي على المناقشة حتى مع خالي، فأيقنت إنني أعيش مع رجلٍ ضعيف الشخصية والهوية، لا يختلف كثيرًا عن أمي وأبي اللذين يخضعان لأوامر خالي دون مناقشة.

تحركت يمنى من مكانها، ووقفت أمام مكتبة ديفيد شاهين، ثم واصلت:

ـ بعد خمس سنوات من الزواج توطدت علاقة زوجي بأمي، كنا نذهب للمبيت معها كل أسبوع أثناء سفر خالي وأبي لقضاء أعمالهما، تطورت العلاقة للحد الذي جعل أمي ترتدي ملابس فضفاضة أمام زوجي، لاحظت هذا وبدأ الشيطان يداعبني بأفكاره اللعينة، لكنني كنت أكذب نفسي، تساؤلات لا إجابة لها، وأشد سؤال كان يزعجني: «هل تراود أمي زوجي عن نفسه؟»، لا أستطيع أن أقول إن أمي امرأة جيدة؛ لطالما

رأيتها تستمتع بنظرات الرجال لها، لم تكن صالحة، رغم إنني لم أملك دليلًا واحدًا على قبحها.

- طبيعة عمل أبي وخالي مريبة، وطبيعة علاقة أمي بزوجي أشد غرابة، كان عليَّ حل كل هذه الألغاز، قررت البدأ أولًا بزوجي، أخبرته إنني سأقضي يومي كاملًا في الجامعة، وأثناء يومي اتصلت به وأخبرته إنني مُتعبة وسأذهب لمنزلنا لقربه من الجامعة، وفي الصباح سأعود إلى العمل، ومنه سأتناول الغداء معهما، لم يمانع زوجي، وقال إنه سينتظرني في المنزل، رفضت اقتراحه، وطلبت منه أن يبقى مع أمي حتى يؤانسها، لم يمانع أيضًا، وانتهت المكالمة، بعد حلول منتصف الليل قررت الذهاب إلى منزل أمي والتأكد من ظنوني.

كانت الساعة الثانية صباحًا، والأجواء باردة، دخلت المنزل على أطراف أصابعي، كان نورٌ خافتٌ يخرج من غرفة أمي، وضعت أذني على الباب، وهنا سمعت أصواتًا غريبة، كانت تأوهات هادئة، بعض الكلمات الغريبة، فتحت الباب في هدوءٍ حتى وجدته! زوجي وأمي على فراشٍ واحد، تتهاوى بين ذراعيه كما لو أنها مع أبي، زوجي غارق تمامًا معها، كانت صدمتي أكبر من أن تحملها قدماي، وفي لحظةٍ اتجهت للمطبخ، وما كان عليَّ إلا أن أمسك السكين وأنقض عليهما لأشفي غليلي، وما إن رأياني حتى غطت أمي جسدها العاري الملتهب من ليلتها مع زوجي، بينما انقض زوجي عليّ ودفع

السكين بعيدًا عني، ثم انهال عليَّ بالضرب المبرح، كانت لحظات لا تُنسى، وليلة هي الأصعب في حياتي.

لم تكن مجرد خيانة يا ديفيد، كان هدمًا لأبسط مفاهيم العلاقات الاجتماعية، سهم مسوم في قلب مفاهيم الود والحب والألفة والفطرة الإنسانية، رأيتهما معًا، أمي التي لم تحبني يومًا رغم حبي لها، زوجي الذي لم أحبه أبدًا، كاد قلبي ينسلخ وينخلع من مكانه، يقطعه سكين بارد، والقاتل يبتسم، لم تكن لهما ردة فعل إلا الصمت والصدمة، كانت نظرات أمي باردة وعادية، وكأنها لم ترتكب جرمًا في حق زوجها وابنتها، كأنها لم تُخطأ تحت مسمى العرف والمجتمع والدين.

نهضت من مكانها في هدوءٍ تام، وذهبت إلى الحمام دون أن تنطق بكلمةٍ واحدة، أكاد أقسم إنها لم تشعر بالذنب، باردة للحد الذي جعلني أشك في سلامة قوتي العقلية، أشك فيما رأيت، طريقتها وتحركاتها كانت أشبه بمجرمٍ رقص على جثث ضحاياه، زوجي ارتدى ملابسه ثم لحقها، كانٍ الذنب في نظراته أوضح وأصدق.

خرجت أمي من الحمام، ثم جلست وكأنها لم ترتكب جرمًا في حقي وقالت:

- لست آسفة لك يا يمنى، هذا ما صنعه أبوك، هذا الوغد الذي تعمد تحطيم ثقتي بنفسي بالسخرية والتقليل من عملي وأحلامي، وحتى أبسط حقوقي كأنثى في شعوري بإنني جميلة لم يوفِ بها، ماذا تنتظرين مني؟

رددت غاضبة:

- إن كان انتقامك من أبي فما ذنبي أنا؟

ضحكت وهي تقترب من زوجي، وتداعب خصلات شعره:

- ألم يخترك خالك لإدارة أعماله، وأيده في قراره أبوكِ، ألم يختَر لكِ زوجًا يُقدر جمالك، ويرضي رغباتك ويحترمها، بينما سخِر مني واستهان بما أفعل، وحتى لم يحترم رفضي للزواج من أبيكِ من البداية، ما الفرق بيني وبينك؟ أنا أجمل منك، أنا أفضل منك، وأنجح منك، أنا السبب في وجودك في الحياة من الأساس، لماذا أهملاني وجعلاني امرأة مهمشة، ثم صنعا منكِ امرأة ناجحة قوية؟ قررا أن تعيشي الحياة التي تمنيتُها وصنعتها في خيالي، والآن ليكن العدل، وأصنع أنا لك الحياة التي فُرضت عليّ، ستقضين عمرك فاقدة للثقة في كل شيء، محطمة وبائسة، لا تقوين على اتخاذ قرار واحد في حياتك.

لم أتمالك أعصابي، انقضضت عليها فأمسك ذراعي، وواصلتْ وهي تنظر لعينيّ:

- وإن قررتِ أن تخبريهما بما يحدث فلن يقوما بأي إجراءٍ ضدي، تعرفين لماذا؟

دفعتني على الأرض ثم قالت:

- لأنهما يخشيان غضبي، يعرفان أن بإمكاني أن أشي بهما، أكشف ستار شركات الملابس، وأخبر العالم بطبيعة عملهما مع أكبر عصابات تهريب الأسلحة، هم عصابة يستترون خلف اسم رجال أعمال، سيخضعان لرغبتي مقابل الصمت، أهزمهما في ذكوريتهما ونخوتهما خوفًا من الفضيحة.

كانت كلماتها الأخيرة بمثابة السهم المسموم في قلبي قبل أن أنهار تمامًا، وأفقد الوعي، حين اقتربتْ من زوجي ثم التهمت شفتيه، وواصلت: سأتزوج هذا الديوث الذي أحبه، ولن يمانع أحد، وإلا الفضيحة.

فقدتُ وعيي تمامًا، لم يتحمل قلبي قسوة ما سمعته ورأيته، كنت أراها وكأنها إبليس يتمرد حتى على أهله وعشريته.

توقفت يُمنى عن الحديث، بدت متماسكة بشكل كبير، ترفض البكاء أمام ديفيد وماري، نظرتْ لهما وكأنها تريد التبرأ من ذنب أمها، ثم واصلت:

- ومن هنا بدأت أعرف حقيقة عائلتي، انزاح ستار التقوى، وأجابت الصدف على كل الأسئلة التي دارت في رأسي لسنواتٍ طويلة، وكما قالت أمي لم يفعلا ضدها شيئًا يُذكر، الحدث الوحيد هو طلاقي من الخائن زوجي الذي عاشر أمي، فهمت إن كل ما كان

يسعى له خالي مجرد صُنع دمية صالحة لتكون واجهة عائلتنا الفاسدة، أُجبرت على العمل في مصانعهما المزيفة التي يستثمران من خلالها أموالهما الفاسدة، تدرجت حتى أصبحت أنا المحامية والدكتورة المعروفة صاحبة الصيت والشهرة التي ترفع راية الحق، بينما في الخفاء أتستر على كم جرائم لا حصر لها لعائلتي.

سألها ديفيد الذي لم يتأثر بما سمعه من يُمنى:

ـ لكن أظن إنك تحبينهم رغم كل هذا.

ردت وهي تبتسم:

ـ أحبهم! لم أكره في حياتي مثلما كرهت عائلتي، لكن أنا ابنة الشيطانة، ومهما تبرأت منهم لن تُقبل توبتي، ولن يحميني القانون، لن يصدقوا إنني بريئة، ولن يصدقوا إن صمتي على الوشاية بهم ما هو إلا عجز، لقد أصبحت شريكة معهم بهذه البساطة، وما حدث مع أمي وحين فوجئت بسلبية خالي وأبي معها أدركت إنني ابنة عائلة لا تحمل أيةَ ذرة نخوة، لا تحمل أيةَ صفاتٍ إنسانية يمكنك أن تحبهم لأجلها، كنت أبغضهم أشد البغض، لكن دون اتخاذ قرارٍ واحد ضدهم، أفقدوني الثقة حتى في الانتقام منهم، هناك مثل إنجليزي معروف يقول: «إن لم تقاوم الاغتصاب فاستمتع به»،

وهذا بالضبط ما حدث، أصبحت المستشارة القانونية لشركاتهم، الغطاء الذي يستر فسادهم وجرائمهم.

توقفت يُمنى عن التحدث، ثم قالت لديفيد شاهين:

ـ وبعد هذا تطلب مني أن أختار طريق الشر مرة أخرى! ألا يكفي كم السنوات التي أُجبرت عليه؟

أشعل ديفيد شاهين سيجارته ثم قال:

ـ طريقنا يختلف عنهم، إن حريتك ستبدأ في الانضمام إلينا يا يُمنى، سيكون طريقك الوحيد للانتقام منهم، وبنفس مكائدهم وأفكارهم.

ردت:

ـ ربما هناك طريق آخر يمكن أن أسلكه لرد الاعتبار.

قال:

ـ بالطبع، لكن لن يشفي غليلك، ستحبين أن تري في أعينهم نظرات الضعف والكسرة، القانون لن يُرضي رغبتك في هذه المسألة، بعض الحقوق لا تُعطى، إنما تُؤخذ بالقوة، وهذا ما سيحدث معك.

أحتاج للخروج.

أشار لها ديفيد شاهين بالخروج وهو يقول:

ـ القرار لك، وللحديث بقية.

خرجت يمنى، واتجهت لغرفتها، فقالت ماري لـ ديفيد شاهين:

- أُشفق على هذه الفتاة، لقد عانت كثيرًا في حياتها، هي تُعاني من اضطراب الشخصية المرتابة، يظهر هذا في كلماتها وترددها الواضح في نظراتها أثناء التحدث، في تساؤلاتها التي تحمل دائمًا طابع الشك والحيرة، حتى المعلومات التي أخبرتك بها ليست صادقة بشكلٍ كامل، واعترافها لك ما هو إلا للحفاظ على أسرارٍ ومواقف أخرى أشد قسوة وخطورة، بالإضافة لذلك هي عدوانية جدًّا، عكس الانطباع الأول الذي ساد عليها مع أصدقائها ومارتينا.

في هدوءٍ تام واصلت ماري:

- ثم إن من أعراضها اتهامها الدائم لمن حولها بالخيانة.

لم يرد ديفيد شاهين، مما دفع ماري لسؤاله:

- والآن نحن أمام مريضة مصابة باضطراب نفسي، كيف يمكن التعامل والاستفادة منها؟

دون أن يكترث لسؤالها قال:

- الآن اذهبي لـ ياسين، وحاولي أن تجعليه يتحدث معكِ باستفاضة أكثر.

خرجت ماري وعاد ديفيد شاهين لصمته، بينما جلست يمنى على سريرها تستعيد ذكرياتها.

أنت لا تعرف شقاء امرأة تفقد الثقة في نفسها، مهما نجحت يدفعها صوت بداخلها يقول: «أنتِ فاشلة، لا أثر لكِ في الحياة»،

كلما ركضت نحو أحلامها عركلتها أفكارها اليائسة، تقول لنفسها: «أنا أركض في الطريق الخطأ، لن أحقق شيئًا في النهاية»، هي لا تؤمن أنها مفيدة ذات أثر أو وجود يُذكر في الحياة، كلما تجمَّلت ووقفت أمام مرآتها خاطبها صوت يقول: «أنت قبيحة»، تشعر دائمًا بالسخط والكره على ضعفها، لكنها لا تملك الخروج منه، تتجنب الحب لإيمانها بإنها لا تملك ما تقدمه في سبيل الحفاظ على المحب، تخشى الهزيمة والخيانة، تتجنب العلاقات، ليست لأنها قاسية وجافة؛ بل لإيمانها بأنها لا تملك شيئًا بداخلها يستحق الحب.

حين تتناقش معك تحول المناقشة لساحة حرب، تبارزك لتدافع عن نفسها، وبإمكانها تحطيمك خوفًا من أن تتحطم، تسيء الظن بالجميع رغمًا عنها، تراهن إن الناس ينتظرون الفرصة المناسبة للانتقام منها، وتُعد مكائِدها للتصدى لهم أو حتى البدأ في الهجوم عليها، هي فاقدة للثقة في كل شيءٍ حولها حتى في نفسها، تؤمن إنها فتاة سيئة وقبيحة، تؤمن بأنها شيطانة يمكنها تدمير العالم، تحمل على عاتقها شرور الدنيا، رغم إنها في بداية الأمر لم تكن كذلك، مع الأسف إن بعض الاضطرابات النفسية حين تصيب المرء تظهر أسوأ ما فيه، تظهر الجانب الآخر منه، عكس صفاته الأولى البريئة، إن بعض الاضطرابات النفسية تُحطم صاحبها، تجعله شخصًا آخر، وقد كانت يمنى ضحيةً لهذا الاضطراب.

الفصل الرابع عشر

فات الميعاد

مرت أحداث اليوم باردة على ياسين، كانت رأسه مشغولةً بأسباب موافقة رقية على قراره، متردد ما بين الاتصال بها في المساء، وفتح بابٍ آخر للتراجع عن هذه الموافقة، وبين خجل من نفسه يمنعه عن التحدث إليها، خصوصًا إن كان القرار من البداية هو قراره، الأفكار في رأسه تتصارع، وشعوره بالندم يزداد حدة وقسوة، في علاقته بـ رقية شيء من الامتنان والأسف، مزيج ما بين تقبيل رأسها امتنانًا على كل ما قدمته له وأسفًا على ما لم يُقدره منها، أغلب الرجال لا يقدرون الأشياء التي تُقدم لهم إلا بعد فوات الأوان، أغلب الرجال لا يُقدرون الحب إلا بعد أن ينزلق من بين أيديهم، هذه الطبيعة السائدة في صفاتهم، لا يتزوج الرجل من الفتاة الأولى التي أحبها لأنه لم يقدر حبها له بشكلٍ كافٍ، لأنه لا يُدرك تضحياتها

وعطاءها، ويظن إن ما يملكه قليلٌ جدًّا على ما يستحقه، ومن ثمَّ لا يشعر بفجيعة فقدانه الأولى إلا بعد أن يصدمه الواقع، يكتشف إن ما كان يملكه هو العالم، وبتمرده انقلب عليه، فلم يعد يتسع له يومًا، لن يعيد الندم الأشياء التي رحلت عنه، لن يُخلف اعترافه بأخطائه إلا آلام أشد قسوة بين مرار الفقدان وشعور الخيبة والحسرة على ما فقد، وقد يقضي عمره مشتتًا بين أحضان النساء كالمغترب بحثًا عن وطن آخر يشبهها، لكن كل الأوطان البديلة في الحب أوطان هشة لا تُدفئ أصحابها، كل البلدان التي يستقر عندها الرجل بعد طرده من وطنه الأول مجرد ملاجئ لا أمن ولا استقرار فيها، وكم من مغتربٍ تمنى أن يعود لوطنه لكن بعد فوات الأوان، حيث أصبحت الديار ملكًا لمن يستحقونها، فلم يعد بداخلها الألفة والونس الذي اعتاد عليه، لم يعد مرحبًا بوجوده بعدما كان هو مالكها وصاحبها، الحب كالدنيا، يمكن أن تكون سلطانها، ويمكن أن تقتلك بنيران الذل، الحب كالدنيا في ليلةٍ وضحاها، ترفع من شأنك حد السماء، وتدفنك في سابع أرض، وأهل الحب صحيح مساكين!

أخيرًا قرر ياسين أن ينتظر المساء حتى يطلب رقية ويتناقش معها في موافقتها على قراره، لم يقطع صوت عقارب ساعة الانتظار القاسية سوا ماري التي جلست معه، ليواصل حديثه عن فتاته، لكن شعر الرجل أن الحديث عنها سيؤثر على قراره، فهرب من تساؤلاته عنها ليسألها:

ـ لو كنتِ مكاني ماذا سيكون قرارك لـ ديفيد شاهين؟

ردت ماري:

ـ سأفكر كثيرًا قبل اتخاذ هذا القرار، هل أنا حقًّا مستعدة لخوض معركة جديدة مختلفة مع الحياة؟ هل أنا مستعدة للمجازفة؟ هل سأتحمل مرارة الهزيمة؟ كلها أشياء تستحق التفكير الدقيق قبل اتخاذ القرار.

رد ياسين وهو يبتسم:

ـ أظن إنني لن أخسر كثيرًا، فلقد خسرت كل شيءٍ في شبابي، دعيني أحدثك عن هزائمي يا سيدتي، أنا رجل ولد بوصمة الفقر، مثلي مثل شباب بلدتنا، أحلامنا باريسية، وواقعنا صومالي، أقصد مصريًا، والدي أفنى عمره في العمل تحت رحمة ماكينات الإنتاج في إحدى الشركات الخاصة، والقطاع الخاص في بلدتنا يمص دماء العمال، دعيني أحدثك أنا عن ذل الرجال من أجل الحصول على قوت يومهم، كان والدي يعمل عامل إنتاجٍ بسيط يتحمل شقاء العمل، لكن الماكينات لم تتحمَّل شقاءه، وبخطأ مهندس بسيط بُترت أقدام أبي تحت عجلات الإنتاج، وفجأة أصبح جليس المنزل، لقد عوضته الشركة عن خدمته طيلة هذه السنوات بمبلغ بخسٍ بسيط، لا يكفي حتى لفتح مشروع صغير في حَيٍّ فقير، كان التعويض أشبه بالإهانة، لقد أرادت الشركة أن تُخلي مسؤوليتها القانونية بمبلغها المالي،

بعد عامين من الحادث وضيق الحال بنا، انضمت أمي للشارع، أقصد أصبحت تعمل في المنازل.

تنهد وهز رأسه كأنه يعترف لنفسه بطبيعة عملها:

ـ خادمة، ولا تخدعك شعارات إن العمل لا يعيب صاحبه، فهذه الشعارات نقرأها ونسمع عنها في التلفاز فقط، لكن الواقع لا يعترف بها، الواقع لا يعترف إلا بأصحاب المال والنفوذ والسلطة، كانت تعمل طوال اليوم من أجلنا، من أجل أن توفر أبسط احتياجاتنا كما كان يفعل أبي، إن الشقاء في بلدتنا يا عزيزتي سُنة الحياة، عجلة لا بداية ولا نهاية لها، يدور فيها أجيال وأجيال، وما إن تفنى حتى يستعين بأشخاص آخرين ليواصلوا الركض كالفئران في نفس الدائرة، لكن حتى دائرة الشقاء لا تخلو من خزي صانعيها.

لطالما رفض أبي طبيعة عمل أمي، لكنه كان أعجز من فرض قرارٍ عليها، كان يعاني، وكنت صغيرًا لم أفهم ما قصده حين قال: «إن ما يعذب الرجال أن تضع الحياة بين كرامته واحتياجه للمال»، وقد عانى أشد معاناة في هذه المسألة، يقولون إن بعض الفقراء لا يملكون أسمى وأغنى من كرامتهم وكبريائهم، وهذا ما لم يعجب الحياة، فقررت وذات يوم أن تسلبه منا أيضًا.

ذات يوم استيقظت على صوت رجال الشرطة في منزلنا، القبضات الحديدية بين يديها وهي منهارة، وأبي على كرسيه المتحرك عاجز تمامًا عن الكلام، بينما أخواتي في حالة انهيارٍ تام، لم أفهم سر القبض عليها، ومع مرور الأيام عرفت من أبي أنها مُتهمة بالسرقة! أمي تسرق؟ لا هذه خرافة لا أصدقها أبدًا، ذيع خبر القبض على أمي بالسرقة في أركان الحي، حتى بدأت نظرات الناس تحاوطني أنا وإخوتي في كل مكان، لم نتحمل همساتهم، أمي ليست لصة، أمي ليست لصة، هكذا رددت بيني وبين نفسي، كان صمت أبي حملًا آخر، وسرًا لم أفهمه، مر العام الأول وأمي خلف القضبان ونحن نعيش على معونات أهل الخير الذين آمنوا ببراءة أمي، لم يتحمل أبي مرارة الهزيمة والإذلال، ذاك الرجل الذي اعتاد أن يكون قويًا أمامنا، رحل أبي مصابًا بالسرطان، وهنا اتضحت حقيقة سرقة أمي للمنزل الذي كانت تعمل خادمة فيه، لقد سرقت من أجل توفير علاج الكيماوي لأبي، بعد وفاته خرجت أمي بقرار عفو جماعي بعد مراجعة حالتها الاجتماعية.

في غضبٍ واصل ياسين:

ـ السرقة حرام، لكن السرقة من أجل البقاء حيًا لا أعتبرها حرامًا، السرقة حرام، لكن السرقة من أجل إطعام اليتامى لا أعتبرها حرامًا، السرقة حرام، لكن السرقة من أجل توفير الدواء وإنقاذ مريض بين الحياة والموت لا أعتبرها حرامًا، السرقة حرام، لكن الجوع كافر، السرقة حرام لكن المرض كافر، السرقة حرام لكن الآلام والذل والمهانة أشد جرمًا، أنا لا أبرر السرقة، لكنني أتساءل: أليس من العدل أن ينعم الفقراء بأبسط حقوقهم في الحياة؟ أليس من العدل أن ينعم المهمشين بدوائهم لتلك الأمراض التي أُصيبوا بها حين أفنوا عمرهم وصحتهم في خدمة الأثرياء؟ أنا لا أبرر السرقة يا ماري، وأبي لم يمت من الجوع، بل مات من اليأس والذل، في بلدتنا أبسط حقوقنا أحلام بعيدة جدًا عنا يستحيل علينا تحقيقها.

لقد انهزمت في طفولتي، وانهزمت في شبابي حين سلب مني ابن أحد الدكاترة في الجامعة حقي في منحةٍ دراسية خارج مصر، حين سلب مني حقي في الوظيفة لأنني ابن خادمة أعمل في سوق العتبة الفقير، بينما هو ابن رجلٍ مرموق.

ساخرًا قال:

ـ ووظيفة مرموقة تليق بأولاد المرموقين! والآن لقد انهزمت في الحب، وهذه المرة الهزيمة مختلفة، فقد انسحبت من ميدان المعركة، وخذلت الوحيدة التي آمنت بي، وبكل تعالٍ وحماقة رجلٍ شرقي أفكر في كيفية العودة لها، سذاجة رجل عذبه الفقر!

واصل ياسين وكأنه يواسي نفسه:

ـ دعك من هذه الدراما السخيفة، سأذهب للنوم، وبعد ساعات سأطلب رقية لعل وعسى تستجيب لرغبتي.

تنهدت ماري التي كانت لا تملك من المواساة إلا أن تربت على كتفه:

ـ أتمنى أن تستجيب.. أتمنى!

بعد ساعاتٍ استيقظ ياسين، اتصل بـ رقية فلم يرد عليه إلا فتاة الرسائل المسجلة: «الهاتف الذي طلبته غير متاحٍ حاليًا، يمكنك الاتصال به في وقتٍ لاحق».

بعد عدة محاولاتٍ أخيرًا فتحت رقية هاتفها، وردت بهدوءٍ:

ـ أهلًا ياسين.. ماذا هناك؟

رد ياسين بتلعثم:

ـ هل يمكننا التحدث عن مكالمة الصباح؟

ـ ماذا تريد بالضبط؟

رد ياسين:

- أتمنى لو كان بإمكانك أن تفكري مرة أخرى في قرارك.

ردت رقية:

- قراري؟ هذا كان قرارك، ولقد استجبت لـه.

بصوتٍ يغلب عليه الحزن:

- لم أقصد أن نفترق.

ارتفع صوتها قليلًا قائلة:

- لم تقصد أن نفترق؟ كل هذه السنوات ولم تقصد؟! كل هذه السنوات وأنا أعارضك، تشيد السدود وأهدمها، تخلق مبرارات للنهاية وأصنع منها خطوطًا جديدة للبقاء، كل هذه المحاولات لم تُقدرها، والآن وبعدما قررت أن أوافق على قرارك، تطلب مني أن أفكر مرة أخرى؟!

لم ينطق ياسين، فواصلت رقية:

- اسمعني يا ياسين، لقد فعلت ما أردته مني منذ زمن بعيد، اقتنعت بأفكارك، وسأبدأ من الآن في طوي صفحتك والبحث عن حياةٍ أخرى بعيدة عن فقرنا وبؤسنا.

وهو يحاول أن يمنع دموعه التي تساقطت رغمًا عنه:

- أنا أحبك.

ردت غاضبة:

- وأنا؟! وأنا ألم أحبك نفس الحب وربما أكثر؟ ألست أنا من قلت لها: «إن حبك يكفيني عن حب العالم»؟ ألست أنا من قلت لها: «إن الطاقة التي تمدينها لي تكفيني لمحاربة العالم»؟ ماذا قدمت لحبي لك؟ الواقعية بخزي رجل هزمته التوقعات، قلت: «نحن لا نصلح لبعضنا، نحن لن نحيا معًا»، لم تُقدر، لم تعطِني حتى أبسط حقوقي في الود واللين والكلمة الطيبة، لا تتصل بي مرة أخرى يا ياسين.. لا تتصل بي مرة أخرى.

أغلقت رقية الهاتف في وجه ياسين الذي انهار باكيًا.

وهناك في القاهرة كانت رقية على ضفاف النيل، وبفستانها الطويل الممزوج بشقاء وتعب اليوم جلست تتحدث إلى نفسها، تشفق عليها، وتعاتبها في آنٍ واحد، فتاة الفقر آمنت بالحب، فكفر بها الحب، والآن حان الوقت لتكف عن دور الأصيلة التي تضحي وتضحي وتوفر ما تبقى من طاقتها لمن يستحق.

همست لنفسها متسائلة:

- لكن ومن غير ياسين يستحق التضحية يا رقية؟ هو أول رجل رأته عيناك، ووقع في غرامه قلبك، أول رجل غازلك بكلماته، وأول رجل عاش معك لحظاتك الصعبة، كيف تتركينه بهذه البساطة؟

لترد وكأنها فتاة أخرى:

- لم أتركه، لقد بذلت كل ما في وسعي ليبقى، لقد حاولت إقناعه بكل الطرق، لكنني وفي النهاية تعبت، أليس التعب سببًا كافيًا للرحيل، ثم إنني لم أرحل عنه، هو من أراد ذلك، وأنا حققت ما أراد.
- لقد أدرك خطأه يا رقية، وهو يستحق فرصة أخرى، بينكما ذكريات وتفاصيل تشفع له كل شيء.
- فرصة أخرى؟ لقد أضاع كل الفرص المتاحة، لقد حطم بغبائِه كل ما تبقى مني، فرصة أخرى وأعيد محاولاتي من جديد؟ لم تعد لدي طاقة للمواصلة، لقد استهلكني.. استهلكني تمامًا.
- بإمكانه أن يُصلح حطامك مرة أخرى.

ساخرة ردت على نفسها:

- لست محطمة! لقد انطفأت، انطفأت تمامًا، لم أعد أصلح لأي شيء سوا الصمت، لقد أجاد صنع هذه الشخصية المهزوزة التي يطالبها الآن أن تعيد التفكير في قرارها، أليس هذا من الحماقة؟
- أنت تكذبين، تحاولين أن تُبرِّئي عجزك، وتضعين اللوم عليه لتخففي اللوم عن نفسك في دوافع اتخاذك لهذا القرار.

ـ لا لست كذلك، وإن كنت فهذا يعني إنني أصبحت نسخة أخرى منه، صنيعته كما قلت لك، أخبرني، أليس معنى إننا لا نصلح لبعضنا يعني إن هناك فتاة أخرى تصلح له؟ أليست هذه خيانة؟ أليس معنى أن يقول إن الحياة لن تتسع لنا يعني إن هناك حياة أخرى مع أخرى تتسع لهما؟! أليس معنى أن يقول إننا سنقضي حياتنا في شقاء يعني إنه يفكر في فتاة أخرى لن يعيش معها نفس الشقاء الذي ابتعد عنه معي؟ هو أناني، والآن تتهمينني أنا بالأنانية؟ هو من زرع في رأسي تلك الأفكار، والآن حين يتيح لي القدر فرصة للنجاة يطالبني بالتشبث.. غبي وأناني يا ياسين!

رغمًا عنها دفنت رأسها بين قدميها وهي جالسة، وانهارت رقية باكية.

أول ليلة في الفقدان هي الأصعب على الإطلاق، حيث تمر بك لحظات لا يشعر أحد بك، لا يعلم كم الانهيارات التي تحدث بداخلك، لا يغلب ضجيج أنين صوت قلبك سوى تنهيدات يملؤها الحزن والحسرة، لا أحد هنا سوى أنت وجراحك وشريط من الذكريات ينسدل أمام عينيك ليزيد آلامك ويسلخ قلبك، تنهار وأنت في غاية الثبات، تسقط على الأرض من فرط الوجع، ثم تستيقظ عازمًا على التجاوز، وإيمانًا بأن الحياة لا تتوقف على فقدانك لأي شخص، فتتعثر من جديد لأنك فقدت الشخص الوحيد الذي كنت

تستثني في الحياة، والذي كنت تقول دائمًا: «لا يهم ما سأفقده، ما دُمت لم أفقد شخصي المفضل»، تشعر بالضيق، وكأن العالم يقف في حلقك، لا أنت قادر على الخروج من جسدك، ولا أنت قادر على البقاء، تشعر بالهوان معلقًا بين السماء والأرض، روحك تائهة هشة تبكي وتبتسم وتصمت في لحظةٍ واحدة، تنهزم بتساؤلاتك التي لا إجابة لها، تتمنى لو كان بإمكانك أن تكتم في صدرك الكلمات التي جرحت من تحب ودفعته للرحيل، تتمنى لو كان بإمكانك أن تعيد الأيام لتتجنب كل الأخطاء التي ارتكبتها في حقه، تتذكر اللحظات التي قضيتها معه، تتذكر التفاصيل الأولى من كل شيء، تضحك حين تمر عليك اللحظات الحميمة التي قضيتها معه، تضحك لأمنياتكما بالبقاء الأبدي، لدعواتكما معًا، للحظات الصعبة التي مرت عليكما، وكم كانت قصة تجاوزها رائعة ومُلهمة، اللحظات التي تشاركتماها معًا في سعادةٍ وحب، ولحظات التعب والمأساة، وتهوين الآلام بالكلمات واللمسات الدافئة، تتذكر أحلامكما التي صنعتماها معًا، الأيام التي مرت عليكما وأنتما تتحدثان عن تفاصيل حياتكما معًا، تدندن الأغاني التي عرفت أصواتكما معًا، لحظات الدلال والحب والخصام ونيران الغيرة، تتذكر حين يقال اسم الطرف الآخر أمامك فتبتسم، تبتسم ويخفق قلبك سعادةً وحبًا، حينها تريد أن تقول للعالم: «هذا ملك لي وحدي»، ولحظات دفاعك عنه أمام الجميع، تبتسم لأنك كنت تملك شخصًا لا تخجل من البكاء أمامه أو مشاركته لك كل أفكارك التافهة الجنونية، ثم تمر عليك لحظة

الفقدان، تمر عليك مرارة شعور الخيبة والحزن، الواقع الذي قرر أن يُحطم ويمحي كل هذا، ويكتب نهاية حزينة لقصتكما، تبكي لأنه لم يعد بإمكانك صنع ذكريات جديدة مع شخصك المفضل، لأن شخصك المفضل لم يعد هنا، لم يعد بإمكانك الاتصال به في أي وقت، الاستنجاد به، واللجوء له حين يضيق بك العالم، لم يعد بإمكانك أن تعانقه، تلامسه، تختبئ من الحياة بين ذراعيه.

تتنهد، تتنهد وأصوات الأنين في قلبك ترتفع وترتفع، تشتعل في صدرك وتعذبه، تتمنى لو تقطع من قلبك الجزء الذي يتألم، فتكتشف إن قلبك يتآكل من قسوة الحزن، تتمنى لو تقطع من رأسك جزءًا من ذاكرتك، فتكتشف إن كل ذكرياتك صنعتها لأجله فقط، تخضع لفكرة الفقدان، فيصدمك تمردك على الواقع ذاك الذي زرعه فيك شخصك المفضل، لقد علمني أبجديات الحياة، هكذا تردد لنفسك وأنت تتألم، تتصفح محادثاتكما وصوركما، فتستعيد مرة أخرى شريط الذكريات، هنا كان يحدثني عن قسوة الأيام، وهناك كان يتغزل في جمالي، هنا كان يغار، وهناك كان غاضبًا من تصرفاتي، هذه الصورة كانت يوم ميلادي، وهذه الرسالة يوم شعرت بالضيق منه، فقدم اعتذاره بطريقة مختلفة، هنا توعدنا باللقاء ولم يحدث، وهناك كان اللقاء بعد فترة طويلة من الغياب، تتذكر وتتذكر، ثم تنهار باكيًا لأنك لم تعد تملك الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه مشاركتك لمثل هذه اللحظات الصعبة.

أول ليلة في الفقدان هي الأصعب على الإطلاق.

في صباح اليوم التالي استيقظ الأصدقاء، وبدأوا في الخروج من غرفهم ثم تجمعوا حول طاولة الطعام، كانت آثار الحزن واضحة على ياسين، عيناه منتفختان، وملامحه شاحبة، ولا يواصل عاداته في المزاح والضحك، بينما كانت يمنى في غاية أناقتها، بل ارتدت فستانًا قصيرًا يُظهر مفاتن أنوثتها، الأمر الذي دعى مروان لمغازلتها بكلمات الجمال والثناء عليها، وعلى عكس المعتاد لم تغضب يمنى؛ بل تمايلت ضاحكة في دلالٍ وخفة، داليدا كانت تعبث بهاتفها، وتختلس نظرات الاشمئزاز على تصرفات مروان ويمنى، بينما ماري كانت تُدقدق النظر في ملامحهم، بعد ساعة خرجت تالا وهي تقول:

- السيد ديفيد شاهين في انتظاركم.

اتجه الأصدقاء إلى الغرفة، وهناك كان شاهين في انتظارهم.. بدون أي مقدمات ومباشرةً بدأ ديفيد شاهين حديثه قائلًا:

- حسنًا، لا يوجد لدينا متسع من الوقت، اليوم هو الأخير، وغدًا سأنتظر منكم قرارًا نهائيًا عما قدمته لكم.

سألته يمنى:

- ألم نتفق على فترة تصل لـ ٧ أيام حتى نتخذ القرار المناسب لنا؟

رد ديفيد شاهين:

- ثمة مستجدات حدثت تجبرنا على السرعة.

ضاحكًا قال مروان:

ـ يبدو إن رؤساءك منزعجون منك، لذلك بدأت بالضغط علينا.

دون أن يتحرك من مكانه رد ديفيد شاهين:

ـ هذا ما تعلمته أنت في خدمتك العسكرية، لسوء حظك رغم حفظك لقواعدها لكنك طردت منها، هنا لا يوجد تداول قرار بين صُناعه، هنا شخص واحد يصنع ويملك حق اتخاذ القرار، وهذا الشخص هو أنا.

ضحك مروان، ولم يبادل ديفيد شاهين الحوار.

سألت داليدا:

ـ ما الدوافع التي تجعلنا نوافق على عرضك؟

أجاب ديفيد:

ـ الانتقام.

ردت:

ـ إذًا أنت تعثرت بنا سواء صدفة أو بمساعدة مارتينا، وعرفت الكثير عن حياتنا الخاصة، وربطت كل الخطوط التي تجعلك تفاوض على رغبتنا في الانتقام، وتدفع الأموال وتُعرض حياتك وحياتنا جميعًا للخطر من أجل مساعدتنا؟

وهي تعبث بأناملها وبنبرةٍ أقرب للساخرة واصلت:

- لا أظن ذلك، إن دافعك أكبر من تقديم المساعدة لنا.

أُعجب ديفيد شاهين بذكاء داليدا، فابتسم وسألها:

- الانتقام رغبة مرنة مطاطية، يمكن لأي شخص أن ينتقم بطريقته الخاصة، البعض ينتقمون من الذين سرقوا أموالهم بالقتال، والبعض ينتقمون بالسرقة، والبعض الآخر ينتقمون بتجنبهم، والنجاح بعيدًا عنهم، وآخرون يهربون من رغبتهم في الانتقام، وآخرون يكتفون بالدعاء عليهم، رغبتنا في الانتقام رغبة إنسانية بحتة.

سألته داليدا مرة أخرى:

- من السهل عليك أن تشتري مرتزقة لينفذوا خططك أفضل من البدء مع أشخاصٍ حياتهم بائسة ومحطمة ولا يجيدون حرب العصابات.

هز ديفيد شاهين رأسه قائلًا:

- بالطبع أملك ما يكفي من المال لشراء جيش كامل يحارب لتحقيق رغبتي في الانتقام، لكن إنّ الذين يحركهم المال يكفون عن القتال فور الحصول عليه، المشاعر الإنسانية لا تكتفي، أخطر عدو تحاربه هو الذي يؤمن بفكرة، الأفكار مضادة للرصاص.

قال مروان:

ـ أشعر إنني في اجتماع لحركة شيوعية، على أي حال سيد ديفيد شاهين لا أرىٰ نفسي الشخص المناسب لخدمة أفكاركم، في المعارك لا قيمة لهزيمة عدوك عسكريًا إن لم تحصد غنائم أخرى، أقصد الهدف الأساسي من المعركة، لكن ما تعرضه علينا مجرد مزحة، نبدأ في هذه التجربة لمجرد إرضاء مشاعر إنسانية.. هراء!

رد شاهين:

ـ وهذا بالضبط سبب اجتماعي بكم اليوم، لأن الانتقام رغبة مطاطة فالعائد من الفعل نفسه يمكننا التفاوض عليه، لنضرب مثالًا على داليدا، حال وافقت داليدا يمكننا أن نضع عمها في قائمة أهدافنا الانتقامية، وما سنحصده منه هو ملك لنا جميعًا، لكن توزع المكاسب حسب الأدوار، وبالطبع النصيب الأقل لمن سننتقم لأجله.

ـ وإن وافقت ولم أرغب في الانتقام من أحد؟

ـ بكل تأكيد سيكون لك حصة في كل عملية يا مروان.

تساءلت يمنى:

ـ ماذا لو عُرض علينا أن ننفذ عملية لمصلحة مجموعة من الفاسدين؟

ـ في النهاية القرار لنا.

هنا اعترضت يمنى قائلة:

- اختلاف الأديان والجنسيات لا يضمن اتفاقنا على قرارٍ واحد، أنت إيطالي لن تهتم إن نفذت عملية لمصلحة مجموعة من الإرهابيين في مصر على سبيل المثال.

ضحك ديفيد:

- أتفق معكِ، لكنني لم أختركم عشوائيًا، لكل منكم مبدأ، ونحن لا نجردكم من مبادئكم، على العكس، دعيني أقول لك إن هذه المجموعة لن تلوث يديها بالدماء، بل سيكون لكل منكم دور في اختصاصه حسب مبادئه وإمكانياته أيضًا، أما عن تنفيذ العمليات نفسها سيقوم بها رجال متمكنون في هذا الوسط، بمواصفات خاصة جدًّا، دورنا إشرافي وخططي أكثر من كونه تنفيذي.

- الإشراف والقيادة تساوي المشاركة والتنفيذ.

رد ديفيد:

- بالتأكيد، لذلك سنكون حريصين جدًّا في اختيار رجالنا، كما أنا حريص على اختياركم.

قال ياسين:

- مواصفات خاصة، لا أفهم ما تقصده؟

ردت ماري بعدما أذن لها شاهين:

- ما يقصده السيد ديفيد شاهين إن حتى المقاتلين سيتم اختيارهم حسب رغباتهم، وحالاتهم النفسية، هذا المعيار الأول.

قاطعتها داليدا:

- ستجعلون المرضى النفسيين يخدمون رغبتكم.. هذه رغبة شنيعة!
- لم أقصد هذا، صحيح كلنا مرضى نفسيين، لكن يحاول البعض في الكتب والروايات تصوير جميع المرضى النفسيين على أنهم ملائكة لا يُخطئون، يتغنًّى بمأساتهم، ويتحدث بحريةٍ عن معاناتهم دون أن يصور للقارئ والمشاهد الجانب السيء منهم، فتجد تعاطف كبير من العامة لكل مريض نفسي وهذا خطأ جسيم، المريض النفسي ليس دائمًا الطرف المجني عليه، أغلب الوقت يكون هو الجاني، هو القاتل والفاسد والظالم، المريض النفسي لا يعني أنه ملاك لا يُخطئ، فأغلب الوقت يكون أكثر وأشد خطورة، أكثر خبثًا ومكرًا من إبليس.

حال الانسياق لرغبتهم الشخصية، أو التعثر بمجموعة أشخاص يعيدون بناءه نفسيًا لمصالحهم، ومن هنا يمكننا القول إن أغلب رجال المافيا، والفاسدين،

والمغتصبين، والقتلة، والإرهابيين، والعنصريين في البداية كانوا مرضى نفسانيين تعثروا بقادة هؤلاء.

ردت يمنى:

ـ إذًا، نحن لن نختلف عنهم.

نافية قالت ماري:

ـ على العكس، نحن سنستخدمهم لتحقيق رغباتهم.

ـ كل شخصٍ يريد منك أن تحقق رغباته يقول إن رغبته هي تحقيقٌ رغبتك.

مؤكدة لكلامها قالت ماري:

ـ صحيح، لذلك نحن لا نزرع أفكارًا بداخل رؤوسكم، نحن نستخدم أفكاركم ومبادئكم، حتى المنضمين لنا سيكونون على نفس القدر من الذكاء والحنكة، والشخصية التي تسمح لهم باتخاذ قرارهم بكامل حريتهم.

ـ الأمثلة التي ذكرتيها اتخذوا قرارهم بكامل حريتهم؟

ـ لكنهم كانوا ضحية لأفكار أخرى دخيلة بين أفكارهم كالدين، السلطة، والنفوذ، نحن لا نستخدم هذا الأسلوب، نحن لن نخدم أحد من أجل المال، بل من أجل فكرته وأهدافه التي ترجع لمبادئنا وأفكارنا، والتي منها أن لا نسمح بفرض سلطة لشخصٍ على الآخر دون وجه حق، والأمر في النهاية يعودُ لنا، اسمعيني

يا داليدا، نحن شركاء الرغبة والهدف والمبدأ، أهدافنا سامية، رد فعل واعتبار على أفعال شوهتنا وأظهرت أسوأ ما فينا، فلماذا نتحمل كل هذا الخراب وحدنا؟ لنشاركه مع الذين تسببوا فيه.

تساءلت من جديد يمنى:

ـ وماذا عن الأيدلوجيات السياسية والعقائد الدينية؟

رد ديفيد شاهين:

ـ نحن لسنا حزبًا سياسيًّا أو جماعة دينية، ولن نعمل معهم، ولن ننساق وراء أي هدفٍ عقيدي أو سياسي.

سأل ياسين:

ـ وهل تملك عددًا كافيًا من المرضى النفسيين لتحقيق رغباتهم؟

ردت مارتينا:

ـ في إحدى الدول القريبة من إيطاليا هناك طبيب مصري مدير عام لإحدى المستشفيات النفسية الخاصة ويعمل معنا.

ساد صمت طويل في المكان قاطعه مروان:

ـ حسنًا، كما قلت، أنا لست الشخص المناسب لهذه المهمة.

رد ديفيد شاهين:

- لك حرية الاختيار، على أي حال ستنطلق طائرتكم غدًا صباحًا لتعودوا إلى مصر، وبعد أسبوعين سأنتظر منكم القرار النهائي.

تساءلت يمنى عن سبب العودة إلى مصر.

رد ديفيد شاهين:

- يا سيدة القانون، خروجكم من مصر كان بطريقةٍ شرعية، وفي حال بقائكم الآن بطريقة غير شرعية قد يكون هذا ـيومًا ماـ سببًا في القبض عليكم، لذا يجب عليكم العودة إلى مصر، ومن سينضم لنا سيعود إلى هنا بطريقتنا الخاصة.

انتهى الحوار، وخرج الأصدقاء تباعًا كلًا منهم إلى وجهته.

بعد أسبوعين سيطلبهم ديفيد شاهين بطريقته الخاصة ليعرف قرارهم النهائي قبل البدء في أولى العمليات، بعد أسبوعين قد يجتمع الأصدقاء للأبد في طريقٍ وحياة مختلفة أو قد يفترقون للأبد.

الفصل الخامس عشر

الإسكندرية.. أرض الميعاد

وسط سيلٍ من التساؤلات في رأس كلٍّ منهم هبطت الطائرة إلى مطار القاهرة الدولي، عودة مُبهمة من رحلةٍ قصيرة خلقت أفاقًا وعالمًا جديدًا ينتظر قرارهم ليتحول من فكرةٍ إلى واقع، عودة بمشاعر محطمة وبائسة إلى يابس يأكله الفقر والجوع وتحطيم الأحلام والسرقة، التساؤلات والاحتمالات، ولا أحد منهم يقف على أرضٍ صلبة ليتخذ قراره، أسبوعان هي المهلة التي سيقضونها في مصر، أسبوعان سيقضوهما في مواجهة حياتهم من جديد، لكن بنظرة مختلفة.

لا تلقِ باللوم على الواقع طالما أتيحت لك فرصة لتغييره، لا تشتكِ من قسوة الظالم طالما أتيحت لك فرصة لتتمرد على ظلمه، لا تبكِ على أطلال أحلامك المحطمة طالما قدمت لك الحياة فرصةً لتعيد بناءها وتشييدها من جديد، لا تعامل حيوانًا مفترسًا باللين وتظن إنه لن يأكلك، المبادئ يؤمن بها الفقراء، والتسامح صفة

الضعفاء، ما دُمت على الأرض لا تسمح لأحدٍ أن يسلبك حقك ويحطمك، ما دُمت تقوى على رد الاعتبار لا تتأخر؛ فمن أذاقك مرارة الهزيمة مرة سيفرض قوته عليك كلما شعر بالنقص، من سرق أحلامك مرة سيعتاد على سرقة أحلامك حتى تفقد قدرتك على التمني والحلم، نحن لسنا الجناة، نحن المجني عليهم، لكننا تمردنا هذه المرة على مفهوم المجني عليهم، نحن قررنا أن يكون للمجني عليه ردة فعل، تحويل هزائمه واضطراباته النفسية إلى قوة لا تُقهر، طاقة لا تفنى ضد الذين حطموا وعذبوا وجعلوا منا مرضى نفسيين، لماذا نتحمل عبء الحياة وحدنا بينما الذين شوهوا حياتنا يفكرون في رفاهيةٍ أكثر لحياتهم؟ يُجددون مشاعرهم بسحق مشاعرنا، يرفهون عن أنفسهم بأصوات بكائنا وصراخنا قهرًا وألمًا، ألا يتغنون دائمًا بكلمات العدل؟ فلنطبق العدل إذًا.

كل هذه الأفكار التي داعبت عقولهم وأصبحت تغازلهم وتراودهم، العودة إلى مصر بمشاعر وأفكار وميول مختلفة هي الفرصة الأخيرة لكل شخص؛ لـ (يمنى) فرصتها في الانتقام من عائلتها وفضح جرائمهم وتعويض كم الأضرار النفسية التي حدثت لها من خيانة زوجها لها مع أمها، لـ كم الأوامر التي خضعت وأُجبرت عليها، لـ ياسين الشاب المسكين، ومروان الذي فقد كل شيءٍ بعدما كان يملك الأرض وما عليها.

عاد كل منهم إلى عالمه على أمل اللقاء مرة أخرى بعد أسبوعين، في الإسكندرية قضى ياسين أيامه مع مروان، منزل الرجل العسكري مُنظمٌ دقيق في تفاصيله، مرت الأيام الأولى عادية، كان ياسين يكبت رغبته في العودة إلى منزله والاطمئنان على عائلته؛ صامتًا طوال الوقت، يغرق في نوم عميق، ثم يستيقظ باكيًا، لا يقترب من الطعام، يُدخن طوال الوقت بشراهة، مثل هذه الأشياء هي التي أثارت القلق والخوف في قلب مروان مما جعلته يطلب داليدا ويدعوها للغداء؛ عسى في وجودها يشعر ياسين بالراحة ويُفضفض لها عما يشعر به، لم تتردد داليدا في طلب مروان، ولم ترَ تصرف الرجل العسكري غريبًا، على العكس هي تؤمن إن الناس يتشابهون في أوجاعهم ومأساتهم مهما اختلفت طبيعة عملهم وميولهم وأفكارهم، رباط الحزن وحده ما كان يربط مروان بهذه المجموعة، على الرغم من عدوانيته وأفكاره المختلفة عنهم إلا إنه أُصيب بالاكتئاب، عانى مثلهما من الحياة ومواقفها، ونحن ننتمي لكل الذين يشبهوننا في المأساة، الحزن والاكتئاب.

رحب مروان وياسين بصديقتهما، تناولوا الغداء، وأعد مروان الشاي لضيوفه، ثم جلسوا في الشرفة في محاولةٍ للتخفيف من الحزن الذي لا يعرفونه في قلب صديقهم.

مازحًا قال مروان:

- ماذا دهاك يا رجل؟! منذ عودتنا وأنت لا تتحدث مع أحد، لا تمازحني بشعاراتك الشيوعية الثورية.

وهو يتصنع الابتسامة قال ياسين:

ـ داليدا، هل بإمكاني أن أسألك سؤالًا شخصيًا؟

وهو يحشو سيجارته بالحشيش هز مروان رأسه وقال:

ـ نحن أصدقاء، تحدث واسأل كيفما تشاء.

ضحكت داليدا وقالت:

ـ كما قال لك مروان، نحن أصدقاء، اسأل وتحدث كيفما تشاء.

بعد ثوانٍ سأل:

ـ كيف قضيت الفترة الأولى بعد رحيل فادي عنك؟

ساخرًا رد مروان:

ـ لننسَ ما قلته لك، نحن لسنا أصدقاء.

اختلست داليدا سيجارة من علبة ياسين، ثم قالت:

ـ الفترة الأولى بعد الفراق كالفترة الأولى بعد الاعتراف بالحب، على قدر اللذة والجمال يكمن التعب والمأساة، كل المشاعر الجميلة التي مرت على قلبك في البداية تتحول لسكاكين تنهش قلبك في النهاية، كل تنهيدة حبٍ تنطفأ فـ تتنهد تعبًا وحسرة، حين تبدأ في علاقةٍ عاطفية ترى العالم في عينيك ألطف وأجمل وأحن عليك من الجميع، تشعر بقوةٍ في قلبك تقودك لحياةٍ جميلة تمنيتها طويلًا، تلك القوة التي يمكنك من خلالها محاربة العالم فقط لتنعم بما أردت، لتنعم بدفء

العالم مع محبوبك، وحين تنتهي العلاقة تجد العالم أضيق من أن يتسع لقدميك، تشعر بهزيمةٍ غير مبررة من كل شيء حولك، كل خطوة محكوم عليها بالفشل والعجز قبل أن تبدأها، أنت مُستهلك ومحطم لا تقوى حتى على النهوض من فراشك، تخوض صراعات مع نفسك لا تنتهي، تساؤلات لا إجابة لها، أفكار وأمنيات تراودك بين الحين والآخر، هل حقًّا هذه النهاية التي كنا نستحقها، أم كان في علاقتنا شيء آخر يستحق الدفاع والمواصلة لأجله؟ ترى كل الوجوه باهتة، الألوان متشابهة باردة، كل الأحاديث مملة وسخيفة، وكل شيءٍ يُثيرك للغضب والسخط، لا شيء يعجبك، لا شيء يُثير انتباهك، لا شيء يجذبك للتحدث، أنت صامت وهادئ، بينما في قلبك تشعر بالغليان.

بدأ مفعول سيجارة الحشيش يداعب رأس مروان، ثم قال:

ـ اعذراني على التدخل في حديثكما، لكن دعني أحدثك أنا أيضًا عن نوعٍ آخر من الآلام تحدث لك في هذه الفترة، أثناء خدمتي العسكرية في سيناء اتصل بي أبي ليخبرني بوفاة أمي، وقتها وقبل أن أذهب للقائد وأرجو أن يسمح لي بإجازة علمت أنه قد صدر قرار بالخروج ومداهمة أحد الأوقار التي يحتمي بها الإرهابيين في سيناء، كنت في حالة انهيارٍ تام، ومع ذلك خرجت إلى

المداهمة، لن أحدثك عن قسوة أن تحارب وتصارع من أجل البقاء سواء لك أو لأصدقائك في الوقت الذي تشعر بالموت يعانق قلبك، كنت أقف في قلب المعركة، أتشبث وأصارع من أجل الحياة، والقلب ينزف دماءً على أمي، انتهت المداهمة ومعها مات صديقي الوحيد في الخدمة، عُدت للإسكندرية والقلب يتمزق ألمًا بين فراق أمي وصديقي الوحيد، كنت أواصل حياتي بشكلٍ طبيعي، لا أستوعب ما حدث معي، لا أستوعب فكرة إنني أقف في عزاء أمي، وبعده أقف في عزاء صديقي، لم أبكِ، لم تكن لدي طاقة للبقاء، كنت أريد الصراخ لكن كل أحبالي الصوتية كأنها مقطوعة وممزقة، كان علي الثبات ومواصلة الركض، عُدت للخدمة، ومعها استمر خطورة الوضع هناك، كنت أذهب لفراش صديقي، ثم أتذكر إنه لم يعد هناك، أتساءل لماذا لم تطمئن عليَّ أمي، ثم أتذكر إنها في مكانٍ آخر لن ألتقي بها على الأقل في هذه الفترة.

بعيدًا عن فلسفتكم وأفكاركم، لكن دعاني أقول لكما إننا نحن معشر الرجال لا نملك رفاهية الانهيار مثلما تملكها النساء، لا نملك الوقت للبكاء، العالم لا يحترم طقوس حزننا، لا يتوقف حين نبكي أو نصرخ، نحن مجبرون على تجاوز كل شيءٍ لأن الحياة لن تنتظرنا،

نحن مجبرون على تجاوز كل شيءٍ لأننا من نمد الآخرين بالقوة والثبات، نحن مجبرون على تجاوز كل شيءٍ لأن ثمة أوامر وقواعد في الحياة لن تسمح لنا بالبكاء أو الانهيار، أنت يا ياسين كم مرة تمردت على الفقر ومع ذلك لم تقدر على الانتحار؟ كم رجلٍ تعرفه يواصل عمله كل يوم بينما قلبه ينزف من فقدانه لأحد أحبائه؟ كم شابٍ الْتقيت به يعمل في المصانع والشركات طوال اليوم بينما في حياته ثمة أشياءٍ تُعذبه وتُؤلمه لا يقوى على الصمود أمامها، لكنه مجبر على العمل لأن ثمة التزامات مادية واجتماعية في العالم أكبر وأهم من أن تتوقف عندها الحياة لمجرد إن قلبك مُحطم؟ مسؤوليتنا تجاه من حولنا تُجبرنا على الثبات والسخرية من أوجاعنا، نحن نسخر من فلسفة الأدباء الكئيبة، وكلمات الشعراء عن الحنين والاشتياق، وأغاني الحزن والفقدان، نسخر من كل شابٍ يتحدث ويصف المعاناة لنا، بل نهاجمه أحيانًا ونتهمه بالضعف والعجز، نسخر لأنهم يشبهوننا، يعرون حقيقتنا، ويزيحون قناع القوة والثبات عنا، حاشا لله أن نكون قساة القلوب، لكن نحن معشر الرجال اعتدنا دائمًا أن نظهر أمام الناس في كامل قوتنا وثباتنا، لأننا كما قلت من قبل: «لا نملك رفاهية الانهيار».

للمرة الأول يتحدث مروان بهذه اللكنة رغم سخريته الدائمة في كلماته، لكن ليس كل السخرية تعني إن الشخص لا يتألم أحيانًا، تكمن المعاناة في الضحك، في استقبال كل الخيبات والصدمات بسخريةٍ ولا مبالاة، يحول من شظايا الحزن المتناثرة في قلبه فقاعاتٍ يلهو بها المهرج لإسعاد المشاهدين.

رد ياسين في محاولةٍ للتهوين بالسخرية، ولو جزء بسيط مما يشعر به مروان:

ـ تتحدث كأنك قضيت أيامك وفيًا لحبيبتك، أنا لم أجد في خزانتك إلا ملابس داخلية نسائية يا رجل.

ردت داليدا:

ـ لقد صام عن كل النساء حتى الأربعين امرأة اللائي تعثر بهن.

ضحك مروان:

ـ لعلمكما أنتما لا تعرفان السبب الحقيقي الذي أنهى علاقتي بـ ماريان، لقد كنت أعلم إن ثمة عقبات تنتظرنا، وكنت مُستعدًا لها، اختلاف الأديان كان اسم قضيتنا الظاهري، لكن الحقيقة كانت تختلف، لم تكن عائلة ماريان تعارض فكرة زواجنا من البداية، على العكس لقد أحبني والدها، واعتبرني أحد أبنائه، وساعدني كثيرًا في توفير طلبات الزواج، كل الأجواء كانت هادئة ومناسبة لإعلان زواجنا، الأمور كانت

تسير بشكلٍ طبيعي وهادئ، وعلاقتي بعائلتها كانت مستقرة، عدا ابن خالتها «مهنى»، في بداية علاقتنا عرفت أنه تقدم لخطبتها مرات عديدة لكنها لم توافق، ماريان رقيقة، لن تقبل ولن تطيق الحياة مع رجلٍ لا تحبه، وأخبرته إنها لا تراه مناسبًا لها، ظل يبحثُ عن أسباب رفضه حتى علم بأمر علاقتنا، على الفور ذهب لأبيها ليخبره بأمر علاقتنا، فصدمه بمعرفته لها، وأنه لن يقف أمام رغبة ابنته الوحيدة، بدأت بعض المضايقات السخيفة من «مهنى»، حاول إثارة الفتنة في الكنيسة، حاول شحن الرأي العام المسيحي ضد القس الذي وافق على زواج ابنته من شابٍ مُسلم، وحين فشل استعان بخالته، وهنا تحول الصراع ما بين القس والأصوات المعادية المعارضة لزواجنا في المجتمع المسيحي الخارجي إلى صراعٍ داخلي ما بين الأم وابن أختها ضد زوجها وابنتها، نجح الولد في إثارة المتاعب لـ ماريان وأبيها، تحول أمر علاقتنا لأزمةٍ لا تنتهي.

أتذكر وفي أحد أيام ديسمبر وقبل أعياد الميلاد فوجئت بنقل مكان خدمتي من الكنيسة التي يرأسها ويديرها والد ماريان لأحد كنائس القاهرة، لم أفهم سر هذا القرار، راودني الشك في كل من حولي عدا «مهنى»، صحيح هو رجل له ثقله في الدولة، لكن من

الصعب عليه التحكم في مثل هذه التنقلات، في نهاية الأمر لم أعترض، وانتقلت إلى القاهرة بالفعل، في هذه الفترة بدأت علاقتي بـ ماريان تتوتر نوعًا ما، أنا رجل دائم التصادم بالواقع، أحب الهدوء، فأنا أقضي أيامي دائمًا في الضجيج، أحب أن لا تتحول مشاكلنا لمحور حديث العلاقة، أحب العيش بسلام، فأنا أقضي ساعات في حروبٍ متواصلة مع الحياة، لكن مع توتر العلاقة لم أتحمل حديث ماريان الدائم عن المشاكل والتعثرات التي تواجهنا، حاولت أن أُعبر لها عن شعوري بالملل من تكرار هذه الأحاديث، حاولت أن أوضح لها إنني لن أتحمل ولن أطيق كل هذا الضغط المستمر، لكن دون جدوى، قررت مواجهتها أخيرًا والتقينا.

عبرت لها عما في صدري، الضيق في صدري من تكرار أحاديث لا تنتهي عن المشاكل والأزمات التي تنتظرنا، لم تعد بداخلي طاقة كافية لتحمل مخاوفها واضطراباتها.

لم أنسَ يومها ما قالته، استقبلت كل كلماتي في هدوءٍ تام، ثم قالت: أنا أعرف إنني أسبب لك الكثير من المتاعب، وإن عقلك امتلأ بالحديث عما نواجهه، حتى قلبك استُهلك في طمأنينة قلبي، لكن أنا لا أملك في الدنيا أحدًا سواك أشكو له من قسوة الأيام، أعرف إنك تعبت، وفتاة مثلي من الصعب على أحدٍ تحملها، أعرف إنني استهلكت طاقتك في الكثير من

الأشياء التي لا تخصك، في صراعات لم تكن طرفًا فيها، وأثقلت عليك بوجودي أثقالًا أخرى، لم أتمنَ أن أكون هذه الفتاة، تمنيت لو كنت أكثر قوة وطاقة على التحمل، لكن كما قلت عني من قبل أنا مرفَّهة، لست مثلك دائمة الالتحام بالواقع، قبل أن ألتقي بك كانت أكبر مشاكلي أن أحصل على منحةٍ تعليمية إلى باريس أو أُرضي والدي فيسمح لي بالتسوق في أسواق ميلانو، قبل أن ألتقي بك كانت أكبر مشاكلي لا تتعدى عالمي البسيط، لا أتهمك بإنك أفسدت عالمي، لكنني أوضح لك إن عالمي قبل الحب كان بسيطًا للغاية، أُقدر محاولاتك للحفاظ على هذا العالم، وإن مشاكلنا دائمًا كانت عن طريقي، أشعر بالأسف لك، هذا يحدث رغمًا عني، الأهم عندي راحتك، سأبذل كل ما في وسعي لأُغير هذه الصفات التي لا تعجبك، الأهم عندي ألا نفترق، قل إننا لن نفترق مهما يحدث.

ردت داليدا:

ـ أسمع صوتها المكسور، وأتخيل ملامحها وجسدها يرتجف وهي تقول لك هذه الكلمات.. اللعنة على كل الرجال!

أشعل ياسين سيجارته، ثم غدى في ذكرياته مع رقية، بينما واصل مروان:

- لم أحب هذه اللكنة في كلمات ماريان، كانت طبيعتي أكثر حدة وعنفًا منها، ولم أحب أن أراها تتحدث بهذا الضعف، عاتبتها على طريقتها، فما كان عليها إلا البكاء.. لقد بكت لأنها عجزت عن استيعاب الموقف.

رويدًا رويدًا بدأ يتغير مسار علاقتنا، تغيرت كثيرًا، أصبحت أكثر هدوءًا معي، حتى غيرتها الجنونية لم تعد كذلك، لم تعد تغار وتفتعل المشاكل من كثرة النساء حولي، كانت تنظر لهن وتبتسم، بعدما كانت تُثار غضبًا منهن، لم تعد تخبرني عن تفاصيل يومها، بل أصبحت تميل أكثر للصمت، تكتفي بأبسط الكلمات الباردة، تكتفي برسالةٍ واحدة في اليوم بعدما كنا نتحدث طوال اليوم، حين أعاتبها عن شيءٍ ما أزعجني في تصرفاتها تتجنب سريعًا المناقشات، تعتذر حتى قبل بداية الحوار، لم تعد تسألني أسئلتها اليومية المعتادة عن تفاصيل يومي، حين أغيب ومن ثمَّ أعود لها لا تناقشني عن أسباب الغياب، لا تخبرني عن مدى اشتياقها لي، أو تخبرني عن الأشياء والمواقف التي حدثت في غيابي، لم تعد تشاركني قراراتي المصيرية، لا تسألني عنها، لا تطلب حتى مشاركتي لها، بل تبتسم وتصمت، تحولت لفتاةٍ باردة لا تهتم ولا تكترث لأي شيء، لا تعاتب لا تتناقش، لا تجادل، هل تفهم ما أقصده؟ أصبحت أتعامل مع فتاة متجمدة المشاعر.

قالت داليدا:

- تصرف طبيعي بعد وقاحتك معها! النساء بطبيعتهن ثرثارات، لا يمللن من مشاركة تفاصيل يومهن مع أحبائِهن، مبادلة المشاعر والكلمات اللطيفة، المرأة في الحب لا تمل أبدًا من التعبير عن مشاعرها، يحببن الاهتمام بهن، ويُحببن من يهتم ويسألهن عن تفاصيل يومهن، ويزعجهن الغياب الطويل.

المرأة في الحب لا تمل، لا تصمت، لكن حين تتحول معك لامرأةٍ باردة صامتة، لا تهتم لأمرك، لا تسألك عن تفاصيل يومك، لا تشاركك تفاصيلها أو تحكي لك عن الأشياء التي تزعجها، فاعلم أن نهايتكما قد اقتربت، لأنها وببساطة استهلكت طاقتها، ولم تعد تستطيع تحمل المزيد، حين تصمت المرأة اعلم أنها تعبت، وإن كل شيءٍ بداخلها قد انتهى.

عارضها ياسين:

- ومن أعطى لها حق تقرير مصير النهاية، ألسنا طرفًا في العلاقة؟

ردت داليدا وهي غاضبة:

- ومن أعطى لكم الحق لهدم كل شيءٍ قبل النهاية؟ ومن الذي مهد الطريق للنساء حتى يصلن لهذه المرحلة؟ لماذا ينبغي علينا دائمًا نحن أن نصبر ونصمت ونحافظ

على مسار العلاقة؟ لماذا على النساء دائمًا تحمل سخافات الرجال؟ لماذا نحن دائمًا الطرف الذي عليه احتواء الرجل والصبر عليه؟ تقول لها تعبت من غيرتك فتتوقف عن الغيرة فتعاتبتها وتتهمها بالبرود، تحدثها عن مللك من أحاديثها اليومية، وحين تصمت تتهمها بالملل لأنها لم تعد تتحدث معك، تعاتبها على مشاعرها الفياضة، لكن حين تتوقف تتهمها بالجفاء، ثم يقولون نحن النساء «إله النكد»! لماذا يفتعل الناس مبرارات للرجال حين يرحلون عن زوجاتهم، ويصبح اللوم الوحيد علينا نحن؟ لماذا يلقون اللوم علينا حين يخون الزوج ويعلقون لنا المشانق حين نخون نحن؟ أنا لا أبرر الخطأ، لكنني أتساءل هل المشكلة في جنس الفاعل أم الفعل نفسه؟ لو كان هذا التغير الذي حدث لمريان قد حدث لك أنت لقال ياسين إن هذا التصرف طبيعي ومنطقي، لكن لأن التغيير الذي حدث لها كونها أنثى هنا أصبحت أنانية وضعيفة، لأنها اختارت أن تكون النسخة التي أرادها حبيبها المسكين الذي يشعر بالضيق والملل والتعب من تصرفاتها.

رد ياسين:

ـ كفاكِ قراءة لكتب المدافعات عن حقوق المرآة.

ردت داليدا:

- الآن أصبحت فيمنيست لأنني أُحكِّم المنطق في تصرفات الطرفين! على أي حال لا تقلق أنا مع فناء البشرية بشكلٍ عام.

أشعل مروان سيجارته الثانية المحشوة بالحشيش، وأكمل حديثه غير مبالٍ بصراعهما:

- استمر الصراع بين ماريان ووالدها ضد الكنيسة وعائلتها، حتى أُصدر قرارًا مِن الكنيسة بعزل والدها من إدارة الكنيسة، انفجرت الأزمة واتفق والدها مع عائلتها عليها، اتفقوا وأجمعوا إن علاقتنا لن تكتمل، فجأة أصبحتْ تقاوم كل الأطراف من أجل استمرار علاقتنا، فوجئت أنها تقاومني أنا أيضًا.

كان قرار عزل والدها بمثابة الحجر الأول في نهاية علاقتنا، استمر الوضع حتى أُصدر قرار فصلي عن العمل بعد اتهامي بإثارة الفتنة في المجتمع، تهمة مُلفقة غبية لا يحق لي الاعتراض أو الاستئناف عليها.

فجأة فقدت عملي، وفجأة أصبحت علاقتي بـ ماريان قاب قوسين أو أدنى من النهاية، كنت مطالبًا بأشياءٍ لا أستطيع تنفيذها؛ مطالبًا بالود والطمأنينة والدعم والحب، وكنت لا أملك طاقةً إلا للصمت والانهيار في صمت، هي أيضًا كانت تحتاج لمن يدعمها ويساندها، كلانا كان يحتاج للآخر، وكلانا لم ينصت

جيدًا للآخر، ونتيجةً لهذا وفي أحد الأيام حدث شجار بيننا، كانت أعصابي مُتعبة، ولم أطِق تصرفاتها، بدأتُ التصرف بعدوانيةٍ بين كلماتي لكنها لم تتحمل، فرمتني بكلماتٍ سامة، أهانت وجرحت كرامتي، لم تكتفِ بهذا، بل طلبت ابن خالتها في الهاتف، وتحدثت معه بطريقةٍ يغلب عليها الدلال والدلع، الأمر الذي لم أتحمله؛ كانت كرامتي ومشاعري أكبر من أن تتحملا كل هذا القدر من الإهانة، أمسكت يديها بقوة، الأمر الذي دفعها لصفعي بقوة، هنا تحول الأمر لصراع، عنفتها بشدة فبادلتني الضرب وسط الشارع، تمالكت نفسي بعد أن التف الناس حولنا، لا أحد يفهم ما حدث، حتى أنا لا أفهم كيف لهذه الفتاة التي ظننت إنها أرق من أن تنطق بكلمة مؤذية أن تصبح بهذه الشراسة، لا أصدق ما حدث، لا أستوعب أن تتحول فتاة في قمة الهدوء إلى فتاةٍ عدوانية لهذا الحد، هل ألقي اللوم على عائلتها التي شوهت طفولتها وجعلتها أشبه بامرأة في الخمسين، أم أعاتب نفسي لأنني لم أستوعبها، أم أعاتب نفسي لأنني كنت لينًا معها في وقتٍ كان ينبغي عليَّ أن أكون أكثر صرامة وحدة معها؟ المسألة عندي كانت أكبر من مجرد خطأ أو نتيجة لتحمل ضغوطات لا تنتهي، أنا رجل ولدت في بيئة للرجل قيمة وهيبة، ولدت وللرجل كل الاحترام

والتقدير، وما أدارك بقسوة أن يمس الرجل في كرامته، في هذه الفترة كنت أخجل من النظر لنفسي في المرآة، كنت لا أطيق سماع صوتي، كنت أبصق على صوري، أشعر بالعُهر وكأنني مومس أقضي أيامي في أحضان الغرباء، أتخيل نفسي أرتدي ملابس داخلية نسائية، أتخيل نفسي بين أحضان الرجال يعاشرونني، أخجل من نفسي وأتبرأ منها، هل تفهم ما كنت أعاني منه؟ هل تفهم شعور رجل فقد الثقة في ذكوريته؟

أبسط الكلمات أراها عدائية تجاهي فأنهال على صاحبها بالسب واللعن، كنت أخجل من نفسي، أخجل من النظر لصورة أبي، ذاك الذي أنشأنا على الهيبة والكرامة فجأة أصبح ابنه الوحيد مُدنس الكرامة، لم أتحمل حتى أبسط الكلمات، أصوات أنفاسي تزعجني، أريد التخلص مني، كل شيء حولي يثيرني للبكاء، للغضب، وللسخط على نفسي، أشعر بالعهر، لا أجرؤ على النظر في عيون الناس، الهزيمة والسحق، أشعر إنني فاقد لهويتي ولذكوريتي كرجل، قادتني هذه المرحلة إلى الاكتئاب، حاولت التخلص مني، لكنني فشلت في الانتحار، السخط عليّ أكبر من أن أتحمله، كرهي لنفسي ولذاتي، كنت أتمنى لو كان باستطاعتي أن أمزق نفسي إربًا إربًا، أتمنى لو كان باستطاعتي أن أخنق نفسي بحبل شائق حتى أنعدم تمامًا، أريد قطع

شرابيني، وأريد أن أراني والموت يعانقني، حين أموت ارموا جثتي في صناديق القمامة، اجعلوها وجبة دسمة للكلاب والضباع، هذا ما أستحقه، هذا ما أستحقه، فلقد عشت حياتي مُدنسًا فاقدًا لهويتي.

حاولت الانتحار لكنني فشلت، ذهبت لطبيب نفسي، وقضيت فترة في إحدى المصحات النفسية، لكن لم أستطع تجاوز هذه الفترة حتى الآن، تسألني يا داليدا لماذا أعاشر كل امرأة ألتقي بها؟

لأنني وببساطة ما زلت أبحث عن نفسي، لأنني أشعر بالنقص تجاه نفسي، أريد أن أثبت لنفسي بأنني شخص كامل في كل شيء، بأنني ما زلت رجلًا ناجحًا في عملي رغم فقداني له، بأنني ما زلت رجلًا في حياتي؛ رجلًا بالمعنى الشرقي المعروف، حتى في الجنس أريد أن أقول لنفسي ما زلت أقوى على ممارسته، أتلذذ وأنا أرى النساء يشتكين من قوتي معهن، يتلذذن بصلابتي ومهارتي في إمتاعهن، بعض العلاقات حين تنتهي تولد بداخلنا صفات جديدة أشد قذارة وقبحًا، وهذا بالضبط ما حدث معي.

استأذن مروان وذهب إلى المرحاض، وهناك وقف أمام مرآته وبدأ يتأمل ملامحه.

لماذا لم تحكِ القصة يا مروان؟

ظل يسأل ويتهرب، ويسأل ويتهرب من الإجابة، الناس لن يصدقوا أن تنتهي معركة الطرف الخاسر فيها لم يقاوم، لن يصدقوا أن تنهزم في حرب لم تخُضها من الأساس، بل كان دفاعك الوحيد عن الطرف الذي تعمد إيذاءك والانقلاب عليك، ولأن الحقيقة تكمن في التفاصيل، لم يحكِ مروان عن التفاصيل التي حدثت بينهم، لم يخبرهم إنه لم يتركها وحدها تواجه صراعها مع أقاربها، بل وقف بجوارها، لم يبخل عليها بالحب والود والمال، كان دائمًا بجوارها، وتحمل سخافات وتصرفات عدوانية منها، لكنه تحمل حتى لا يتركها وحدها في مأساتها، ولأن الحقيقة تكمن في التفاصيل لم يتحدث مروان عن كم المرات التي تجاوز في حق كبريائه وكرامته من أجل استمرار المسيرة بينهما، لم يتحدث عن القسوة والجفاء الذي كان يجنيهما من معاملتها، تحدياته لكل المحيطين بهما حينما قالوا أنها لن تُقدر ما تقدمه لها، وأن مسألة انقلابها عليك باتت أقرب مما يظن، لم يستجب لكل الذين حذروه منها، بما فيهم أقاربها التي تحاربهم، أراد مروان أن يظهر أمام أصدقائهِ البطل الذي لا يقهر، طبيعته العسكرية تلك التي ترفض الاعتراف بالهزيمة، وبكبرياء رجلٍ شرقي أبى أن يقول لقد هُزمت من التي دافعت عنها.

عاد مروان من الحمام مازحًا لياسين:

ـ جاءت داليدا لتستدرجك للتحدث فاستدرجتني أنا.

رد ياسين وهو ينفث دخان سيجارته:

ـ لا عليك، لقد كُتب الشقاء علينا جميعًا.

من وادٍ آخر عادت داليدا لتقول:

ـ تعرفون! حين فكرت فيما حدث معنا في إيطاليا، أجد إن الرجل هناك لم يُخطئ في اختيارنا، في كل قصة لكلٍّ منا دافع قوي للانتقام، اضطراب نفسي يمكن تسخيره لمصلحة أي شخص، تعرف يا مروان أنت أفضل منا جميعًا، لقد عُرضت على طبيب نفسي وتم تشخيص حالتك وحجزك في مستشفى نفسية، بينما نحن لم نُعرض، أنت تعرف حقيقة مرضك وتعبك، أما نحن فلا، تعرف علتك ودائك ومأساتك حتى لو لم تتعافَ الآن، فالاعتراف والتعرف على الداء هو بداية لإيجاد الدواء، أما نحن لا نعرف داءنا ودواءنا، تائهون نتخبط ونتشتت، نقع فريسة للحزن وللتعب، نتشبث بأشخاصٍ نظن إنهم علاجنا من اضطراباتنا ومخاوفنا التي نشعر بها، نظن إنهم سيملؤون فراغات قلوبنا، ومع مرور الأيام نكتشف إن وجودهم مجرد مُسكن وونس كاذب لا يملأ فراغاتنا، نظن إنهم سيطمئنون قلوبنا فتضربنا مخاوفنا مع كل تهديدٍ بالرحيل أو عتابٍ قاسٍ، نخشى الاستمرار ونخشى الرحيل، ترتجف قلوبنا كل يوم دون أن يشعر بها أحد، كم مرة ظننت إنك وجدت الشخص المناسب لقلبك وبدأت تصنع في مخيلتك حياة جديدة جميلة وهادئة،

ثم كشف الوقت لك عن سذاجة خيالك وأمنياتك، كم مرة تعلقت بشخص ظننت إنه مأمنك ووطنك الذي لا يخون، فكانت طعنتك، والسهم المسموم في قلبك كان هو مُطلقه، السجان يحب سجانه، وكلنا مساجين في المرض، طوعًا اختبأنا في أوقارنا ونسينا إننا نتخبئ في سجون معتقة، احتمينا بها وصدقنا أنها تحمينا من العالم حتى فقدنا القدرة على العيش بالخارج، وهذا ما يفعله ديفيد شاهين بالضبط؛ يسعى جاهدًا لخروج كل منا بالطريقة التي تليق به.

استأذنت داليدا بعد أن ودَّعت أصدقاءها، ثم انطلقت في جولة سريعة إلى أنحاء الإسكندرية، محملة بذكرياتٍ مع فادي رفضت أن تواجهها في عروس البحر، ليست وحدها داليدا التي تربطها ذكريات مع الإسكندرية.

يقولون حين أراد كوبيد إله الحب أن يسكن إحدى مدن الشرق اختار الإسكندرية موطنًا له، في هذه البلدة ثمة علاقة غريبة بينها وبين مواطنيها وضيوفها، ما إن تهبط قدميك على أرضها حتى تقع في غرامها الأبدي، الفاتنة التي لا تمل ولا تشبع من كلمات الثناء والجمال، فُتن بها أعظم شعراء التاريخ الحديث، غنى لها أجمل الأصوات الغنائية على مدار التاريخ، كتب لها أعظم الأدباء، وتجمل في شوارعها وهوائها الدراويش، الإسكندرية أرض الحب والجمال التي تتسع لكل عشاق العالم ببساطتها وسحرها، كانت

أيضًا فاتنة لداليدا وفادي، عليها كانا يهربان من ضجيج العالم، وعلى شواطئها توعدا بالبقاء والتضحيات، ولكن حتى مع داليدا لم تكن الإسكندرية مدينة العشق والحب فقط، بل احتضنتها في هزيمتها وانتصارها الأول.

توقفت داليدا بسيارتها أمام إحدى الاستراحات في الطريق الصحراوي، طلبت كوبًا من النسكافيه لعله يُهدئ من سيل الأفكار والذكريات في رأسها لكن دون جدوى، على العكس كانت قد وصلت لذروتها، فتذكرت ليلة الحكم في قضيتها، بعد أن رحلت عن فادي ذهبت لوالدة ياسين، كانت في أمس الحاجة لصوت عقلٍ راشد ينصحها ويدلها على الطريق الصحيح، سألتها داليدا:

- ماذا لو اقترب من ابنتك رجل أوهمها بالحب، ثم اكتشفت إنه يُشفق عليها؟

ابتسمت العجوز، ثم قالت:

- ابنتي ليست ضعيفة ليُشفق أحد عليها.. ولو حدث لأجبرتها أن تبتعد عنه للأبد.

ردت داليدا:

- حتى لو كانت بينهما أشياء تربطهما، وطريق واحد يجمعهما؟

لم تُغير العجوز ردها، بل قالت:

- لو كان يربطها به السماء والأرض، نحن يا ابنتي لا نملك في الأرض إلا عزتنا وكرامتنا، كل شيءٍ في

هذه الدنيا يمكن تعويضه مهما كان ثمنه وقيمته، إلا الكبرياء والعزة، صحيح بعض الناس يؤمنون إن الشفقة نوع من أنواع الحب، لكن الأمر يختلف حين يصبح الحب نوعًا من أنواع الشفقة، ما أقصده هو أن يحبك أحدهم بدافع الشفقة يعني أنكِ ضعيفة ومهزومة؛ هو لم يحبك لجمالك أو لمالك أو لنسبك، بل أشفق عليك كما يشفق الأغنياء على الفقراء، أشفق عليك كما نشفق على أطفال الشوارع ونعطيهم من طعامنا لقمة صغيرة تُصبر معدتهم من الجوع، أشفق عليك كما نشفق على كل الذين لا يملكون سندًا وعونًا في الحياة، نشعر بالتعاطف معهم ونتمنى مساعدتهم، لكن في النهاية وبعد مرور هذه اللحظة نعود ونمارس حياتنا الطبيعية، الفرق إنهم يُشفقون بالأموال أو الدعم المادي الملموس، يواجهوننا بالحقيقة بل بالخداع أو المكر، أما هذا الرجل فقد أشفق عليها في نقطة ضعف أي إنسان على وجه الأرض، أشفق عليها وأوهمها بالحب، وليس أي حب، بل الحب الذي أوهم مُخيلتها بالزواج، بالحياة الأبدية السعيدة، أوهمها بكل المشاعر والأمنيات الجميلة الصادقة، تركها تتمنى وتحلم وتتخيل بينما هو يُشفق ويعطف عليها، هذا أخطر أنواع التعاطف والشفقة، لا أحد مهما كان قدره

ومهما كان مسلوبَ القوة والإرادة يستحق أن يُشفق عليه أحد بالحب الممزوج بأحلام الزواج السعيد، هذا الشعور لا يقبله أحد، حتى أشد الناس ضعفًا وتعاسة!

ردت داليدا:

- وأنتِ يا عجوزتي هل تحبينني أم تشفقين عليّ؟

اعتدلت العجوز في جلستها، ثم قالت وهي تضحك:

- نحن لا نوهم أحد بالحب يا داليدا، الفقراء مثلنا لا يملكون إلا الحب، كيف نعطي لمن لا يستحق؟ لقد أحببتك من اللحظة الأولى لأنك تشبهيننا كثيرًا، والحب يجمع الأرواح المتشابهة مهما اختلفت حياتهم وأفكارهم وعاداتهم، أنت تشبهيننا في كل شيء، لو كان الأمر بيدي لزوجتك من ياسين، لكن هذا تعيس الحظ سيزيدك بؤسًا وتعاسةً بأفكاره وقلة حيلته.

شعرت داليدا بالخجل، ابتسمت، ثم قبّلت رأسها ويديها ونامت، وفي صباح اليوم التالي ظلت كلمات العجوز تتردد في أذن داليدا وهي في طريقها للمحكمة، كانت محطمة تمامًا، لم تستجب لاتصالات يمنى أو ياسين، شككت في مشاعر كل الذين حولها، كل الذين يعاملونها بلطفٍ ومودة رفضت العودة إليهم أو مشاركتهم للحظات حياتها، شككت حتى في المارة الذين يبتسمون لها ابتسامات عابرة في الطريق، كانت تسمع صوتًا في رأسها يهمس ساخرًا: «يشفقون عليكِ يا داليدا، يشفقون عليكِ يا داليدا!»، صوت

كان يدفعها للجنون، تبكي وتصرخ في صمتٍ تام، تريد خلع رأسها عن جسدها، نزع قلبها وأطرافها، وفي لحظةٍ ما قررت التخلص من كل هذا، غيرت مسارها من المحكمة إلى الإسكندرية هربًا من هذا الضجيج، كبرياؤها كان أعز وأغنى من أن تفوز بقضية بمساعدة رجلٍ أشفق عليها، كبرياؤها عندها كان أهم من كل ثروات الدنيا، استرداد كرامتها المسلوبة كان أعظم من استرداد أموالها وحقوقها وشرفها، كان قرارًا صعبًا، لكنه الوحيد الذي يهون عليها هذا الشعور الدخيل عليها، أن تبدأ من الصفر في طريقٍ جديد أفضل من أن تصل لنهاية طريقٍ ساعدك فيه أشخاص يشفقون عليك، هذه عقليتها وأفكارها وشخصيتها القوية التي جعلتها تتنازل عن كل شيءٍ في سبيل كبريائها.

بدأت صفحة جديدة بعدما علمت برفض النظر في قضيتها، كانت هزيمة جديدة في قضيتها، لكنه الانتصار الأول لها في استرداد كرامتها، «بعض المعارك في خسرانها شرفًا من عاد من مثلها انهزم»، هكذا قال الشاعر «تميم البرغوثي»، وهكذا آمنت داليدا، قررت أن تنهزم في قضيتها من أجل الفوز بكرامتها، وللحديث بقية...



الباب الرابع

الفصل السادس عشر

«نقطة تحول»

رحلت داليدا وعاد مروان لمشاغله، بينما لا تزال الكلمات محبوسة في صدر ياسين، رغم محاولاته المستميتة للتحدث والتعبير عما يشعر به لم ينجح، ظلت الكلمات وتنهيدات الحزن والخيبة تأكل قلبه دون أن يشعر به أحد، سيقتلك هذا الصمت يا ياسين، ستظل صامتًا وصامتًا حتى تنفجر، فتصرخ صراخًا يوقظ مدينة بأكملها؛ صراخًا سيبتلع كل شيءٍ حولك، سيبتلعك أنت ولن يعود بإمكان أحدٍ إنقاذك، ستصبح رمادًا، أشلاء إنسان، سرب دخان، ستختفي تمامًا لأنك صامت، صامت تمامًا.

في رأسه كانت هناك تساؤلات وقرارات متضاربة، وهو يعلم إن حالته لا تسمح باتخاذ قرارٍ واحد حتى وإن كان صحيحًا، كان يقول دائمًا لرقية حين تشتد الصعاب عليه:

ـ أنا أعرف نفسي جيدًا، وهذه علة لو تعلمين، كل الأدباء والمفكرين الذين قرأت لهم يتحدثون عن روعة معرفة المرء بنفسه، لكن صدقيني يا رقية هذا هراء، إن علة المرء أن يعرف نفسه جيدًا، يعرف قوة تحمل قلبه للألم، ويعرف قوة تحمله للضغط والتعب، يميز المواقف التي تستدعي الحزن، ويميز اللحظات السعيدة ويبتهج لها، يرتب أوراقه قبل خوض معركة جديدة في الحياة، ويعلم جيدًا نقاط ضعفه، كل هذه الأشياء ظاهريًا تبدو رائعة وجميلة لكن هناك شيئًا آخر في غاية الخطورة، إن الحياة نفسها تهاجمك بفضولك البشري، وشخص مثلي فقد شغفه وفضوله بنفسه، لذلك حين تهاجمني الحياة هجومًا مباغتًا وأرى إنني لن أتحمله أنهزم أمامها قبل البدء في المعركة من الأساس، وهنا تكمن العلة التي أقصدها، الحياة لا تدهشني بمواقفها، على عكس ما أتوقع حدوثه يحدث، وهذا يحميني من الشعور بالخوف.

كانت رقية تبتسم من هذه الكلمات وتسخر:

ـ الفيلسوف الفقير سيموت وهو يحلل كل شيء حوله.. سيموت من فرط الإدراك والوعي.

ثم وبغضب أنثوي مفعم بالحب تسأله:

ـ لا شيء يخيفك إذًا؟

فيرد:

ـ بعض الأشياء نخاف عليها وليس منها، أخاف من الموت حين أشعر باقترابه من أمي، أخاف أن تتشرد أخواتي، وأن يحتجن لأشياءٍ أكبر من طاقتي ولا أستطيع تلبيتها لهن؛ فتدفعهنّ الحياة لطرقها الملتوية القذرة.

وهناك خوف آخر يا رُقية، خوف من أشياءٍ قادمة لا محاله، ربما هذا أشد وأصعب أنواع الخوف، أن تخاف من مصيرٍ أنت تعلم إنه قادم وسيحدث مهما طال لا محالة، هذا الخوف يجعلك ترتعد طوال الوقت كلما تذكرت النهاية التي تنتظرك، تحاول الهروب منها لكن بلا فائدة، أنت تعلم أن شيئًا ما سيهزمك ويحطمك وتنتظره، وإن ما يفصلك عنه مسأله وقت، لا تعلم لكنه حتمًا سيحدث، هذا الخوف يفسد كل اللحظات الجميلة، يسلبنا من لحظات سعادتنا، ويسرق منا شعور الطمأنينة، تعرفين يا رقية.. أنا أعلم إننا سنفترق، ومع ذلك أرتعد كلما لمحت لحظة فراقنا، أخشاها رغم إنني أنتظرها، أنا أتعذب يا رقية، أتعذب حين أراكِ أمامي ترسمين أيامنا بينما أنا أراكِ مع رجلٍ آخر أفضل مني، أتعذب حين تحاولين الاقتراب مني وتقدمين كل مشاعرك بينما أخطو أنا نحوك بحذر، تتهمينني

بالبرود، وأحيانًا الثقل، لكنك لا تفهمين أنني خائف، مهما ظهرت أمامك قويًا وصلبًا أجيد تقبل الأشياء المؤذية القاسية، لا تفهمين أنني أتألم؛ لأنني أعرف إن ما يجمعني بك لن يدوم أبدًا مهما حاولنا، أريد بقاءكِ لأطول فترة ممكنة، لكنني أتمنى لو أدركتِ حقيقة علاقتنا وأدركتِ إن بقاءها مستحيلًا.

تعرفين يا رقية لو كنت أجهل نفسي لصدقت كل أمنياتك في تحقيق مرادنا، لكنني أعرف نفسي وقوتي، وما أملكه الآن لن يحقق لنا ما نريده، طاقتي الآن لا تسع إلا لحزني وتعبي، قد استُهلكت وتحتاج لوقتٍ طويل، طويل جدًّا للعودة مرة أخرى من جديد حتى أقاتل لأجلك، أنا أعرف ما أفقده، وأعرف ما أحتاجه، وأعرف الوقت الذي أحتاجه للنهوض مرة أخرى، أنا أعرف نفسي، ألم أقل لكِ في البداية إن علة المرء أن يعرف نفسه جيدًا؟

أفاقه من شروده وذكرياته طرق مروان للباب:

- ستقضي هذا المساء في غرفتك، انهض يا رجل كفاك بؤسًا.

جذب مروان يد ياسين، واتجه إلى الصالة، ثم قدم لـه كأسًا من النبيذ:

- لا أنت ولا جدودك يقدرون على ثمن كأسٍ من هذه الزجاجة.

ضحك ياسين:

- وكأنك تعطيني مسكًا من الحرم.. الله لا يقدرنا على ثمنها أبدًا!

رد ساخرًا:

- الله حبيب الفقراء.

أعجب ياسين بالجملة القصيرة، فواصل وكأنه يرتجل عليها:

- الله حبيب الفقراء لأنهم لا يملكون حبيبًا غيره، الله حبيب الفقراء لأنه يشعر بهم حين لا يشعر بهم أحد، الله حبيب الفقراء لأنهم يهرولون له في مأساتهم.

يُشبع جوعهم ويمدهم بالقوة قبل أن يأكل الخواء معدتهم.. ويستنفد اليأس تشبثهم البسيط بالحياة.

الله حبيب الفقراء لأنه يختبر صبرهم وإيمانهم.. ولأن أكثر أهل الجنة من الصابرين الفقراء.

الله حبيب الفقراء لأنه نجاتهم ومنقذهم الوحيد.

لأنهم يعرفونه ويرونه في لحظات تعاستهم وتعبهم الطويلة.

يحبونه حبًا صادقًا رغم كل ما يدفعهم للتمرد عليه.

الله حبيب الفقراء لأنه ينقذهم من مواقف صعبة، يرزقهم في أشد كربهم، يهون عليهم في أشد لحظات ضيقهم، ويخفف عنهم أثقال الدنيا برسائله العابرة.

يحبونه حبًا صادقًا.

يحبونه رغم معاناتهم وفقرهم.

يحبونه ليس طمعًا في المال.

يحبونه ليس طمعًا في السلطة.

يحبونه ليس طمعًا إلا في الحب والقرب.

الله حبيب الفقراء.

صدقت يا صديقي.

صفق مروان لياسين:

ـ جميل جميل يا فقير.

أمسك مروان بهاتفه:

ـ لنرى فتيات الـ tik tok، في هذا البرنامج نساء يمكنهم إثارة شهوة رجلٍ في قبره، مراهقات يملكن أجسادًا مثيرة تثير لعابَ أجدعها رجل، يتراقصن أمام الكاميرات فتثور وتثور، وحتى لا تبقى شهوتك مكبوته، الكثيرات منهن متاحات للمتعة بمبلغٍ مقبول، ويا لحظ بعضهن لو تعثرن برجل خليجي! يتهافتن عليه بأجسادهن ومفاتنهن للفوز بأمواله سواء عبر الكاميرا أو الذهاب معه في المكان الذي يريده.. سوق متعة يا صديقي.

باشمئزازٍ تساءل ياسين:

- وأين أهالي هؤلاء المراهقات؟

وهو يضحك:

- يا رجل لا تستبعد أن يكون أهاليهم هم من يساعدونهن على هذا العمل.. أنت تعلم هذا أكثر مني.. هذا ما يفعله الجوع بالفقراء.. دعك من الدراما، هناك فتاة أتابعها منذ فترةٍ طويلة من القاهرة، آآاه يا صديقي لو رأيت نهديها وهي تتحرك أو لمساتها على مفاتنها، وقمصان نومها الساخنة، وحركاتها المثيرة، أحيانًا أشعر وكأنني سأدخل داخل الهاتف لأستمتع بها، مثيرة بشكل غير طبيعي، لقد اتفقت معها أن تأتي لنا غدًا في الصباح، هي لا زالت عذراء، سأكون أنا أول من يفوز ببكارتها، ما رأيك؟

أشعل ياسين سيجارته:

- لا لا، دعك من هذه الفكرة، استمتع أنت.

رد مروان:

- لن تدفع شيئًا، لا تقلق، لكن أنا من سيفتتح النفق.
- المسألة لا علاقة لها بالمال، لن أحب ممارسة الجنس في الحرام.

لم يرد مروان.

شعر ياسين بالحنين لرقية، فاستأذن من مروان واتجه لغرفته، كان مترددًا، يتساءل ويستعجب ما الذي جعله يرفض ممارسة الجنس مع فتاةٍ أخرى؟! هل لالتزامه بدينه ومبادئه كما يؤمن بتلقائية، أم لأنه أحب أن تكون هذه العلاقة مع حبيبته التي تمنى وانتظر من أجل هذه اللحظة طويلًا؟ كان يكذب، فالسبب الأول لم يكن الأقوى والأهم بالنسبة له، هو نفسه قاب قوسين أو أدنى من الموافقة على عرض ديفيد شاهين والبدأ في طريقٍ كل خطواته خطايا وذنوب، قد يصلِ به للقتل في أيةِ لحظة، أما بالنسبة للسبب الثاني فهو من رفض الخوض في طريق الزنا وممارسة الرزيلة مع فتاة الليل، إن للحب قدرة هائلة على تجنب الكثير من الذنوب والأخطاء، للوفاء لذة لا يعرفها الخائنون، وقد قرر ياسين أن يكون وفيًا مع رقية، لأنها وببساطة لا تستحق الخيانة، حتى وإن لم يعد لها وجود في حياته، فلا زالت ثابتة هنا في قلبه، إن فلسفة هذا الشاب غريبة، حين كانت تسأله رقية عن سبب وفائِه لها رغم كثرة الفاتنات حوله كان يقول لها:

- لست وفيًا وفاءً كاملًا لك يا رقُية، أنا رجل خائن، أحب أن أرى الأشياء الجميلة حولي، أحب مداعبة ودلال الفاتنات، وأحب تعويض شعوري بالحرمان من الحياة بتهافت الجميلات عليّ، لست وفيًا لكِ، ولا أُنكر أن ثمة مواقف كادت أن توقع بي في فخ الرزيلة، لكنني دائمًا وفي اللحظة الأخيرة أتعثر بشيءٍ ما، هذا الشيء

الذي يمنعني من ممارسة الجنس مع فتاةٍ أخرى حتى لو كنت على أتم استعدادٍ لبدأ ليلة ساخنة أو كانت في كامل نشوتها وإثارتها؛ أتراجع وأنسحب دون أن أعتذر، لأنني أتعثر بك، أقصد بقلبي، هذا الذي وحتى إن راودني شيطاني واقتربت منها يأبى أن يقول لها كلمات الحب، يرفض مزج الغزل والود في علاقته القذرة، يرفض أن يعيش مشاعر حميمية صادقة في لحظةٍ ساخنة عابرة لن تدوم ولن تترك أثرًا في حياته، هل تفهمين ما أقصده؟ إن قلبي يسعى ليظل طاهرًا نقيًا لك، لا يرضى أن تسكن عرشه فتاة أخرى، نرجسية ساحرٍ لا يملك في جُوبعته إلا قصائد عشقٍ يرفض أن يتلوها للجماهير التي لا تنتظر منه إلا السخرية والضحك، لست وفيًا لكِ قدر وفائي لمشاعري نحوك، أُقدر حبك، وأُقدر تضحياتك، لكنني أعرف أيضًا إن حبي هو أثمن وأغنى ما أملكه، ولقد أعطيته للفتاة التي تستحقه، أنا أثق في هذا جيدًا، قلبي وفيًا لك لأنه أحبك، ولأنك أمنيته الوحيدة في الحياة، لأنك أول من ارتجف لها واحتويتيه بين ذراعيك.

ـ لست وفيًا لك قدر وفائي لذكرياتنا معًا، ما زلت أتذكر يوم أخبرتك إنني أحبك، كنا في ديسمبر والأجواء باردة، تحبين فصل الشتاء وتقولين دائمًا عنه: «فصل

العشاق»، كانت الغيوم تُسيطر على السماء، بينما كانت ملامحك صافية وجميلة كعادتها، أخبرتك إنني أحبك فاحمَّر وجهك، ابتسمتِ وكأنك كنتِ تنتظرين هذه اللحظة منذ زمنٍ بعيد، ثم سرعان ما عقدتِ حاجبيك واتهمتيني بالوقاحة وأنت تتلعثمين، تتخبَّط الكلمات في فمك حين تخجلين، تشعرين بتوترٍ طفولي لا مثيل له يلين أعتق القلوب قسوة وجفاءً، رحلتي تتعثرين في الطريق، كنت تحاولين السيطرة على ضربات قلبك، أنا أعرفك وأعرف كيف يدق قلبك حين تشعرين بالسعادة أو الخجل، ظللت أراقبك وأنت تبتعدين عني، وأنا أتابعك وأبتسم، كان في وجودك سحر يجعل كل العالم حولك لا وجودك له، حضورك يطغى على كل الأشياء، فأيّ مجنونٍ ذاك الذي ينشغل عنك بالعالم؟ بل كنت وكأنك تسرقين الهواء والألوان والحياة، كنت تملكين أنت العالم، وكل من حولك يأتي تباعًا، كيف أخونك في ذاكرتي وأنا أحفظ كل تفاصيلك؟ أعرف ألوانك المفضلة، الحيوانات التي تحبينها، أيامك المفضلة، الكلمات التي تحبين سماعها، والصور التي تحبين الاحتفاظ بها، أحفظ الأماكن التي تحبين الجلوس فيها، البلدان التي تحلمين بزيارتها، أحفظك يا رقية، ذاكرتي لا تستوعب أن تحفظ تفاصيل فتاةٍ غيرك،

قلبي لا يقبل أن يعيش تفاصيلًا جديدة في الحب مع فتاةٍ غيرك، لقد امتلكتِ قلبي وعقلي ووجداني، وهذا التملك نفسه سيكون السبب الأكبر في شقائي؛ لأنني لن أستطيع أن أحيا بعدك.

عاد ياسين من ذكرياته وهو يُفكر في الاتصال برقية، رن الهاتف:

ـ مساء الخير.

ردت رقُية بلهفةٍ:

ـ متى عدت؟

لقد نسيَ أمر رقم الهاتف، فابتكر كذبته سريعًا:

ـ هذا برنامج يُغير الأرقام كيفما نشاء، خِفت أن أتصل بكِ من رقم دولي فلا تردين عليّ.

انطفأت اللهفة في نبرة صوتها وردت:

ـ على أي حال، ألم نتفق على ألا تحاول الاتصال بي مرة أخرى؟!

رد وهو يحاول خلق حوارٍ جديد يستدرجها للتحدث:

ـ كيف حال أخواتي وأمي؟

ردت بثمالةٍ:

ـ حتى الآن هم بخير.

صمتت لثوانٍ ثم واصلت:

ـ أنت غبي يا ياسين، أغبى رجلٍ التقيت به في حياتي، لقد أحببتك بكل صدق، ولم أكن أريد إلا البقاء معك، كنت مستعدة للتضحية بكل شيءٍ فقط لنبقى معًا، كنت مستعدة لتحمل مزيدٍ من الشقاء والتعب والفقر، راضية بالجوع والكحط، ذراعاك كانا سيحمياني من صقيع الشتاء، وابتسامتك كانت ستُضيء وتُرطب صباحي في الصيف، كنت أريدك بشدة، لكنك حطمت كل شيءٍ بغبائِك لتنفرد بفلسفتك وأفكارك ويأسك وحدك.

قاطعها:

ـ أدركت هذا مؤخرًا، لا تزال الفرصة سانحة أمامنا لنبدأ من جديد.

ضحكت رقية بهشاشةٍ تخفي حزنها وانكسارها:

ـ أدركت هذا بعد فوات الأوان.. فات الميعاد.. فات الميعاد يا ياسين.

لم يرد، كان صمته سؤالًا توقعته رقية فواصلت:

ـ اطمئن على أهلك بطريقتك الخاصة؛ من الغد سأغادر الحي، سأحقق ما كنت تريده منذ فترةٍ طويلة، غدًا زواجي من رجل أعمالٍ سيشتري أرض الحي، ويهدم كل بيوته الفقيرة الهشة بقاطنيها، لم أرد أن تتشرد عائلتي، أُعجب بي، فوافقت من أجل إنقاذ نفسي وعائلتي، ولا تقلق، لن أترك عائلتك، في أقرب وقتٍ

سأدعوهم إلى منزلي الجديد، وسأسعى لشراء منزلٍ لهم، لن أسمح أن يشردوا مثلما شردتني أنت وتركتني أواجه كل هذا وحدي.

تلعثم..

صمت..

تلعثم..

صرخت رقية:

- لا تعرف ماذا تقول أليس كذلك؟ أنت لم تضع يومًا الكلمات في موضعها الصحيح، لم تنطق خيرًا ولو لمرةٍ واحدة، كل جملة رومانسية كنت تختمها بكلمة مشبَّعة باليأس، كل موقفٍ جميل كنت تزينه برد فعلٍ يدل على إيمانك بنهايتنا، ألم تكن هذه أمنيتك؟ ألم تقل: «أخشى أن نتزوج فتعيشين معي في تعاسةٍ وفقرٍ وجوع، تلعنين كل الأيام التي أحببتِني فيها، وتَسُبِّين كل اللحظات التي تجمعني بك، وتنتظرين بفارغ الصبر ميعاد خروجي من المنزل»؟ ألم تقل: «أتمنى أن تتزوجي برجلٍ يُوفر لكِ كل ما تتمنين، يحميكي من الفقر والجوع، ويعوضك عن أيامك الصعبة التي قضيتها تحت طائلة الجوع والحرمان» بدلاً من أن تقول: «سأسعى وسأجاهد وأبذل كل ما في وسعي»؟ كنت تقول: «ليس بإمكاني، لن أستطيع، لن أقدر...».

واصلت وهي تنهار:

- ألا أستحق أن أقضي حياتي مع رجلٍ يُحاول لأجلي؟ ألم أكن أستحق المحاولة ولو لمرةٍ واحدة يا ياسين؟ وربي محاولة واحدة منك كانت تكفيني وترضيني وتغنيني عن العالم، حتى وإن فشلت كان يكفي فقط أن تحاول، لمَ لم تحاول لأجلي يا ياسين؟ لمَ تركتني؟ لمَ لم تحاول ولو لمرةٍ واحدة؟ ألم أستحق منك المحاولة؟ لم تدافع عني، لم تحمِني، لم تمسك بيدي، لم تسندني، كنت تجيد تحطيمي فقط، لقد حطمتني ونجوت أنت، كانت من ضمن أحلامك أن تسافر وقد حدث، وعلقت كل أحلامك على تأشيرة سفر، كانت من ضمن أحلامك ألا تخاف من شيء، والآن لقد ابتعدت عنك، فلم يعد شيء يُخيفك، لن تخشى الحياة بعد الآن، وتحققت أمنيتك حين تمنيت أن أتزوج برجلٍ غني يُقدرني ويعوضني عن أيام الشقاء، وها قد تحققَت.. لا تتصل بي مرة أخرى يا غبي، لا تتصل بي مرة أخرى.

من فرط الآلام سقط أرضًا.. من قسوة التعب ذهب في نوم عميق، ليلة لن ينساها راوٍ، منذ الصفحة الأولى يصنع نهايةً لبطلةً روايته، ثم يعاتبها على وفاتها، نسيَ إنه الكاتب والقاضي والحاكم، وإن مسألة بقائِها من عدمه كانت مرتبطةً بقلمه، بكى مع القراءة، ثم

لعن الكاتب، وحين هدأ اكتشف إنه الجاني، وإن نيران الهجران لم تكن لتندلع لولا غباؤه.

في الصباح استيقظ منكسرًا كغصنٍ كان أثقل من أن تحمله الشجرة وأضعف من مقاومة الرياح، هو المحارب الذي هزم قبيلته بعدما وثقوا فيه، الخائن الذي دس السم في وعائِهم بعدما أؤتمن على قبيلته، استيقظ هشًا لا يقوى على حمل قدميه، وفي الخارج كانت أصوات الأغاني الشعبية تعلو المكان، حسنًا وما المانع؟ لنشرب الخمر ولنمارس الجنس مع العاهرة التي تنتظره في الخارج، لينتقم من مبادئه وأفكاره.

وماذا عن قلبه؟ هذا الملعون الخائف يحتاج لهذا اليوم حتى يقسو ويتحجر أكثر أمام الدنيا، الأصوات في الخارج تعلو، جهز نفسه سريعًا ثم خرج، كانت الفتاة في غرفة مروان، يسمع صوتها تتمايل وتدندن مع الأغاني، بينما كان الرجل في الحمام، يبدو إنه يستعد لافتتاح النفق، بالطبع لن يمانع مروان لو دخل الغرفة فوجد الفتاة تحت قوة وسيطرة صاحبه، لكن لقد كان شرطه أن يبدأ هو، إذًا الحل الأمثل أن يستأذن من مروان، وعده بأنه سيتعرف عليها فقط وينتظره، مروان لا يثق في شهوة أي رجل، فحذّره قائلًا:

ـ احترس! الفتاة كفيلة أن تثير ذكوريتك من نظرةٍ واحدة.

ـ لا تقلق، أنا في انتظارك.

اتجه إلى الغرفة بخطواتٍ مترددة وهادئة، طرق الباب، من صوت الموسيقى العالي لم تسمعه الفتاة، فتح الباب بهدوءٍ وترقُّب، هذه المرة الأولى لـه ولها، لكن تبدو الفتاة أكثر خبرة، رائحة الغرفة جميلة، طاولة كبيرة عليها أنواع مختلفة من الفاكهة الصيفية، وزجاجات فودكا وشامبنيا مع مكعبات الثلج، وفي طبقٍ صغير تبغ سجائر يغلب عليه رائحة الحشيش، والفتاة تقف أمام الدولاب تُدندن، ظل ينظر لها، جسدها جميل ومثالي لإشباع رغبة رجلين في آنٍ واحد، لا هو نحيف ولا سمين، شعرها أسود طويل، خلخال لمزيدٍ من الإثارة، هي ترتدي قميص نوم أسود قصير، مجرد قطعة قماشٍ لا تُخفي أي شيء، حتى مكامن أُنوثتها واضحة وظاهرة من الخلف، سال لعابه فور أن رآها، مثالية لقضاء وقتٍ يُنسيه قسوة ما سمعه من رقية، اللعنة على الحب!

اقترب منها والفتاة تدندن مع الأغاني وتتمايل بإثارة، كل هذه الحركات المثيرة وهي لا تعلم أن رجلًا ما يراها، ماذا لو علمت؟ ستجعله أشبه بثورٍ هائج، لن يستطيع أن يفِ بوعده لمروان وينتظره، سينقض عليها، لن يشبع منها أبدًا بهذا الجسد فائق الجمال، سيذوب تمامًا، وينتقم من كل الأشياء التي هزمته، سيعتليها معلنًا انتصاره الوحيد في الحياة، اقترب أكثر، شعرت الفتاة بوجوده؛ فضحكت قائلةً دون أن تنظر له:

- بهذه السرعة! سمعت أن الرجال الذين ينجزون مهامهم سريعًا لا يقدرون على مواصلة الجنس لفتراتٍ طويلة.

كلمات جريئة أشعرته بالحرج، فلم يرد.

استدارت الفتاة.

وبعد ثوانٍ، صرخت الفتاة، وحاولت الهروب من الغرفة.

لثوانٍ استوعب الموقف.

ركض ليلحق بها.

في طريقه وجد سكينًا على الطاولة، أمسك بها، وظل يطاردها.

الفتاة تصرخ، وياسين يركض خلفها في أرجاء المنزل، يحاول الإمساك بها، تعثرت الفتاة، الآن أصبح بإمكان ياسين اعتلاءها، لكن ليس لإشباع رغبته ورغبتها، بل لقتلها!

تتوسل الفتاة.

تتوسل تطلب الرحمة والعفو.

تنتفض.

ينظر لها النظرة الأخيرة.

دون تردد.. يزرع السكين ليستقر في قلبها، مع صرختها المدوية يخرج مروان عاريًا.

يُهرول نحو ياسين للنيل منه، الفتاة غارقة في دمائِها، وياسين تحت قوة مروان الذي أمسك بتلابيبه، بدأ بسيل لكماتٍ كفيلة بإفقاده وعيه.

«اهدأ.. اهدأ..»، كلمات يقولها مروان وهو ينهال بالضرب على ياسين..

فقد ياسين قوته ومقاوته.. توقف مروان عن الضرب.. وساد صمت طويل.

ـ يُمنى أبلغي داليدا واحضرا فورًا، أنا أنتظركما في منزلي.

ـ ما الأمر يا مروان، ماذا حدث؟

ـ فورًا يا يمنى، في أسرع وقت، الأمر لا يحتمل التأخير، أنا في انتظاركما.

أغلق مروان الهاتف بثبات رجل اعتاد على مثل هذه المواقف، استطاع أن يطلب المساعدة من أصدقائه، الفتاة مغطاة ببطانية وغارقة في دمائها، السكين لا تزال مزروعة في قلبها، وياسين على الأرض غائب تمامًا عن الوعي، مروان لا يزال لا يفهم ما حدث، لم يحاول أن يفتش في أغراض القتيلة، غطاها وظل ينظر لهما في صمت وصدمة.

«ياسين ليس شخصًا عدوانيًا ليذبح حتى دجاجة، هو مسالم وهادئ، ربما لصدمته العاطفية دور في هذا، هل جُن بها للحد الذي جعله يراها في فتاة الليل؟! الغبي! لقد أفسد سهرة رائعة، لا يهم الآن، نحن أمام كارثة حقيقية، القتيلة في منزلي ولا أعرف حتى الآن ما مصير الجثة، وماذا ينتظرني؟ ما هذا العبث؟ لو كان باستطاعتي لألقيت الاثنين للكلاب تنهش في أجسادهما، حياتي الهادئة ماذا أصابها؟ الآن أنا أمام جريمة قتل، لننتظر ماذا سيحدث؟».

بعد ثلاث ساعات بالضبط جاءت داليدا ويمنى.

ـ ماذا حدث؟

فتح مروان لهما الباب دون أن ينطق بكلمةٍ واحدة.

ما إن رأيا الجثة المغطاة حتى صرخت داليدا، لكن اشتد صراخها حين أزيل عن الجثة غطاءها.

مرت خمس ساعات في حالة صمتٍ يُخيم عليهم جميعًا، كان مروان يُفكر في شيءٍ واحد؛ ماذا سيقول ليبرر فعلته أمام ياسين؟ بالطبع هو لم يكن يعلم إن الفتاة التي مارس الجنس معها إلكترونيًا، وبينهما سيل من المحادثات وتبادل الصور والفيديوهات الساخنة هي أخت صاحبه، لو كان يعلم لقطع قدميه قبل أن تخطيان خطوة واحدة نحوها، لكن هل سيثق ياسين من الأساس في حجة مروان؟ العلاقة بينهما ليست وطيدة لهذا الحد، في النهاية المسألة تتعلق بالشرف؛ ذاك الذي دفع ياسين لقتل أخته، ما ينتظر الرجلان في الأيام القادمة لن يمر مرورًا عابرًا عليهما.

ماذا حدث في حياتي؟

كنت رجلًا له وضعه واحترامه أمام نفسه وأمام الجميع، كان أكثر ما عندي هو المال، أستمتع بالسلطة، ويتباهى بي الناس في كل مكان، وبلا مناسبة انتهى كل هذا، وبعدما انفصلت عن العمل وضاعت سلطتي، والحب خرجت منه مهان الكرامة والكبرياء حتى أصبحت مريضًا في مستشفى المجانين، والآن أنا مُتهم في جريمة قتل.

أنا لا أفهم شيئًا.. لا أفهم كل ما يحدث في حياتي.

استيقظ ياسين مُتعبًا منهكًا تمامًا، للوهلةِ الأولى ظن إن ما حدث كان كابوسًا.. لكن حين رأى آثار الدماء على ملابسه استوعب إن ما حدث كان حقيقيًا، نهض غاضبًا بجسده المتعب عازمًا على الانتقام من مروان، وما إن خرج حتى صُدم بجثة أخته، لم يتمالك نفسه، احتضنها وظل يبكي كالأطفال، أخته التي تصغره بست سنوات، كانت الأقرب لـه في المنزل، المسؤولة عنه ومنه، أحبها وكان يعوضها دائمًا عما فقدته، عن شعور الابنه تجاه والدها، لطالما سعى أن يحميها من مخالب الدنيا وشقائها، فكان يفعل كل شيءٍ ليوفر لها كل ما تتمنى، صحيح تغير الحال، فلم يهتم بها في أيامه الأخيرة، لكن هذه الدنيا، ومشاغل الحياة أحيانًا تكون أكبر من قدراتنا على مواصلة الاهتمام بمن نحب، حتى لو كان أقرب المقربين لنا، ظل يبكي وهو يحتضنها؛ بكاء الأب والأخ والسند على حبيبته وصديقته وابنته الصغيرة التي قتلها بيديه.

الندم والحزن وجريمة قتل، معاناة يعيشها هذا الشاب العشريني، اقتربت داليدا منه وعانقته، أرادت مواساته بكل الطرق وهي تعلم إن ما بداخله أعظم من أن يداويه أحد، استفاق ياسين وهو يقول: «سأقتله يا داليدا، سأقتله!».

ردت داليدا بهدوءٍ:

- الذنب ليس ذنبه يا ياسين.. الذنب ليس ذنبه، لم يكن يعلم إنها أختك يا ياسين.
- لن أشفي غليلي إلا والسكين في قلبه.

- ستموت أمك حسرة.. لن تتحمل قتل ابنتها وإعدام ابنها الوحيد.

قلة الحيلة والحسرة هما من انتابا وسيطرا على ياسين، التعب الذي أصاب قلبه وعقله وشرفه، خيبة تحقيق أحلامه في وطنه، خيبة الحفاظ على حبيبته، وخيبة الحفاظ على عائلته، والآن أصبح مُجرمًا ينتظره قرار الإعدام لا محالة.

خرجت يُمنى لياسين وداليدا وخلفها على حياءٍ مروان، مع ظهور مروان انقض ياسين نحوه لكن بلا فائدة؛ بنيان مروان القوي دائمًا ما يتصدى لأيةِ محاولة اعتداء، سيل من الشتائم والتهم انهال من ياسين دون أن ينطق الآخر بحرفٍ واحد، بصرخةٍ وعنف أوقفت يمنى الشجار قائلة:

- القتال لن يحل المشكلة، نحن أمام كارثةٍ حقيقية، آسفة يا ياسين أنا أعرف قسوة كلماتي عليك، لكن لندع مشاعرك جانبًا ولنتحدث بالمنطق، نحن أمام قتيلة وجريمة قتلٍ لن يفلت منها أحد، هل تفهمون؟ لن يفلت منها أحد، الآن نحن في حاجةٍ لاتخاذ خطوة واضحة، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

رد مروان:

- لنبلغ عما حدث ويأخذ القانون مجراه الطبيعي.

ردت يمنى:

- حل مثالي أتفق معه وأؤيده وبشدة.

لم يرد ياسين، ردت داليدا معترضة:

ـ لن أسمح لـ ياسين أن يقضي أيامه في السجن.

رد مروان:

ـ سيقضيها هاربًا إذًا.

كان ياسين في حالة صدمة تمنعه من الرد على مروان.

فردت داليدا:

ـ حسنًا، أنا لا أوافق على قراركما، بإمكاننا إيجاد حلٍ آخر.

ردت يمنى:

والدة ياسين لن تنتظر كثيرًا وستُبلغ في أقرب وقت، ومن هنا ستبدأ خطوات تحقيقية للبحث عن الفتاة، وبالطبع سيصلون للحقيقة في أقرب وقت.

قال مروان:

ـ أنا لا أريد مزيدًا من الضجيج في حياتي.

همهمت داليدا لنفسها:

ـ العجوز المسكين كُتب عليها الشقاء الأبدي.

ردت يمنى:

ـ لنستدعِ طرفًا آخر، ماذا لو أخبرنا أحد رجال ديفيد شاهينَ بالأمر؟ بإمكاني الاتصال بـ ماري، لقد أعطتني رقم مساعدها في مصر لأتواصل معه إن جد جديد.

نظرات الاستغراب سادت بين مروان وداليدا التي قالت:

ـ هذا حتمًا سيجعلنا جميعًا تحت رحمتهم.

غاضبًا قال مروان:

ـ لن أضع رأسي تحت فك الأسد وأنتظر الرحمة.. هذا لن يحدث.

ـ الجريمة حدثت في منزلك يا مروان.

هكذا ردت يمنى.

عاد الصمت من جديد حتى قالت داليدا:

ـ أوافق على اقتراح الاتصال بهم، حتى وإن كان لهذه المساعدة ضريبة، حتمًا ستكون أهون من السجن لـ ياسين أو مروان.. أنا موافقة.

أخيرًا ودون سؤال ياسين قرر الأصدقاء الاتصال بمساعد ماري في مصر.

ـ الاستعانة بصديق ماري حل مثالي انتظره طويلًا حتى تأتي هذه اللحظة، وقت الغضب والخوف لا يمكن استيعاب توابع القرارات التي نقررها، حين نصبح على وشك الغرق تُصبح القشة طوق نجاتنا الوحيد، حتى ونحن نعرف إنها لن تتحملنا، ولن تنقذنا، لكنه الخوف ورغبة البقاء مهما كلفنا الأمر، موافقة تملؤها الشكوك والمخاوف والعاطفة، نعم العاطفة، لم يكن قرار الاستعانة بالمجموعة في إيطاليا قرار ياسين؛ بل

قرار داليدا التي رفضت بتلقائية وعاطفة أنثى أن يدخل صديقها في دوامات جديدة في حياته.

هكذا ردت يمنى على مروان الذي سألها عن رأيها في قرار داليدا.

تساءل الآخر:

- هل تظنين إن بينهما علاقة ما؟

ردت نافيةً:

- بالطبع لا، لكن أحب هذا النوع من العلاقات.. إنه حب الأصدقاء الصادق الذي يجعلنا نشعر بالحميمية والخوف على أصدقائنا، نستعد أن نفديهم بدمائنا وأرواحنا فقط لنحيا آمنين.

ضحك مروان:

- ياسين طبع عليكم جميعًا.

ردت بنبرةٍ حازمة:

- لا، إنما هو حظي السيء في الأصدقاء.

مرت الليلة المشؤومة، نام الأصدقاء، بينما ظلت داليدا رفقة ياسين تجلس على كرسي أمام سريره، هي تشعر بالانتماء له، لقد احتضنها حين لم يحتضنها أحد، اتسع منزله لها حين أُغلقت أمامها كل الأبواب، وعاشت بينهم فردًا في عائلتهم بعدما انقلبت عليها عائلتها.

نحن نمتن وننتمي لمن يشبهنا، لمن يحتوينا في أوقات مخاوفنا، نحن ننتمي لمن قدموا لنا يد العون دون انتظار مقابل، لمن جاهدوا وحاربوا من أجلنا حتى وهم لا يعرفوننا أعز المعرفة لكنهم يصدقوننا، أن يصدقك أحد حين يكذبك العالم، أن يؤمن بك شخص، بقضيتك، وحقوقك، وأهدافك، وأحلامك، ويُعرِّض حياته ونفسه للخطر، ويقاتل لأجلك.

كانت نظرة داليدا لعائلة ياسين في بداية الأمر نظرة استعلائية بحتة، بنت الزوات والحسب والنسب حين تمرد عليها العالم كان منزل أشبه بعشة الدجاج هو مأمنها وموطنها، وجدت في عائلة ياسين الود والحب الذي حُرمت منه بعد وفاة والدها، عوَّضتها أم ياسين عن حرمانها لأمها في طفولتها، كان ياسين يعاملها كالأخ الأكبر والأب أحيانًا، ووجدت في ميادة وإسراء ورقية معنى الأخوة والصداقة.

مالت داليدا رأسها على الكرسي وهي تفكر:

كنت أعلم إن ميادة مهووسة بمواقع التواصل الاجتماعي، تحدثتُ معها في هذا الأمر مرارًا وتكرارًا، لم تكن ميادة مهووسة بالشهرة قدر هوسها بجمع المال، وحين يجتمع الفقر بلعنة الثراء يتغير الإنسان للأسوأ، ويستعد للتضحية بمبادئه وأفكاره وقيمه، وحتى دينه في سبيل أن يصل لغايته، تحدثت معها دون أن أُعنفها، وفي أيامي الأخيرة معهم تغير سلوكها، أصبحت أكثر عزلة، لا تتحدث معنا، لا تحكي كالمعتاد أسرارها، ساورني القلق عليها، ورغمًا عنا قررت أنا وإسراء أختها الكبرى أن نفتش في أغراضها،

صُدمنا حين رأينا ملابس داخلية حارة، قمصان نوم بألوان مختلفة، وكأنها عروس في شهرها الأول، لم نستطع مواجهتها، وقررنا الانتظار حتى علمنا أنها أصبحت مهووسة بموقع التواصل الاجتماعي"tik tok"، في البداية لم نجد ربطًا بين ملابسها وسلوكها وتصرفاتها الغريبة بهذا الموقع، لكن حين تعمقنا أكثر وقرأنا عن هذا الموقع حتى وجدنا ما يربط الأشياء ببعضها البعض، في مثل هذه المواقع شبكات جنسية كاملة لجذب المراهقات، وميادة فتاة فقيرة وجميلة، وتستطيع قضاء وقتٍ طويل خارج المنزل، هي لقمة صائغة بالنسبة لهم، إن هؤلاء الأوغاد يستغلون الفتيات الفقيرات في المجتمعات النامية من أجل تلوين حياتهم الصماء، يُظهرون أمامهنّ طوال الوقت أمثلة لفتيات تشبهن ميادة كنَّ أكثر فقرًا منها ثم تحولت حياتهن لرفاهيات لا تنتهي، يملؤن في رؤسهم المضججة بالفقر والحرمان أفكارًا جديدة لحياة غنية مرفهة تنتظرهم، يجذبوهن بكل الطرق، مستغلين الفقر؛ أخطر أسلحة الإنسان ضد نفسه، مع غياب الوعي المجتمعي ودور الأهل.

الوعي المجتمعي؟!

سخرت داليدا من نفسها التي واصلت:

هناك مجتماعات عربية تبرر التحرش، تترك المتحرش حرًا طليقًا وتبحث عن أسباب وأخطاء المجني عليها من أجل تبرأة الجاني من ذنبه، كيف نطلب من هذا المجتمع الساذج الغبي أن يشن حملات توعية ضد مثل هذه العصابات الإلكترونية التي تستدرج

بناتنا؟ كيف ننصح مجتمعًا يكيل الخطأ والفعل على حسب جنس الفاعل؟ كيف نطلب من مجتمع يؤمن إن الرجل لا يعيبه إلا جيبه، بينما خطأ الأنثى لا يُغتفر؟ الخطأ واحد، وتصنيفه حسب جنس الفاعل كارثة وتخلف، وتبريره رخصة جديدة لفاعلٍ آخر.

بدلًا من ذبح المُخطئات علينا نحن احتوائهم من جديد، توعيتهم بطريقة صحيحة سليمة، بدلًا من ذبح المذنبات علينا أن نوضح ونشرح لهم عواقب قراراتهم ونهاية الطريق الذي سلكوه، بدلًا من التشهير بهن يمكننا التحفظ عليهن، وإعادة هيكلتهن، وبنائهن بطريقة سليمة، لكن في النهاية لن يحدث هذا، سيتم التشهير بهن في كل مكان، سيتحولن لأمثلة قذرة دنيئة لن يتقبلهن المجتمع مرة أخرى، ولن يتقبلن هن حياتهن، ولا أستوعب أن ينتحر أغلب مثل هذه الحالات، خصوصًا إن آفة حارتنا النسيان عدا القصص المرتبطة بالجنس، إنها أفيون جلسات الرجال، ولكل رجل حق تخيل وتوقع قصة مختلفة، وما دامت تثير المستمعين فهي صادقة.

مجتمع مريض مهووس بالجنس، وأكثر المجتمعات تحفظًا وكبتًا عن الجنس أكثرهم هوسًا به، هذه هي الحقيقة، ما لم تستعب الأجيال القادمة إن الجنس مجرد علاقة بين طرفين يجب القيام بها تحت إطارٍ شرعي وقانوني، وعليه يجب تسهيل وتبسيط متطلبات الزواج من الأهل؛ سيعيش هذا المجتمع البائس مهووسًا به، ما دامت الأجيال القادمة لم ترَ عقابًا قاسيًا على المُتحرش والمغتصب، مع توعيتهم على ضرورة وحتمية احترام المرأة وتعفيفها من كلمات

التحرش القذرة، وتعزيزهم من المضايقات التي يتعرضن لها كل يوم، ما لم تستعب هذه الأجيال إن التحرش والاغتصاب عمل حيواني لا يختلف عن القتل، ما لم يحتوِ المجتمع أفكار الشباب وأهدافهم ويُنصت لهم ويحميهم من العصابات الإلكترونية؛ سنعيش أقذر عصور البشرية على الإطلاق، سيُصبح كل شيءٍ مباحًا بطريقةٍ حيوانية دنيئة، ولن نتعلم الدرس إلا بعد أن ترتفع معدلات التحرش والاغتصاب، ويُصبح في كل بيتٍ فتاة ليلٍ تعمل لصالح إحدى شبكات الدعارة الإلكترونية.. وهنا يأتي دور الأهل للحفاظ عليهن من هذا السرطان القاتل.

نظرت داليدا لـ ياسين وهي تقول مشفقة عليه:

ياسين مثله مثل أغلب الآباء، لم يُخطأ في تربية ميادة، لكن في حياة ناس يستيقظون كل يوم حاملين هم قوت يومهم، تشغلهم الدنيا أكثر مما ينبغي عن تفاصيلٍ قصيرة تتسبب فيما بعد بأخطاء جسمية لا يتحملون عواقبها، إنها لظاهرة غريبة، إن أغلب من يشبهون ميادة فقراء.

كالعادة وفي أغلب المجتمعات يدفع الفقراء ضريبة الفساد، أُشفق على ياسين ومن يشبهونه، إنهم مطالبون بتوفير أبسط احتياجات المنزل اليومية، مطالبون بتحمل عناء الدنيا وقسوة الظروف، ويسألون عن التقصير في حق تربية أولادهم، لو كانت الظروف المعيشية لـ ياسين أفضل أظن إن ميادة لم تكن لتسلك هذا الطريق، لكنه الحرمان والجوع، لكن الأهالي وبعيدًا عن ياسين الأب

والأخ مطالبان بشكلٍ دوري بمتابعة أولادهم، متابعة اهتماماتهم والإنصات لهم وفهم عالمهم السريع واستيعابه، أن لا يضعوا بينهم وبين أولادهم عواقبًا وحواجزًا تصعب عليهم التواصل والفهم، كل ابن يحتاج لوالده، يحتاج لنصائحه وإرشاداته، لأم تُنصت له وتحن وتهون عليه مشاكله مهما كانت صغيرة وعادية، كُل فتاة في حاجةٍ لأبٍ يُصاحبها، يكون هو صديقها ورفيقها، كل فتاة تحتاج لأبٍ يكون لها سندًا وعونًا في حياتها.

مهما كانت الحياة صعبة تلين ولو للحظة رفقة الأهل، العائلة أولًا دائمًا وأبدًا، الحياة دون الأهل صعبة ومستعصية، أنا أعرف هذا جيدًا، حين مات أبي انهالت علي، وافترستني الحياة حتى حُطمت تمامًا، احتموا بعائلتكم، فالحياة في الخارج لن ترحمكم.

ـ صباح الخير.

بصوتٍ هادئ رد:

ـ أهلًا، من أنت؟

ردت:

ـ أنا يمنى.. كنت قد...

قاطعها الرجل:

ـ أعرفك، حدثتني ماري عنك، ما الأمر؟

ردت يمنى:

ـ لقد قتل صديقنا إحدى فتيات الليل، ونحتاج لمساعدتك.

صمت الرجل لثوانٍ ثم قال:

- أخبريني بكل التفاصيل.

حكت يمنى كل تفاصيل الموضوع للرجل صاحب الصوت الهادئ، أخبرته إن فتاة ليلٍ كانت أخت صديقٍ لها، وقد وجدها في شقة صديقٍ آخر لهم؛ مما استدعى لقتلها، وكاد أن يقتل صديقه، أخبرته أيضًا بالحالة السيئة التي يعيشها ياسين وإنه فاقد للوعي، بعد أن عرف الرجل كل التفاصيل طالبها بالانتظار لساعتين، ومن ثمَّ سيعاود الاتصال بها مرة أخرى.

انتهت المكالمة.

دخلت يمنى غرفة ياسين فوجدت داليدا نائمة أمامه، أيقظتها، ثم سألتها عن ياسين، قالت داليدا إنه يستقيظ لثوانٍ ثم يعود غارقًا في نومه، النوم حل وهمي مثالي للهروب من الأزمات والحقائق القاسية التي تواجهنا، جلست يمنى بجوار داليدا، ثم قالت لها:

- لقد قدمت استقالتي من الجامعة، وفور عودتي سأغلق المكتب.

ردت داليدا:

- قررت الانضمام لهم؟
- ليس بعد، شيئان بداخلي يتصارعان، لكن آمل أن تنتهي هذه الحرب.

ردت داليدا:

- قرار الاستعانة بهم سيجعلنا تحت رحمتهم.

ـ صحيح، لكننا بين المطرقة والسندان، كلاهما أشد مرارًا علينا، على الأقل سيكون الرجلان حران طليقان أفضل من قضاء حياتهما خصوصًا ياسين في السجن.

تنهدت داليدا:

ـ أشعر إنني أعيش كابوسًا.. كابوسًا أبديًا.

ردت يمنى:

ـ الأسوأ لم يأتِ بعد.

بعد ساعتين اتصل الرجل بـ يُمنى وأخبرها إنه في الطريق إليهم، في هذا الوقت استيقظ مروان وياسين وخرجا للصالة، كانت لا تزال جثة ميادة على الأرض في مكانها، ظل يتأملها ياسين وهو يبكي، بينما كان يجلس مروان ثابتًا:

ـ لو كنت أعلم إنها أختك لأوقفتها عن هذا.

لم يرد ياسين.

ـ أنا أشعر بك يا ياسين، لكن أقسم لك لم أكن أعلم.

رد ياسين:

ـ اخرس وإلا وضعتك بجوارها تؤانسها في القبر.

صمت مروان؛ فلم تعد كلماته مناسبة في هذا الوقت.

مرت الساعتان دون أن يتحدث أحد مع الآخر حتى جاء الرجل، شاب في بداية الثلاثينات، يبدو على مظهره الهيبة واللامبالاة في لحظةٍ واحدة، دخل المنزل دون أن يلقي السلام على أحد، اتجه

مباشرةً إلى الجثة ووقف أمامها يتأملها، أشعل سيجارته، وظل يتأملها وكأنه يعرفها، دخن بشراسة.

ـ كان من الممكن أن يكون هذا مصيرك يا مريم.

رددها في نفسه، لم يسمع أحد بها.

بعد دقائق طلب من يُمنى فنجان قهوة، ثم جلس معهم على طاولةٍ وبدأ:

ـ حسنًا، بلغتني يمنى بما حدث، وعليه طلبت ماري لتخبرني بما سنقوم به، الآن على ياسين العودة إلى القاهرة والذهاب إلى أمه قبل أن تُبلغ عن اختفاء ابنتها، لك حرية اختيار الحجج والمبررات لإقناعها، الأهم أن لا تبلِّغ باختفائها، أمامك ليلة واحدة تذهب إلى هناك ومن ثمَّ ستذهب إلى مدينة مطروح، سأكون في انتظارك في صباح الغد، بالنسبة ليمنى أمامك يوم واحد لاتخاذ قرارك، داليدا كذلك.

نظر الرجل لمروان ثم قال:

ـ أنت لا تحب الأوامر، لذلك القرار قرارك، يُفضل أن تتجنب شقاء التساؤلات، أمامك يوم واحد لاتخاذ قرارك، أنت تعلم جيدًا ما أقصده، سأعاود الاتصال بكم غدًا.

ردت داليدا:

ـ ماذا عن مصير ميادة؟

قال الرجل بحزم:

- انتهى أمرها، هذه مسؤوليتنا.

- هل يمكنني مرافقة ياسين؟

تساءلت داليدا.

أجاب الرجل:

- لا مانع، وإن اتخذت قرارك فسأنتظرك غدًا معه في مطروح.

بصوتٍ يغلب عليه الندم تساءل ياسين:

- أين ستذهبون بـ (ميادة)؟

رد الرجل بقسوة:

- قلت لك هذه مسؤوليتنا.

تحرك الأصدقاء.. دخل ياسين إلى الغرفة وغير ملابسه، كذلك داليدا ويمنى، بينما صب مروان لنفسهِ كأس فودكا، وأشعل سيجارته، سيطرت على الأصدقاء حالة من الصمت والحزن مع تساؤلاتٍ لا تنتهي، جهز ياسين نفسه وهو يتساءل ماذا سيفعل، ماذا سيقول لأمه، وما مصير أخته التي قتلها بيديه.

- اطمئن، لن أتركك وحدك يا ياسين.

قالتها دليدا بعد أن مسكت يد الشاب المحطم تمامًا.

- لقد أفسدت كل شيءٍ يا داليدا.. لم أكن في وعيي حين قتلتها، لكن فار دمي حين رأيتها تتمايل وتتراقص

عارية، لستُ نادمًا على ما قمت به، إنها مسألة تتعلق بالشرف، النخوة والرجولة، لست نادمًا، لكنني لم أتمنَ أن يحدث كل هذا، والآن ماذا سأقول لأمي؟ لن تتحمل ما ستسمعه، حتمًا لن تتحمل.

تنهدت داليدا وهي تضع آخر مستلزمات ياسين في شنطته:

- لن تذهب وحدك.. سأكون معك، وسيكون كل شيءٍ على ما يرام.

انطلقت يمنى بسيارتها مصاحبة معها ياسين وداليدا، كل منهم مشغول بعالمه وما ينتظره.

وصل الأصدقاء إلى القاهرة، وإلى منزله اتجه ياسين وداليدا، استقبلته أمه استقبالًا يعوض مخاوف القلق على ابنتها، شعرت إسراء إن ياسين ليس على ما يرام.

جلست العجوز، وسألت ابنها عن سبب عودته المفاجئة، لم تجد في كلماته إجابة مفيدة، ومن همها حدثته عن غياب ميادة، تغيرت ملامح ياسين؛ فتمالكت داليدا نفسها وطلبت من العجوز أن تتحدث معها منفردة، ظهرت علامات الاستغراب على ملامح إسراء، فخرجت مع ياسين وتركت داليدا ووالدتها وحدهما.

بدأت كلامها داليدا قائلة:

- أمي تعرفين إنني أحبك كثيرًا، وقد وجدت فيكِ ما افتقدته طوال حياتي، وجدت فيكِ أمي ومُعلمتي، حين لجأت لكِ في ضيقي قلت لي إن الله يختبر قوة صبر

عباده، وإن البلاء يُخفف من ذنوب العبد عند ربه.. أليس كذلك؟

لم تفهم العجوز سر هذه الكلمات، فقالت:

- ماذا حدث يا ابنتي؟

تنهدت داليدا ثم واصلت:

- لقد عاد ياسين أول أمس إلى الإسكندرية لإنهاء بعض الأوراق الخاصة به، واضطر للمبيت عند أحد أصدقائه هناك، لصديق ياسين علاقات نسائية متعددة، وفي هذه الليلة قرر أن يشارك ياسين أحد طقوسه، فدعى إحدى صديقاته للمنزل، وحين استيقظ ياسين رآهما معًا، لم يتحمل ياسين المنظر فقتلها.

ردت العجوز متفاجئة:

- ياسين يقتل؟! ياسين لا يطيق الدماء، كيف يجرؤ على القتل؟ وما دخله بالفتاة من الأساس؟

صمتت داليدا صمتًا طويلًا، الأمر الذي أزعج العجوز، فاضطرت داليدا مواصلة الحديث:

- الفتاة التي قتلها ياسين.. هي ميادة.

- ميادة؟ من ميادة؟

- ميادة ابنتك.

باستغراب نظرت العجوز لـ داليدا، لم يهتز لها جفن، لم تنطق بكلمة واحدة، خبر كالصاعقة أجبرها على الصمت، كانت العجوز قوية جدًّا بطريقة لم تتوقعها داليدا، على العكس، بل فاجأت داليدا بسؤالٍ آخر:

ـ وأين جثتها الآن؟

قالت داليدا وهي تتلعثم:

ـ كان أمامنا حلان، الحل الأول أن نبلغ الحكومة بالأمر، وعليه سيتم القبض على ياسين، وأقل فترة سيقضيها في السجن خمسة عشر عامًا، الحل الآخر أن نخفي الجثة بالاستعانة بأحد المختصين في هذه الأمور، ومن ثمَّ يختفي معها كل شيء.

ردت العجوز جامدة:

ـ أريد أن أراها.

لم ترد داليدا.

كررت العجوز طلبها بقسوة:

ـ أريد أن أراها للمرة الأخيرة.

ـ سأحاول يا أمي سأحاول.

عانقت داليدا السيدة العجوز، كانت ضربات قلب العجوز قوية وسريعة بطريقة مفجعة، الأمر الذي أثار قلق داليدا، احتضنتها بقوة وواستها:

ـ هوني على نفسك.

ردت العجوز بنبرة قوية:

- أنا بخير، لا تقلقي.

اقترحت داليدا على ياسين الخروج والاستفادة من الوقت.

- دون أن أودعها؟ قد تكون هذه المرة الأخيرة التي ألتقي بها يا داليدا.

هزت داليدا رأسها آسفة:

- لا أظن إن حالتها تسمح بهذا.

دخل ياسين إلى غرفة أمه، كانت العجوز على الأرض تمسك بملابس ميادة وتشمها وكأنها تودعها بطريقاتها الخاصة.

اقترب منها؛ لم تنظر له.

ثبَّت قدميه أكثر على الأرض لعلها تشعر بوجوده؛ لم تنظر له.

اقترب أكثر، ثم لامس كتفيها؛ لم تُحرك ساكنًا.

قبل يديها الباردتين:

- أنا آسف يا أمي، لم أتحمل أن تكون أختي عاهرة.. لم أتحمل.

ظلت العجوز صامتة.. فواصل ياسين:

- سأغيب يا أمي، لن تعرفي طريقًا لي، لكن لا أريد الهروب وأنتِ غاضبة عليّ، صدقيني يا أمي أنا حزين لما قمت به، لكنه الشرف، أليس هذا الذي زرعتيه فينا ولم تصُنه ميادة؟ لم تحافظ عليه.. لست مخطئًا

يا أمي، لقد غسلت عاري، ألم تحدثينا إن كل شيءٍ يمكن أن يُغتفر إلا تدنيس شرفك؟ ها أنا قد فعلت ما أمرتِني به في صغري، لم أسمح أن يُدنس شرفنا.

أبعدت العجوز ياسين بعيدًا عنها، دفعة بسيطة في كتفه كانت قاسية على قلبه، نهض ياسين من مكانه مخيَّبَ الآمال، وتحرك ناحية باب الغرفة، هنا قالت العجوز:

ـ لو لم تقتلها لكنت قتلتها وقتلتك.. لقد فعلت أشد الصواب على قلبي قسوة ومرارة.

ثم عاودت النظر وشمت ملابس ابنتها دون أن تعير ابنها أي اهتمام.. خرج ياسين باكيًا من المنزل حتى خرجت له داليدا.

علم ياسين من الجيران إن حفل زفاف رقية في أحد الفنادق المرموقة بحي المهندسين، خبر لم يُعِر له أي اهتمام، تحرك نحو اللا شيء، ثم قررت داليدا الذهاب إلى منزلها، لم يمانع ياسين الذي كان هائمًا في عالمه الآخر، وصلا إلى المنزل، ظل ياسين صامتًا طوال الوقت، وفي المساء طلب ياسين من داليدا أن يخرج للتنزه، رفضت داليدا خروج ياسين بمفرده، لكنه أصر وخرج بالفعل.

ظل يمشي في شوارع القاهرة تائهًا يُفكر في كل شيءٍ حوله، في القاهرة تجد ضالتك وأنت حزين، فتشعر إن كل شوارعها تواسيك على حزنك، كل الوجوه عابثة ومكتئبة؛ مشاركة ومتضامنة معك في نفس مأساتك وهمومك، كل الأصوات مكسورة يغلب عليها تنهيدات الحزن والأسى، الشقاء مرسوم على ملامح سكانها،

والخيبة قصة مشتركة بين الجميع، من يتشبث بالأمل هو البطل، ولأن التمسك بالأمل في هذه الظروف يُعتبر سخافة فلا أحد يضع أي آمالٍ في الغد.

في مقاهيها آلالف القصص المأساوية المختلفة، ما بين شقاء الفقر قصص تروى عن وحشية الوحدة، اليأس والخوف، العجز عن تحقيق أبسط حقوقهم في الحياة، قصص عاطفية تحولت لذكريات أليمة، قصص عن أحلام لم تكتمل، أمنيات ظلت عالقة في السماء، وفي كل شارعٍ ذكرى لكُّل شخصٍ عاش أيامًا وذكرياتٍ جميلة قرر الزمن أن يجعلّها مجرد ذكرياتٍ حزينة يتذكرها أصحابها ويمضون.

القاهرة مدينة التعساء الذين يشعرون بالضجر والضجيج والخيبة، في هذه المدينة لن تشعر بالغربة، في حزنك هي بلدة الحزن والتعب، هي موطن المساكين، والموجوعين، والفقراء، والذين تحطمت أحلامهم وأمنياتهم وفقدوا رجاءهم في الحياة.

إن كنت لا تملك رفاقًا فكل رفقائك في الحزن ينتظرونك في مقاهيها، إن كنت تحب الغناء فثمة فنانين يغنون كل ما غُنِّيَ عن الحزن والفقدان والاشتياق.

كل الشوارع متشابهة، تشبهك تمامًا، باردة وصامتة، النيل يجيد الإنصات إن أردت، واطمئن سيحتفظ بكل أسرارك الحزينة التعيسة كما احتفظ بملايين القصص لملايين الأشخاص، إن كنت تبحث عن حضن يتسع لك فميادينها تحتضن كل يومٍ الآلاف ممن لا يملكون مسكنًا لهم، وإن ثقل عليك تعبك وهمومك وراودتك

ذكرياتك فلا تخجل بالجلوس على أقرب رصيفٍ لك، هذه الأرصفة تعرف مئات القصص للمجروحين والتعساء.

في القاهرة أنت لست وحدك في حزنك، العالم كل العالم يتشارك معك.. فأنت في القاهرة مدينة الحزن.

وصل ياسين ناسيًا الوقت والطريق إلى حي المهندسين، لا يعلم إن كانت قدماه هما من قادتاه للفندق الذي سيشهد على حفل زفاف رقية أم إن قلبه من قام بهذا؟ كان وجهه شاحبًا تمامًا، وشكله مهملًا، فكر ألا يدخل؛ فلم يكن يتحمل مواجهة أخرى، لكن لم يطاوعه قلبه أن يغادر للأبد دون أن يلقي نظرة الوداع على حبيبته وصغيرته.

باغت الأمن ثم دخل ووقف على باب القاعة.

كانت أصوات الأغاني عالية، أجواء وأهازيج لحفل زفافٍ ضخم، الطابع الكلاسيكي يسيطر على الحفل، وعائلة رقية لا أثر لها، هناك كانت رقية ترقص مع حبيبها على أغنيةٍ كانا قد اتفقا عليها في صغرهما أن يرقصا عليها يوم حفل زفافهما، ترتدي الأبيض الذي تمنى أن ترتديه له منذ زمن بعيد، تضحك وتغني بينما هو على الباب يقف يتابعها تتراقص وتهمس في أذن زوجها، النغزات تضرب في قلبه، كل هذه الأشياء التي تحدث الآن كانا قد اتفقا عليها من قبل، يراها تتغنى وتتمايل، لا أحد ينكر سعادتها، لا أحد يتخيل إن هذه الفتاة قبل أيام كانت تبكي حزنًا على فراق حبيبها القديم، كان يردد لنفسه وهو ينظر لها:

«هذا ما أردته يا ياسين، هذا ما صنعت، ألم تتمنَ أن تتزوج رقية من رجلٍ يعوضها ويُغنيها عن كل أيام الحرمان التي عاشتها؟ ها قد حدث، هذا ما تمنيته».

تنهد ياسين وكأنه يُعارض نفسه:

«كل أب يحب أن يرى أولاده في حالٍ أفضل منه، لكن رقية لم تكن ابنتي بل حبيبتي، كنت أقول لها مثل هذه الأشياء لتعرف صعوبة الحياة معي، كنت أتمزق وأنا أقول لها غدًا ستتزوجين رجلًا أفضل مني، كنت أقتل نفسي بالكلمات قبل أن أقتلها، أردت أن تستوعب إنني لا أملك حيلًا كافية للحفاظ عليها، لكن لا أحد يعلم شقاء رجلٍ يترك حبيبته لرجلٍ آخر، يلامسها ويداعبها ويعانقها، يتحدث معها ويراها كل يوم، ويقضي حياته معها، وهو الذي تمنى أن يعيش ساعة واحدة معها، لا أحد يعلم شقاء أن تضع السم في وعاء قلبك، أن تسلم روحك لشخصٍ آخر لأنك لن تحافظ عليها أو لأنك تخشى عليها من الضياع».

يرد صوت بداخله ساخرًا:

«أي ضياع يا رجل؟! لقد ضاعت بالفعل، لم يعد مسموحًا لك التحدث إليها، لم يعد بإمكانك اللجوء والذهاب إليها في أي وقتٍ مثلما كنت تفعل، أصبحت مُحرمة وبعيدة جدًا عنك، لم تعد وطنك الذي تلجأ له، لن تحتويك بعد الآن، لن تنصت لك، لقد أضعتها أنت، حرمت نفسك منها وبرغبتك، قررت التخلي عن الوحيدة التي أحبتك بصدق، التي تحملت معك شقاء الفقر والتعب، والتي كانت

مستعدة للتضحية بكل شيءٍ في سبيل رضائك، قررت التخلي عن فتاةٍ كان بإمكانها أن تحارب العالم لأجلك، صديقة الطفولة والمراهقة وحبك الأول والوحيد، الآن هي مع رجلٍ آخر، ستقضي أيامها وتعيش حياتها معه، سينعم بدفئها وحنانها وطيبة قلبها، سينعم بكل الأشياء التي حرمت نفسك منها لأنك وكما قالت لك غبي يا ياسين!».

فجأة التقت العيون والنظرات، تيبست رقية في مكانها، شريط من الذكريات مر عليها.

«ياسين الرجل الوحيد الذي أحببتيه من كل قلبك يا رقية، الآن يقف بعيدًا جدًّا عنك، ما هذا الشحوب؟ يبدو إنه مرهق كثيرًا، مسكين ما الذي عاد به إلى مصر؟ اللعنة! لم يعد مسموحًا الآن التفكير في أمره.

لأول مرة يجمعني بك يا ياسين مكان واحد ولا أكون بجوارك، للمرة الأولى أحتمي برجل آخر غيرك، طيلة حياتي كنت أحتمي بك من العالم، الآن أصبحت مثل العالم أشد خطرًا عليّ، الآن لم يعد مسموحًا لي الاقتراب منك أو حتى التدقيق في ملامحك الحزينة الجميلة التي أحببتها من كل قلبي».

ووسط الضجيج والزحام كان للنظرات حديث آخر:

ـ أنا جميلة، أليس كذلك؟

ـ أنت دائمًا جميلة يا رقية، أجمل مما تتخيلين وتظنين.

ـ لم أختر هذا الفستان.

ـ يبدو غنيًّا ورائعًا على أي حال.

- لا إنه قبيح، أشعر إنني أرتدي كفنًا أبيض، لا تغرك كل هذه الألماسات، إنها تخفي حقيقة ما بداخلي، إنه قبيح وفقير جدًا، أشعر إن جسدي عاريًا تمامًا، الوشاح الذي أعطيتني إياه في ديسمبر الماضي يدفئني أكثر من هذا الفستان، إنه قبيح يا ياسين، أقبح ما ارتديت في حياتي، لأنني ارتديته لرجل غيرك، أفقر مما تتخيل، هو خالٍ من السعادة والأمنيات، فارغ الرغبة في ارتدائه، هو خالٍ من الفرح يا ياسين، أنا لم أختر أي شيء، لم أقف أمام مرآتي وأبتسم وأغني لأنني أخيرًا أصبحت عروسًا، لم أهتم بتفاصيل اليوم، لم أسأل عنها من الأساس، قضيت ساعات وساعات من البكاء رافقني حتى باب القاعة، قضيت ساعات وساعات وسأقضي سنوات وسنوات حدادًا عما حدث، لم أتصل به لأتناقش معه فيما سيحدث، لم أتحدث معه في الهاتف، لم أسأله عن الأشياء المفضلة التي يتمناها في هذا اليوم، لم أعش تفاصيل الفرح يا ياسين، لم أعش إلا صورة، مجرد صورة جميلة، لكن هذا الفرح الذي تراه رائعًا ويليق بي ما هو إلا عزاء بطقوس مختلفة، هل تشعر بي؟ هل تشعر بقلبي وحزنه وحداده على ما فعلت به؟ يا لك من غبي يا ياسين!

بعد ثوانٍ استعادت رقية ذهنها وواصلت الرقص مع زوجها وهي تضحك وتغني، سرعان ما استعاد ياسين هو الآخر ذهنه، لم يكن الحديث صادقًا، بل صنعه في مخيلته ليهون على نفسه مأساة ما شعر به حين رآها مع رجلٍ آخر.

خرج ياسين من القاعة، خرج تاركًا مع تبقى من قلبه معها.

خرج ياسين متجهًا نحو المجهول، فلم يعد يملك في حياته إلا أنفاسًا متقطعة على وشك أن تتوقف تمامًا.

بعد عدة محاولات أجاب على مكالمات داليدا التي أخبرته إن مروان طلب يمنى، وأخبرها أن تخبرهما إنه ينتظرنا جميعًا الآن في الإسكندرية.

الأضواء خافتة.

يرن الهاتف:

ـ حسنًا، سأتحرك الآن.

تقف المرأة أمام مرآتها وتتزين، وطفلة في عامها الثاني تصرخ.

تقترب منها:

ـ هذه الملابس دخيلة على أمك، ألا ترين؟ أنا فاتنة.

تواصل الطفلة الصراخ، تشعل السيدة سيجارتها وتنفث دخانها في وجه الرضيعة:

ـ كفاكِ صراخًا لا أحب هذا العويل.

الفصل السابع عشر

«يقُولون إن المَال لا يَشْتري السَّعادة، لكنَّني أُفضِّل البُكَاء فِي سَيَّارة فيراري».

جيسون ستاثام

الثانية فجرًا.

نام يا صغيري نام..

نام فغدٍ أفضل ينتظرك..

سيبدأ بضحكتك..

نأكل ونلهو..

نشاهد التلفاز ونغني..

ولن ينتهي اليوم إلا وأنت على سريرك..

لينتظرك غد أفضل وأفضل..

نام يا صغيري.. نام.

وضعت السيدة ابنها الصغير على سريره، ثم اتجهت لغرفتها.

ـ آاه يا إلهي! لقد نام بعد معاناة.. إنه مثلك تمامًا يا ديفيد لا ينام بسهولة، ترى في ماذا يفكر هذا الصغير قبل نومه؟

ضحك ديفيد:

ـ لندع الطفل لأحلامه الوردية ولنلحق به نحن.

ردت السيدة معترضة:

ـ أنت تقول هذا كل يوم لتجعلني أتوقف عن الكلام، ثم تتظاهر بانك نائم لكنك تظل مستيقظًا.. أخبرني بما يدور في رأسك يا حبيبي.

لم يرد ديفيد على كلمات زوجته التي واصلت غاضبة:

ـ إذًا هو الحنين يا ديفيد، هو الحنين، ما زلت تحبها وتفتقدها يا ديفيد، ظننت إن زواجنا سيمحيها من قلبك وهذا ما لم يحدث، تحملت لأنني أحبك، حتى رزقنا بطفلٍ كنت قد انتظرته طويلًا، وهنا ظننت إن أمرها سينتهي تمامًا من حياتك، وهذا أيضًا ما لم يحدث، بل ظللت تتابعها وتتواصل معها، وهو الأمر الذي أثار عداوتك أكثر مع جورج، والآن نحن مهددان بالقتل في أيةِ لحظة.

قاطعها ديفيد وهو ينفث بأنفاسه شاعرًا بالملل:

ـ أنا لا أفهم عن أي شيءٍ تتحدثين يا جيانا؟

ضحكت وهي تشد الغطاء مستعدة للنوم:

ـ عن زوجة جوروج يا ديفيد، ألد أعدائك، عن لورين حبيبتك التي لن تنساها أبدًا.

لم يرد ديفيد شاهين، أشعل سيجارته بعد أن أسند ظهره على السرير وظل يفكر:

ماذا سيحدث لو صفعتك الأيام فجعلت حبيبتك تقبل الزواج من ألد ألد أعدائك؟ أن تخوض حربًا ضده بينما تخشى عليها أن تخوض معه نفس الحرب ضدك فتبقى عالقًا في المنتصف تخشى أن يقتلك وتخشى أن تصيب طلقاتك قلبها فيصاب قلبك؟

سمع ديفيد شاهين صوت حركةٍ في الصالة، أمسك مسدسه ثم تحرك بهدوء.

ما إن فتح الباب حتى انقض عليه أربعة رجال شداد، ربطوا يديه بحبلٍ ثقيل، وضعوا شريطًا لاصقًا على فمه، ثم وضعوه على كرسي رابطين قدميه، صرخت السيدة على سريرها، فاندفع الرجال نحوها، من شعرها ألقوها على الأرض، ثم سحبوها، ووضعوها أمامه، كانت الصالة مظلمة يصعب على أي شخصٍ الرؤية بوضوح، بعد ثوانٍ تحركت أقدام ناحية الباب، دخل رجلٌ ضخم، ثم أضاء النور، أمرهم بنزع الشريط اللاصق من على فم ديفيد، ثم وقف أمامه:

ـ أهلًا ديفيد، أعتذر لك عن هذه الزيارة المفاجئة، لكن الأمر ضروري.

بغضبٍ قال ديفيد:

ـ جورج، للمنازل حرمة لقد تخطيتها.

ـ أنا رد فعلٍ يا ديفيد..خلافاتنا في البورصة والأسواق لها ميادينُ مختلفة نتصارع فيها.. هذا ميثاق الشرف الذي نحترمه جميعًا.. لذلك تأكد إن هذه الزيارة لها طابع خاص.

ـ ماذا تريد بالضبط؟

ـ لا أريد منك أنت.. لقد تخطيت حرمة منزلي، لكن أكثر ما قمت به هو محاولة الاتصال بزوجتي، أما عني فرد اعتباري أشد مرارةً، لا تقلق أنا وفيٌّ جدًّا لزوجتي، لذلك لن أشارك فيما سيقوم به هؤلاء الرجال.

اقترب جوروج ناحية رجاله وهو يعطي رجاله بعض العقاقير:

ـ هذه العقاقير جديدة من مدريد، مستخلصة من عقاقير يعطونها للثيران في موسم التزاوج، لنرى فاعليتها.

ـ سأقتلك يا جورج!

تقدم جورج ناحية غرفة الطفل وهو يقول:

ـ ليرى چوماني هذه الحفلة الجميلة.. يا لسعادتك ستشاهد أول فيلم جنسي في هذا الوقت والبطلة هي أمك! محظوظ أنتَ.

حمل الطفل على يديه، ثم وضعه على قدمه وهو يداعبه.
نظر إلى رجاله الذين بدأ عليهم مفعول العقار:

ـ حسنًا، أريد أن أرى قوتكم، آخر وأكثر من يقذف السائل المنوي عليها له مكافأة ضخمة مني.

حاول ديفيد النهوض من على الكرسي، أخرج جورج خنجرًا صغيرًا، وحرَّكه على رقبة الطفل وهو يقول لديفيد بهدوء:

ـ كفاك ضجيجًا يا ديفيد، هذا الخنجر يثيره الضجيج، هيًا يا رجال لا يزال أمامنا الكثير من العمل!

انقضَّ الرجال على زوجة ديفيد شاهين، مزقوا كل ملابسها، وانهالوا عليها بالقبلات في كل مكانٍ وهي في حالة صراخ.

تصرخ السيدة، وتصرخ، ويحاول ديفيد النهوض من على الكرسي:

ـ اصرخي يا جيانا اصرخي.. يا لك من محظوظ يا ديفيد! كنت تستمع بهذه التأوهات وحدك.

ازدادت قسوة الاغتصاب، مارس الرجال التهام جيانا كذئابٍ عثرت على صيدٍ ثمين.

انهال الأربعة رجال على الجزء الخلفي والأمامي السفلي لـ (جيانا) بعدما مزقوا نهديها من فرط شهوتهم.

ـ استمتعوا يا رجال، استمتعوا! حسنًا أحضروها لي الآن.

سحب الرجال جيانا تحت أقدام جورج.

ـ أحب تقبيل الأقدام يا جيانا.. لتفعلي هذا.

رغم إنها شبه فاقدة للوعي تمامًا.. رفضت أن تُقبل قدميه، بل صرخت:

ـ يا ابن العاهرة! ستنال عقابًا قاسيًا مني.

ضحك جورج:

ـ لك لسان سليط مثل أخيك بولو لهذا ستلحقينه.

بصق في وجهها، ثم قال لمساعديه:

ـ حسنًا ما زلت لم أكتفِ.. أنا رجل سادي أحب الدماء، رجلان من الخلف ورجلان من الأمام، أريد أن أرى اغتصابًا دمويًا.

انهال الرجال على جيانا.. تحرك جورج ناحية ديفيد وهو يضع يديه على كتيفه:

ـ زوجتك جميلة جدًّا يا رجل.

تدريجيًا فقدت جيانا الوعي.. واصل جورج تشجيعهم وتحفيزهم:

ـ أريد أن أرى دماءً أكثر.

سالت الدماء في كل مكان، كان جسد جيانا أشبه ببركة دماءٍ لا تهدأ.

بدأ التعب يظهر على الرجال بعد أكثر من ساعتين يغتصبون جيانا التي فقدت الوعي حتى ماتت.

- لنبدأ اللعب يا رجال.. آخر من سيخرج قضيبه له مكافأة ضخمة.. ١٠/٩/٨/٧/٦/٥/٤/٣/٢/١/٠.

حسنًا المكافأة لكم جميعًا.

ترك الرجال جيانا غارقة في دمائها.

- الآن عودوا حيثما أتيتوا وطهروا أجسادكم من هذه العاهرة.

خرج الرجال، بينما ظل جورج واقفًا أمام ديفيد:

- المعذرة! لقد أفسدنا سهرتكما.

- اترك الطفل يا جورج.

- لا تقلق، لا أعرف أحدًا مصابًا بالبيدوفيليا.

كررها ديفيد:

- اترك الطفل يا جورج.

- قلت لك لا تقلق سيكون معي، هذا أأمن مكان يمكن الحفاظ عليه، خصوصًا إن والده رجل مختل.

حمل جورج الطفل وخرج من الباب وهو يقول:

- هيًا يا صغيري لتنعم معي بحياةٍ أفضل.

اللعنة!

استيقظ ديفيد شاهين من كابوسه.. حادث مر به قبل خمسة أعوام لا يزال عالقًا في ذهنه، يراه كل يومٍ في منامه، فقد زوجته ولم يرَ ابنه حتى الآن، في قانون العصابات ماً حدث في المنزل يبقى في

المنزل، وهذا بالضبط ما حدث مع ديفيد، لم يستطع حتى الانتقام من قتل زوجته وخطف ابنه.

نهض ديفيد على صوت ماري التي كانت تنتظره في الخارج:

ـ صباح الخير سيدي، سيبدأ الاجتماع بعد ساعةٍ من الآن.

ـ عظيم، أعدي لنا القهوة من فضلك.

ارتدى ديفيد وعلى غير العادة بدلة رمادية، هندم ملابسه بعد أن وضع مسدسه في جيبه، ثم خرج ليشرب القهوة مع ماري التي كانت قلقة بشأن هذا الاجتماع..

أشعل ديفيد غليونه وسألها:

ـ من سيحضر في هذا الاجتماع؟

ردت ماري:

ـ أخبرني مدير مكتب السيد بيربتوف إن هناك أعضاءً جددًا قادمين من الشرق الأوسط، لم يُحدد وجهتهم، لكنه نبه على الحضور مبكرًا، وبالطبع بقية أعضاء التحالف.

رد وهو ينظر لقهوته:

ـ وجورج؟

ـ أول الحاضرين دائمًا، أنت تعرف أن هذا الرجل لن يسمح أن يفوته اجتماع مثل هذا.

ـ حسنًا، هيًا بنا!

خرج الاثنان وتحرك السائق نحو فندق «نابولي وايت بيتش»، في الطريق سأل ديفيد عن المستجدات حول الأربعة أصدقاء، فقالت ماري إن مساعدها أعطى لهم أربعًا وعشرين ساعة مهلة حتى يتخذوا قرارهم الأخير، ثم قالت:

ـ أنا لا أثق في هذا الشاب.

رد ديفيد:

ـ ستعرفين فيما بعد لماذا اخترت لكِ هذا الشاب تحديدًا ليساعدك.

وصل السائق أمام البوابة الخلفية للفندق، فتح الباب لـ ماري وديفيد، وصعد بالمصعد للطابق الأربعين.

في الأعلى صالة اجتماعات كبيرة، منع حارس القاعة ماري من الدخول تنفيذًا لأوامر سيده، لم يعترض ديفيد ودخل بمفرده.

أذن بيربتوف له بالدخول والجلوس، جلس ديفيد أمام جورج الذي ابتسم لـه باستفزاز.

بدأ السيد بيربتوف الاجتماع:

ـ ضعوا أسلحتكم الشخصية من فضلكم.

وضع الحاضرون أسلحتهم الشخصية على الطاولة، بينما أخرج جورج مع مسدسه صورته مع لورين يتوسطهما طفلان.

رأى ديفيد الصورة وبقلب أب مزقه الاشتياق نظر إليها متلهفًا، لكن سرعان ما أخفاها جورج.. هذا بالضبط ما أراده.

- حسنًا، لأعرفكم ببعضكم البعض.. على يميني.. جورج باسيو مدير وصاحب أكبر شركة عقارات ومنشآت سياحية في إيطاليا واليونان، والممول للتحالف بنسبة ٢٥٪.

بجواره السيد إيفانوفيتش صاحب أكبر وأهم شركات استيراد أسلحة مرخصة، والممول العسكري الأول لأغلب حكومات غرب أوروبا، والممول لتحالفنا بنسبة ١٥٪.

بجواره السيدة صوفيا، وهي وزيرة صحة سابقة في إحدى الحكومات المهمة، وتملك ما يكفي لإغراق العالم في الكوكايين والهيروين، وهي الممولة لنا بنسبة ١٥٪.

بجوارها ضيفنا الجديد وأمامه ضيفنا الآخر.

بجواره السيد يوهان عزرا وزير الصناعة لإسرائيل، وصاحب أكبر وأهم شركات مستودعات الغاز والبترول في الشرق الأوسط، وهو الممول الرابع لنا بنسبة ١٥٪.

يجاوره السيد كاستلو صاحب أكبر شركات للأغذية المستوردة والممول لنا بنسبة ١٠٪.

وأخيرًا السيد ديفيد شاهين السيناريست المعروف، وصاحب أكبر شركات السياحة في إيطاليا، والممول لتحالفنا بنسبة ٢٠٪.
الآن نحن هنا لنحتفل بانضمام السيد مكرم أبو العزم صاحب أكبر شركات صرافة في الشرق الأوسط، والسيد يوسف المهندس عضو سابق في مجلس الشعب، وصاحب أكبر شركات للعقارات والمنشآت الطبية في الشرق الأوسط أيضًا.
نأمل أن يساعدانا ونستفاد من انضمامهما لنا!

رد الاثنان:

ـ ونحن نأمل في هذا.

واصل السيد بيربتوف:

ـ إن مطامعنا في الشرق الأوسط كبيرة، خصوصًا بعد انهيار أغلبه بعد ثورات الربيع العربي، لذلك نحن نريد الاستفادة من هذا التفكك بأكبر قدرٍ ممكن، لذلك قررنا الاستعانة بضيوفنا الأعزاء وفتح سوقٍ جديدٍ هناك.

ضحكت صوفيا:

ـ الجميل في تحالفنا أنه استطاع أن يجمع ألد الأعداء عبر التاريخ.

نظر ديفيد شاهين بغضبٍ لـ صوفيا التي واصلت:

ـ رجلان مصريان ويوهان الإسرائيلي!

ضحك يوهان:

ـ نحن أصدقاء مهما أنكر المصريون هذا.

رد بيربتوف:

ـ لندع الحروب لأهلها، الآن أقترح على الأعضاء القدامى نقل أعمالهم إلى مصر ومساعدة الرجلين.

قالت صوفيا:

ـ أحب الحياة في مصر، لكن لا تزال لدي بعض الأعمال العالقة هنا، ولن أستطيع الرحيل قبل عامين من الآن.

قال جورج وهو يصب لنفسه كأسًا من النبيذ:

ـ اسمح لي سيدي، ما تطلبه منا صعب لذلك لدي اقتراح، شركات شاهين تنهار، لذلك ما رأيه لو اشتريتها منه، واتجه هو لمصر بما يحمله من ثروة؟ مصر أرض خصبة للسياحة والاستثمار، حتمًا ستتسع له، على الأقل سيُرضي فشله في إدارة السياحة في إيطاليا، أُشفق عليه من شعور الفشل، هذا الرجل مكافح لا يستحق ما وصل إليه في الفترة الأخيرة.

رد ديفيد شاهين وهو يبتسم:

ـ ممتنًا لتعاطفك وتضامنك معي، لكن لمعلوماتك، أسهم شركاتي في تقدمٍ مستمر، ولست في حاجةٍ للخروج من إيطاليا، ولا أتمنّى أن تخرج أنت أيضًا.

قاطعه جورج وهو يهز رأسه:

ـ نحن أصدقاء، نعم نعم.

ابتسم ديفيد:

ـ بالتأكيد نحن أصدقاء، وكل منا يدفع الآخر للأمام، لكن كان عليك قبل أن تأتي أن تراجع معلومات البورصة.

بخبثٍ وهدوء قال جورج:

ـ اعذرني يا رجل، أملك طفلين في بداية سن المراهقة، أنت بالتأكيد لا تعلم صعوبة هذا الأمر.

كتم ديفيد غضبه، قاطعهما إيفانوفيتش:

ـ حسنًا، أنا بالفعل لدي أعمال في مصر وليبيا وسوريا، لذلك أوافق على السفر هناك مع ممارسة عملي هنا.

ـ حسنًا، اقتراح جميل.. حسنًا، لنذهب للغداء، ومن ثَمَّ سأواصل الاجتماع مع ضيوفنا الأعزاء وإيفانوفيتش.

أنهى بيربتوف الاجتماع، وقبل أن ينصرف الجميع طلب من ديفيد وجورج البقاء.

العجوز بيربتوف كان يعرف أن ثمةَ ضغينة بين الرجلين، لذلك كان يحاول دائمًا أن يُهدأ الأمور بينهما.

ـ سمعت بـ خبر مقتل «ميشيل» حارسك الشخصي يا ديفيد.

رد جورج:

ـ ميشيل قُتل! مسكين، كنت أحب هذا الرجل كثيرًا.

نظر بيربتوف لـ جورج ثم قال لـه:

ـ الأجواء في إيطاليا مشحونة، أتمنى أن يتوقف الصراع بينكما.

نهض جورج ووضع يديه على كتفي ديفيد:

ـ أي صراع يا سيدي؟ أنا حزين لأنني لم أقدم العزاء لـ ديفيد، لكن هذا لا يعني إنني مسؤول عن قتل حارسه الشخصي، على أي حال أنا شخص مُسالم أعرف الواجب جيدًا، أتتذكر يا ديفيد؟ ألم أكن أول من يعزيك في وفاة زوجتك وساعدت السيد بيربتوف في العثور على طفلك؟ صحيح إننا فشلنا ولم نجده، لكننا حاولنا، إياك أن تنكر المعروف يا ديفيد! تُرى كيف شكله الآن؟

تذكر ديفيد ما حدث، خصوصًا بعد أن وضع جورج يديه على كتفيه؛ فأطاحهما بعيدًا عنه:

ـ عزاء مقبول يا جورج، لا تقلق سيد بيربتوف، لا أملك أيةَ نية لرد فعل، لقد قُتل حارسي بالخطأ وانتهى الأمر.

رد جورج:

ـ أنت دائمًا مُمتن لي يا ديفيد.

رد ديفيد:

- دائمًا يا جورج.

ضحك الآخر:

- وللأبد.

أذن بيربتوف لديفيد وجورج بالخروج، فخرج الرجلان دون أن يتحدثا مع بعضهما البعض.

ركب ديفيد مع ماري السيارة واتجها إلى المكتب، في الطريق لم ينطق بكلمة واحدة، حاولت ماري استدارجه بالكلمات لكن دون فائدة، وصل إلى المكتب، جلس ديفيد على مكتبه متأملًا صورة صغيره الغائب، وبدأ في الكتابة:

تمر الأيام..

تمر الأيام..

باردة وعادية ومملة، نحن لا نكبر بالعمر، نحن نكبر بالمواقف والتجارب الصعبة، في قلب كل منا قصة أصعب من أن يرويها وأقسى من أن يحتفظ بها في قلبه، هو وحده يعلم قسوة مرارتها، وهو وحده يشعر بأنينها، في قلب كل رجلٍ قصة مأساوية، حلم جميل لم يكتمل، وهزائم أعلن عليها الحدادَ سرًا في الخفاء، إن رغبتي الوحيدة في الحياة هي النجاة، أريد أن أنجو بنفسي من نفسي، فلقد عذبني الصمت وهزمتني الظنون، يا جوماني إن الأيام الصعبة وطويلة جدًّا، تفقدك كل يومٍ جزءًا حيًّا فيك، إن الأيام الصعبة تمر على قلوبنا وأرواحنا فتسلبُ رغبتك في الحياة، تفقدك الرغبة في ممارسة

أبسط مهامك اليومية.. تهمس لك في كل صباح: «هيًا استيقظ يا تعيس! لتبدأ يومًا آخر لم تختره لتلتقي بأشخاصٍ لم تخترهم، بل ينتظرون لحظةً مناسبة للانقضاض عليك والنيل منك في حياةٍ لا تحبها من الأساس».

- لم تسلم من سخافات جورج أليس كذلك؟

لم يرد ديفيد.. كررت ماري سؤالها.

أشعل ديفيد سيجارته بعد أن استعاد ذهنه:

- دعكِ من هذا الوغد.. أريد البدأ في أسرع وقتٍ يا ماري.

هناك سؤال يراودني:

- لماذا سمحت لهم بالعودة إلى مصر؟
- لأنهم ليسوا مجرمين يا ماري.

لم أختر هؤلاء عشوائيًا، هؤلاء بينهم حلقة وصلٍ لا يعرفونها، حتى أبعد من رغبة الانتقام نفسها، في حياة كل هؤلاء طرف أريد الانتقام منه، هم لا يعرفونه، لذلك كان قرار العودة إلى مصر صائبًا، حتى تحدث المشاحنات التي خططت لها، قد لا تفهمين كلماتي الآن، لكن مع الوقت سيتضح لكِ كل شيء.

هزت ماري رأسها مؤكدة لكلام ديفيد إنها لم تفهم.

ديفيد بالنسبة لـ ماري رجل غامض، هي تعرف الكثير عنه، وتعلم إن ما تعرفه ما هو إلا نقطة في محيطٍ لا نهاية له، هو بالنسبة لها ابنها وصديقها الوحيد، تخاف عليه، وتعارضه دائمًا في كل خطواته الخطرة، لكن ما باليد حيلة، مجرد معارضة تنتهي بردود ديفيد الجافة، هي تعرف مكانته جيدًا في قلبها، لكن لا تعرف مكانتها أبدًا في قلبه، ولم تحاول معرفة هذه المكانة.

من الذكاء أحيانًا عدم سؤال شخصٍ تحبه عن مكانتك في قلبه، يكفي أن تحبه، تحبه فقط بلا مقابلٍ، وماري تحب ديفيد حبًا طاهرًا بلا نشوة، بلا رغبة في الزواج، حبًا فقط من أجل الحب أو كما يقول الشيخ إمام: «إن كان أمل العشاق هو القرب.. أنا أملي في حبك هو الحب».

سألها ديفيد شاهين:

- وأنتِ وبعدما أخبرتك وعلمت بحياتهم ورأيتهم، ما رأيك بهؤلاء الشباب؟

- مساكين يا ديفيد.. مساكين، هؤلاء من صُنع مواقف وتجارب قاسية مرت عليهم في سن صغير حطمتهم، حطمتهم وغيرتهم تمامًا، لكل منهم قصة كفيلة بهزيمة أي شخص، لكنهم واصلوا حياتهم بقلوبٍ مُنكسرة، وأحلام شبه منعدمة.

خذلهم أقرب المقربين لهم؛ أصدقاؤهم وعائلتهم، حتى الحياة لم تكن رحيمة بهم فهزمتهم شر هزيمة،

أنا مُشفقة على هؤلاء لأن بداخلهم طاقة لو خرجت لهدموا العالم، في قلوبهم سنوات من البكاء، ليالٍ قضوها متأثرين بمأساتهم، أيام صعبة مرت كعقارب ساعتهم تلدغ قلوبهم الهشة، وأمنيات وأمنيات ظلت عالقة في السماء حتى تناسيت تمامًا، إن دوافع هؤلاء في القتل والانتقام كبيرة جدًّا، كبيرة وقد ظهرت سريعًا على ياسين الذي قتل أخته، لم يتحمل هزيمة جديدة، فكان القتل عنده أهون من العار كما قال.

ياسين كان سيوافق، حتى قبل ما حدث كان سيوافق، رغبته في محو كل أيام الفقر التي عاشها كانت ستدفعه للموافقة لا محالة، اليأس يا ديفيد عدو الإنسان الأول، اليأس بعد محاولاتٍ عديدة للوصول أشد خطورةً من اليأس وأنت لم تتحرك من مكانك، الذين تشبثوا بالأمل عانوا منه أكثر من الذين فقدوه في بداية الطريق، اليأس هو من يدفع الشرفاء حين يفقدوا الأمل في الثراء بأن يسلكوا طريق السرقة والنهب، اليأس هو من يدفع الموهوبين للانتحار لأنهم لم يجنوا من موهبتهم إلا الشقاء والتعب.

من يجعل كل ذي علم يتخلى عن علمه، وكل ذي مبدأ يتخلى عن مبادئه، وكلَّ مُسالم بأن يتحول لشخص شرس عدواني لأنه لم يجنِ من سلميته إلا كرامة مُهانة ومستهانة

من الناس والمجتمع؟ كم قصص عاطفية انتهت لأن أحد أبطالها شعر باليأس؟ هو من يجعل المحارب يستسلم في معركته لأنه يأس من الحرب، ويأس من الانتصار، ويأس من قدرته على مواصلة القتال، جرائم قتل وظلم وفساد وأشخاص يأسوا من الحياة فانتحروا. اليأس هو من يدفع الإنسان ليكون شخصًا آخر لا يشبه.

اليأس هو من يقودنا لأفعالٍ كنا نقسم ألا نفعلها أبدًا. لذلك أثق إن ياسين سيوافق يأسًا من حياته الحالية.

واصلت ماري:

- مروان سلطوي وعدواني ونرجسي، نرجسيته واضحة، هو يرى نفسه أفضل من أصدقائِه، أفضل منهم في كل شيء، هذا ما تعلمه في الخدمة العسكرية، أفضليته عن العامة، الغريب وحسبما علمت إن مروان كان شخصًا متواضعًا جدًّا ومحبوبًا من زملائِه وجيرانه، لكن بعد فصله من العمل صُدم بحقيقة مشاعر كل من حوله، فقد بريقه، ولم يجد الاحترام والحب الذي اعتاد عليهما في الماضي، هذا الرجل عاش قصة حبٍ أليمة انتهت فجأة، لكن كانت نهايتها هي المسمار الأخير في نعشه، فقد رحلت عنه حبيبته بعد أن أهانته، لم يتحمل مروان أن يهان ويفقد احترامه في كل شيءٍ

وفي لحظةٍ واحدة، انتقل بعدها للمصحة النفسية، لكن دون جدوى، بل بدأ ظهور النرجسية عليه حسبما قال الأطباء، فبدأ يتعامل معهم بتعالٍ وغرور، يُحدِّث المرضى عن إنجازاته في حياته القديمة، بل صنع لنفسه بطولات وهمية أقنع نفسه وأقنعهم بها، رغم نرجسيته، لكن ليس الرجل العربيد الذي يهوى معاشرة النساء، ومع ذلك لو عرضت عليه الزواج من فتاة أو معاشرة كل يوم فتاة ليلٍ سيختار معاشرة فتاة الليل؛ لشعورٍ بالتعالي عليّها، هو من اختارها، وهو من اشترى متعته بأمواله، ويستطيع بسهولة التحكم وفرض عليها كل رغباته أثناء المعاشرة دون الاهتمام برغبتها وميولها، هو لا يريد المتعة، إنما يريد السيطرة، يريد شعور الانتصار، وإنه السيد والحاكم، يحب أن يشعر دائمًا بالتميز والانفراد عن الجميع، لا يهتم لمشاعر أي شخص، لا يفكر ولا يحب إلا نفسه، يرى كل العالم خُلق لطّاعته ورغباته.

شخص مثل هذا يجب التعامل معه بحذر؛ لأنك وحين تقدم له سيظن إن عطاءك أمر واجب وحتمي عليك، مروان يُحب كل ما له علاقة بالسلطة والسيطرة، لذلك لن يوافق على الانضمام لنا، لن يرضى أن يكون هناك من يوجِّههُ، يأمره ويفرض قوته وسلطته عليه، لن يوافق إلا حال شعر بالاهتمام منا وبرغبتنا في انضمامه لنا.

ليس في داليدا شيء آخر يستحق التحدث عنه أكثر من كونها عاطفية بشكلٍ كبير رغم حدتها الظاهرة في أغلب تصرفاتها، أتوقع إنها ستوافق لو أثر عليها أحد أصدقائِها، خصوصًا إنه وعلى الرغم من كل ما حدث معها إلا إنها لا تملك ميولًا عدوانية أو رغبةً مُلحة في الانتقام.

صمتت ماري وكأنها أنهت تحليلها البسيط، فسألها ديفيد عن يمنى فقالت:

ـ هذه الفتاة لا أفهمها، شيء ما غامض في شخصيتها، تشعر إنها مزيج من عدة شخصيات، لا يمكن فهم ما يدور بداخلها، تصرفاتها نفسها غريبة، سلوكياتها تجاه نفسها أغرب، فجأة تشعر وكأنها أنثى جميلة تهتم بأدق تفاصيلها وجمالها، وفجأة تشعر إنك تتعامل مع أنثى فاقدة لكل معاني الأنوثة، كلمات رقيقة مع كلمات حادة، صدقًا أنا لا أفهمها ولا أملك توقعات بشأن الموافقة أو الرفض.

أنصت ديفيد باهتمام لكل كلمات ماري.. ثم سألها:

ـ متى سيأتي ماثيو وإيزبيلا؟

وهي تقرأ جدول المواعيد:

ـ في طائرة السابعة مساءً.

لم يُحدثك ماثيو عن نتائج هذه الرحلة أليس كذلك؟

ـ لا، قال إنه يحتاج إلى التحدث معك فقط.

أشعل ديفيد غليونه.. ثم قال لها:

ـ لقد حددت الهدف الأول.

سألته:

ـ مَن؟

فردَّ:

ـ دعينا ننتظر ما سيحدث في مصر أولًا.

الإسكندرية/ منتصف الليل.

توجه الأصدقاء إلى أحد الشاليهات الخاصة في حي العجمي حسبما قال لهم مروان الذي كان في استقبالهم، وصول مفعم بالتساؤلات يتبعه لا محالة قرارت لن تعود الحياة قبلها كما كانت.

دخل كل منهم إلى غرفته دون أن يتحدث مع الآخر، وبعد ساعةٍ دعاهم مروان للعشاء، رفض ياسين الخروج، لذلك لجأ مروان لداليدا لتقنعه إن هناك اجتماعًا طارئًا، ولا بُد من حضوره، أقنعت داليدا صديقها، وجلس ليتناولوا العشاء معًا، سأل ياسين مروان دون أن ينظر له:

ـ أين ميادة؟

رد مروان:

ـ لقد دفُنت في مقابر المنارة بالإسكندرية، لا تقلق، بإمكان أمك أن تزورها وقتما تشاء، صحيح دفُنت باسمٍ مُستعار، لكن لم يكن هناك حل أفضل من هذا.

أنهى الأصدقاء عشاءهم، ثم خرجوا للجلوس على الشاطىء مجتمعين حول طاولةٍ واحدة عليها.

بدأ مروان كلماته:

ـ نحن هنا لنتخذ قرارًا بشأن العرض المقدم إلينا.

ضحكت يمنى:

ـ هل أصبحت تعمل معهم؟

دون أن يكترث لسخريتها واصل:

ـ لكل منا حق الرفض أو الموافقة بما فيهم أنت يا ياسين.. هكذا أخبرني مساعد ماري.. الآن لنتخذ قرارنا الأخير.

ساد صمتٌ طويل بينهم حتى قال ياسين:

ـ تعرفون قراري مسبقًا، أنا موافق ومُستعد للبدء من الآن.

ردت داليدا:

ـ أنت لست في حالةٍ تسمح لك باتخاذ قرارٍ مصيريٍّ مثل هذا.

رد ياسين يائسًا:

ـ ومنذ متى كنت في حالةٍ تسمح لي باتخاذ أي قرارٍ مصيريّ؟ ماذا تعني الحالة من الأساس؟ تقصدين الظروف المناسبة التي تُهيئ المرء لاتخاذ قرار مصيري

في حياته؟ إن حرية اختيار القرار نفسه رفاهية لم أملكها في حياتي، كلمة حرية نفسها لا يُعترف بها في قاموسنا، نحن سجناء طوال الوقت، سجناء في فقرنا وضعفنا وجهلنا، نحن ورغم اتساع العالم لا يتسع لنا، حالة تسمح باتخاذ قرار مناسب؟! وأي قرار مناسب تنتظرينه مني؟ ألا أوافق؟

جميل لن أوافق.. سأبقى هنا هاربًا من العدالة يرتعد قلبي كلما رأيت أحد رجال الشرطة يمر بجواري، أرتعد أثناء نومي وأنا أتخيل حبل المشنقة يلتف حول عنقي لينهي حياتي، لن يعود بإمكاني العمل أو الخروج من مهربي إلا للضرورة القصوى، لن أطمئن على عائلتي، لن يوافق أحد على زواجي من ابنته، سأقضي أيامي هنا في الظلام حتى يبتلعني تمامًا.

وإن لم أقضِها هاربًا فسأقضيها مهزومًا، وأنا أرى نظرات الحسرة والحزن في عينيها سواء في حظها التعيس أو في تربيتها التي لم تحسنها، أو نظرات أختي الثانية وهي تعاتبني وتخشى الاقتراب مني، تراني قاتلًا قاسيَ القلب أنهى حياة أخته الصغيرة، سأقضي أيامي هنا ممزق القلب بعدما تزوجت رقية، بعدما رأيتها تتمايل وتتغزل في رجلٍ آخر، سأقضي أيامي هنا بلا حلم أو هدفٍ أو كيان، بلا أهلٍ أو حبيب أو صديق يسأل

عني، البقاء هنا يعني التعاسة، ولتنجوا من هذه البلدة البائسة ما عليك إلا الهروب منها.

رد مروان ساخرًا:

ـ بعيدًا عن هذه المحاضرة الدرامية، إذًا ياسين سينضم للمجموعة.

وهو ينظر لـ يمُنى:

ـ وأنتِ ماذا عنك؟

ترددت يمنى ثم قالت:

ـ فكرت كثيرًا في هذا الأمر، لقد اعتدت مراوغة القانون لكن لم أنقلب عليه، فور عودتي إلى مصر ظهرت في حياتي أشياء كثيرة كنت لا أراها، أدركت إنني لست المرأة الصالحة الوقورة المتفوقة التي ينظر لها الجميع، وإنني كنت طوال هذا الوقت نُسخة من صنع عائلتي، هكذا أرادوا أن أكون وهكذا كنت، أنا مريضة، يقولون إن تصرفاتي غريبة، يحدثونني عن بعض الأفعال التي قمت بها، وصدقًا لا أتذكر أيًا منها، التفكير سيدفعني للجنون لا محالة، وأنا لا أُريد أن أؤذي أحبائي بأمراضي واضطراباتي النفسية، لا أريد أن أؤذي نفسي بالبقاء هنا، أريد أن أحيا في حياةٍ جديدة وعالم آخر، أسلك طريقًا مختلفًا غير الذي فُرض عليّ، حتى لو كان هذا الطريق ضد مبادئي وأفكاري، سأختار هذا

الطريق لنفسي، ولأنتقم من كل الذين تسببوا في أن أكون شخصًا آخر طيلة هذه السنوات.. لذلك أنا سأنضم إليهم، سأختار الطريق الذي يعيد اكتشافي في الحياة.

ظلت داليدا تعبث بساعتها.. تُفكر.. تُفكر كثيرًا.. تنهدت ثم قالت:

ـ رغبتي في الانتقام كبيرة جدًّا، لكن لو كانت الرغبة وحدها من تقودني لفضَّلت أن أظل أصارع في مكاني، لست عدوانية، ولم أتخيل يومًا أن تصل بي الحياة لهذا المنعطف الغريب، عمومًا ودون مقدمات وكلمات كثيرة لن تصف ما أشعر به، حين تخلى عني الجميع لم أجد إلا ياسين وعائلته تحتويني وتفتح ذراعيها ومنزلهم ليكون هو مكاني وموطني، أنا مُمتنه لهم لذلك، ومدينة لهم بالكثير، ولذلك...

نظرت لياسين وأمسكت يديه:

ـ لن أترك ياسين وحده في هذا الطريق.. سأبقى معه وليحدث ما يحدث، المهم إننا معًا.

ابتسم ياسين الذي لم يقبض على يديها.

هنا حان دور مروان.. صب لنفسه كأسًا من النبيذ، ودون مقدمات قال:

ـ أنا أكثر منكم خبرة، وأفضل منكم في إدارة الأمور، وحين حدثني مساعد ماري عن احتياجهم لخبراتي الطويلة في التدريب والمهارات القتالية والإدارية؛ فكرت كثيرًا، لكن في النهاية وافقت على الانضمام معهم شرط أن أكون قائدًا للمجموعة.

نظر الأصدقاء لبعضهم، ثم قبل انصرافهم قال مروان:

ـ في السادسة صباحًا سنبدأ بالتحرك إلى ليبيا، استعدوا.

نهض الأصدقاء متجه كل منهم إلى وجهته، ذهب ياسين أولًا، في الشرفة وقفت داليدا، وعاد كل من مروان ويمنى إلى غرفتهما، لم تعد الكلمات بينهم تفي بالغرض، وفي مثل هذه الأجواء كان الصمت هو الحل الأمثل للجميع.

تاركًا الأمواج تضرب صدره العاري وقف ياسين ينظر للبحر الغاضب، أمواج تضرب هنا وهناك، والأفكار في رأسه لا تهدأ، لقد خسر كل شيءٍ ولم يعد يخشى أيةَ خسارة جديدة.. هذا ما انتظره طويلًا، ألا يخشى الحياة أبدًا وقد حدث.

فجأة سمع ياسين صوت خطواتٍ تقترب نحوه، في البداية لم يبالِ، لكن مع اقتراب الخطوات، اضطر للنظر إلى الخلف فوجدها!

ـ رقُية! كيف أتيتِ إلى هنا؟

عانقته رقُية بحرارةٍ:

ـ اشتقت لك يا ياسين.. اشتقت لك كثيرًا.. أنا آسفة.. آسفة عما حدث لك، لم أقصد التخلي عنك، لكن...

وضع يده على فمها:

ـ هذا ليس وقتَ العتاب، أنا أُفتقدك كثيرًا، أحبك رغم غبائكِ.

ـ ياسين! ياسين!

استعاد ياسين ذهنه، لقد كان تخيلًا جميلًا تمنى لو كان حقيقيًا:

ـ المعذرة يا داليدا لم أشعر بوجودك.

ـ لا عليك.

ظل الاثنان يتابعان تصادم الأمواج بالصخور، حتى سألها ياسين:

ـ لماذا وافقتِ على الانضمام لهم يا داليدا؟

ضحكت داليدا:

ـ لأنني لا أريد أن أقضي أيامي في هذه الوحدة يا ياسين.. أنا وحيدة جدًا، لا أحد معي، لا أحد يفهمني، لا أحد يسمعني، أنا وحيدة بلا أصدقاء، بلا عائلة، بلا شغفٍ في مواصلة الحياة، أخشى أن أصبح عجوزًا وحيدة لا أجد من يسأل عني أو يزورني من وقتٍ لآخر، أخشى أن أموت وحيدة يكتشفوا وفاتي بعد أن تتعفن جثتي، أنا وحيدة لا أملك حتى ظلًا كاذبًا أحتمي به من

حرارة الأيام ومواقفها القاسية، لا أملك كتفًا أميل عليه حين أشعر بالتعب، إن سقطت لن أجد من ينقذني أو ينتشلني من الوحدة، أنا وحيدة لا أملك صديقًا أحدثه عن الأشياء التي تؤذيني وتؤلمني، أكتب وأقرأ لنفسي، أختار كل تفاصيلي وحدي دون أن يشاركني أحد، وحيدة جدًّا لا أحد يلاحظ ندابات الحزن في وجهي، لا أحد يسألني عن سبب هالات السهر الواضحة حول عينيّ، حين أغيب عن العالم لا أجد من يبحث عني، وحين أعود لا أجد من يطمئن علي، أنا وحيدة جدًّا أستقبل انتصاراتي وحدي فتفسدها وحدتي، وأستقبل الهزائم وحدي فأهوِّن على نفسي وأخفف عنها، وحيدة، أواجه الحياة وحدي، وقد تعبت من كوني قضيت هذه السنين وحدي.. ولقد وجدت فيك ضالتي يا ياسين، لقد وجدت فيك ضالتي وعائلتي ومأمني، وجدت فيك ما افتقدته في العالم.. لذلك لم يكن القرار صعبًا عليّ، قررت أن أقول وأعبر لك بالفعل، إنني حقًّا وحيدة وأريدك في حياتي رغم كل ما فيكِ للأبد.

لم يرد ياسين، ابتسمت داليدا ودندنت:

- ما تفوتنيش أنا وحدي أفضل أحايل فيك.. ما تخليش الدنيا تلعب بيا بيك.. خلي شوية عليا وخلي شوية عليك.

نظر ياسين لها فتذكرت داليدا إن الأجواء ليست مناسبة للغناء، لكن واصل معها ياسين:

- عمر هوانا بيجري بيجري.. شوف ضاع منه كام؟
ساعة شوق ومحبة وشهر عتاب وخصام..
عمر هوانا بيجري بيجري.. شوف ضاع منه كام؟
ساعة شوق ومحبة.. وشهر عتاب وخصام..
ويبقى الحب تايه مش عارف احنا..
زي المركب ما تبقى محتارة بين شاطين..
ويبقى الحب تايه مش عارف احنا..
زي المركب ما تبقى محتارة بين شاطين..

لكن لإمتى يا عيوني إمتى.. نبقى حبايب ومش حبايب؟ لحد إمتى.

وضحكة داليدا تتعالى:

- وارجع تاني واقول لك ريحني الله يخليك..
علشان المركب تقدر تمشي بيا وبيك..
وارجع تاني واقول لك ريحني الله يخليك..
علشان المركب تقدر تمشي بيا وبيك..
ما تفوتنيش أنا وحدي أفضل أحايل فيك..
ما تفوتنيش وياهم يا ياسين.

سيكون كل شيءٍ على ما يرام يا ياسين.. ثق بي.

في الشاليه وفي غرفته كان يُجهز مروان حقيبته، فجأة طرق أحدهم الباب، كانت يمنى ترتدي فستانًا قصيرًا على غير عادتها، ما إن رآها حتى قال:

ـ المحامية الموقرة صاحبة الألف شخصية.

دفعته من أمام الباب، ثم جلست على كرسي:

ـ أحتاج لأن أضع مانيكير، وأخاف الجلوس وحدي في غرفتي، بالتأكيد لن تمانع لو وضعته في غرفتك.

نظر مروان لها قائلًا:

ـ هذا يسعدني كثيرًا.

جلست يمنى وبإثارة متعمدة رفعت الفستان أكثر ليوضح كل تفاصيل أنوثتها وهي تقول:

ـ لماذا لا يضع الرجال المانكير على أقدامهم.

ضحك مروان وأشعل سيجارته.

واصلت يمنى:

ـ لو كان هذا متاحًا لكنت أول من نزلت تحت قدميك وظللت أقبلهما.. أنت سلطاني وأنا خادمتك.

كلمات محببة لمروان، لكنها غريبة بالنسبة لسيدة مثل يمنى.. اقتربت منه وهمست في أذنه:

ـ سيكون من الرائع أن نُفكر في هذا الأمر.

فجأة توقف مروان واعتذر قائلًا:

ـ أنا مُرهق يا يمنى، سنكون معًا قريبًا.

وهي تلتهم شفتيه للمرة الأخيرة قالت:

ـ من حسن حظي إننا سنكون معًا.

اتصل مروان بمساعد ماري وأبلغه بقرار أصدقائِه الذي على الفور اتصل بـ ماري ليخبرها، وسريعًا أمرته بالتحرك إلى ليبيا في الصباح، بعد ساعةٍ وصل مساعد ماري إلى مقر الأصدقاء، وجلس في انتظارهم وهم يعدون عدتهم.

خرج أولًا ياسين حاملًا أغراضه، وضعها على الأرض ثم جلس مع مساعد ماري، تبعته داليدا، ثم يمنى، ولحق مروان بهم، جلس مساعد ماري وقال:

ـ سنتجه إلى ليبيا، ومن ثمَّ إلى إيطاليا عبر باخرة خاصة.

ـ الأمر ليس خطرًا.

أخرج الرجل من حقيبته حزمة من الأوراق ووزعها عليهم:

ـ هذه المستندات الخاصة بكم حال تعرضنا لأي موقفٍ مفاجئ.

ـ لماذا سنضطر لحمل بطاقاتٍ شخصية مزيفة؟ سألت داليدا.

فأجاب الرجل:

ـ لأن خروجكم بأوراقٍ رسمية تعني إقامةً لأنكم لن تعودوا الآن، وشروط الإقامة لا تتوافر في أشخاصكم، لذلك علينا توخي الحذر.

إجابة مقنعة عليها انطلق الخمسة شباب إلى ليبيا.

في إيطاليا وفي مطار نابولي.. استقبلت ماري ماثيو وإيزابيلا، واتجهوا إلى القصر ذي الطابع الكلاسيكي لـ ديفيد شاهين، اتجهوا إلى غرفة المكتب، وهناك كان ديفيد شاهين في انتظارهم.

- كيف حالك يا رجل؟

عانقه ماثيو:

- افتقدتك يا أخي.

وهو ينظر لإيزابيلا:

- لا أظن ذلك.

ضحك ماثيو واتجه للثلاجة، صب لنفسه كأس نبيذ:

- لدي أخبار لن تعجبك.

نظر ديفيد لإيزابيلا، فاستأذنت وخرجت لتتركهم وحدهم.

فواصل ماثيو:

- لم يقبل بينتو عرضنا، يقول إن هناك منافس آخر في إيطاليا مُستعد لشراء المنتجع بقيمة تضاعف سعر القيمة التي نعرضها عليه.

رد ديفيد:

- وبالتأكيد لم يُفصح عن اسمه.

هز ماثيو رأسه:

ـ بكل تأكيد، لقد أعطانا مهلة حتى نهاية الأسبوع احترامًا لوعده بأفضليتنا في الشراء.. لا أظن إننا قادرون على دفع الثمن المطلوب.. لنترك هذا المنتجع لمن يريده.

صب ديفيد كأس نبيذه لنفسه ثم قال:

ـ من يريده لن يستفاد منه على أي حال، على العكس قد يعرضه في المزاد أقل من سعره الحقيقي، المسألة أكبر من التجارة.

رد ماثيو:

ـ جورج من يزاحمك في هذه الصفقة أليس كذلك؟ في رأيي أن ننسحب يا ديفيد، جورج يملك كل المقومات التي تجعله يتفوق علينا في هذه الصفقة.

نهض ديفيد من كرسيه، ثم ربت على كتف أخيه ابن أبيه ماثيو:

ـ حمدًا لله على سلامتك يا ماثيو، استرح الآن، ولنواصل حديثنا في المساء.

وهو يخرج قال لـ ديفيد:

ـ في المرة القادمة أرسل لنا تالا لتستقبلنا، أفضل من ماري التي تشبه جنود النازية في حدتهم وجديتهم.

ضحك الجميع، ثم انصرف ماثيو.

قالت ماري فور خروجه:

ـ بينتو يريد بيعه لفتح سوقٍ جديدة في آسيا، لم يعد يملك نفس مكانته في اليونان، لقد تفوق عليه كل خصومه.

رد ديفيد:

ـ من أشد منافسه في السوق؟

ضحكت ماري:

ـ صديقتك صوفيا وجورج، بعدهما يحاول السيطرة على السوق هناك، اليونان أصبحت مُهيَّئة لفتح استثماراتٍ سياحية وعقارية هناك.

فكر ديفيد شاهين، ثم قال لـ ماري:

ـ اتصلي ببينتو وأخبريه إنني أدعوه للغداء غدًا في ميلانو.

ظهرت علامات التعجب على ماري، لكنها لم تبدِ رأيها.

ـ متى سيصل الشباب؟

ردت:

ـ بعد ثلاث ساعات.

ـ ماري، لا تخبري ماثيو بأي شيء.

هزت رأسها وخرجت لتترك ديفيد شاهين وحده، الذي أخرج دفتره وكتب:

ـ ما أسهل أن تُخرج مسدسك وتصوب فوهته نحو عدوك فتصيبه رصاصتك ويموت، الأصعب دائمًا في الدهاء،

أن تُخرج مسدسك وتصوب فوهته نحو عدوك، ثم تصيبه طلقة من عدوٍ آخر لتقتله، فتكسب صديقًا جديدًا، وتخسر عدوًا قديمًا.. الحنكة ليست في القتل، إنما في طريقة قتلك لأعدائك يا جوماني، كن أول من يطلق عليهم الرصاصة، وآخر من يصيبهم، هددهم بالبارود، واقتلهم بالتساؤلات والشك والتفكير.

أغلق ديفيد شاهين دفتره، ثم خرج للشرفة، سمع صوتًا عاليًا في غرفة ماثيو، كانت إيزابيلا غاضبة كعادتها تقول:

ـ هو لا يثق بي، لقد طردني من الاجتماع وفضَّل بقاء ماري، ألست أنا أحق بالحضور؟

رد ماثيو بصوتٍ هادئ:

ـ ماري مساعدته الخاصة، الأمر لا يتعلق بالثقة.. اهدئي.

ردت وصوتها يرتفع أكثر:

ـ هو لا يثق بك أنت أيضًا.

رد ماثيو:

ـ لقد مللت من تكرار هذه الأحاديث.

عاد الصمت في الغرفة، فذهب ديفيد إلى الشرفة، بينما كان الأصدقاء قد وصلوا بالفعل إلى نابولي.

أبلغت ماري ديفيد شاهين فور وصولهم.. فبلغها أن تُخبر الجميع أن يستعدوا لحفل هذا المساء.

وللحديث بقية...

الفصل الثامن عشر

الحفلة

صُب الخمر، وقدم النساء لهم، ثم اجلس على كرسي واستمتع بحقيقتهم، تابع نظراتهم ستجدها تتجه دائمًا ناحية الأشياء التي تلمع أمام الناس، ستجد رغبة الفوز واقتناصها واضحة في نظراتهم حتى لو كانت هذة الأشياء ليست من ضمن أولوياتهم، لكن هي نشوة الحصول على كل شيء.

دعى رجل الأعمال المعروف ديفيد شاهين أصدقاءه للحفل، أشهر المستثمرين، التجار، رجال البورصة والقانون، ومهربي المخدرات والأسلحة المُحرمة، كذلك أكبر وأهم قيادات العصابات.

الفريق الثاني دعاهم الكاتب والسيناريست المعروف أيضًا ديفيد شاهين ممثلي السينما والتلفاز، الإعلاميين، الكُتاب والمخرجين، وأكبر وأهم صانعي ومنتجي الفن في إيطاليا.

رغم إن مكانًا واحدًا يجمعهم لكن شتان بين الفريقين، فلكل فريق اهتماماته وأولوياته وطريقه في الحياة، لكن لم يكن من الصعب على ديفيد أن يجمع كل هؤلاء في قصرٍ واحد، ويجعلهم يذوبون في بعضهم البعض كما يذوب السكر في الماء، لأن بينهما شيئًا واحدًا مشتركًا، هو: «الرغبة في الحصول على كل شيء».

الموسيقى عالية، والأضواء أشبه بضوء الشمس في أغسطس، الخمر وطاولات البوكر، والنساء دائمًا يعطين للجمال لذة مختلفة، ليلة جميلة مثالية لافتتاح أكبر ملهى في نابولي، في أكبر منتجعٍ سياحيٍّ هناك لصاحبه ديفيد شاهين.

فوجئ الأصدقاء بضجيج الأجواء والحرية المطلقة في ممارسة كل شيء دون حاجزٍ أو خوف أو وضع اعتبارٍ لأي شيءٍ عدا سعادتهم، كانوا يشاهدون الحفل من غرفة المراقبة على شاشات عرضٍ كبيرة، ومعهم جلست مارتينا وتالا ومساعد ماري، بينما ظل في الحفل ديفيد شاهين وماري مع أصدقائِهم، حفل صاخب وعظيم يليق باسم ديفيد شاهين، ويُرسل رسالة لكل منافسيه إنه لا يزال يملك زمام الأمور.

اجتماع في قلب المعركة، أن تخطط لقتل أعدائك وهم أمامك يرقصون ويتغنون ناسين أمر المعركة تمامًا، هذا ما قرره ديفيد شاهين حين صعد للأصدقاء تاركًا ضيوفه غارقين في الخمر واللعب.

دخل شاهين وجلس على مكتبه، صوب الأنظار حوله بهيبته وتحركاته المتزنة، ثم قال:

- الآن قد اتفقنا على طريقٍ واحد، أنا أومن إن الهزيمة لا تأتي من أعدائِك، إنما من أصدقائك الذين وثقت بهم، لكل شيءٍ ضريبة، وبعض الأشياء ضريبتها القتل كما تتوقعون كالخيانة.

الضرر الذي يصيب أحدنا هو إصابة للمجموعة بأكملها.

المجد الذي يحققه الفرد هو مجد لنا كلنا.

عدو أحدنا هو عدونا كلنا، لكن صديق أحدنا لا يعني صديقنا.

التساؤلات التي لا داعي لها تشتت الأذهان، لذلك احتفظ بصمتك قدر المستطاع.

الحب أضعف نقاطك في الحرب، وما دمت هنا فأنت اخترت الحرب عن الأشعار والكلمات الرومانسية.

التحالفات الصغيرة تدمر أعتق وأقوى الجيوش الكبيرة، لذلك ليكن تحالفنا واحدًا.

إن نجونا سننجوا معًا، وإن هلكنا سنهلك معًا، لن يحيا أحد بعدنا، وإن هلك أحدنا فسنقاتل جميعًا من أجله.

لكل هدف وخطوة مقاييس ومعايير مختلفة، ليس من حقك أن تسأل عنها ما دمت لم تسمعها.

لكل شخصٍ مهام مختلفة عن الآخر، لذلك لا داعٍ للسؤال عن أي أشياء لا تخصك.

ما حدث في الأمس انتهى قبل أن يبدأ اليوم، وما سيحدث اليوم سينتهي قبل أن يبدأ الغد.
الخيانة والكذب.. أشياء لا تغتفر.
اسمي ديفيد.. السيد ديفيد شاهين.
كاتب سينمائي، وواحد من ضمن قائمة أغنى رجال أعمال في إيطاليا، اختصاصنا في مجال السياحة، لدينا منتجعات وقرى سياحية وشركات طيران وسياحة داخلية وخارجية، لأعمالنا أذرع وفروع في مختلف أنحاء العالم.
الآن تسألونني لماذا قلت لدينا ولم أقل لدي؟
لأن الأمر ببساطة لا يتوقف عند الانتقام والقتل، أنتم هنا للمساعدة في إدارة هذه الأعمال بكل الطرق الممكنة، نحن لا نملأ خزائن أسلحتنا إلا ونحن نعلم إننا سنعوضها بالذخيرة والألماس والذهب، حتى ألد أعدائكم لن نخطوا خطوة واحدة ضدهم إلا بعد أن نفكر في أكبر قدرٍ من الاستفادة من كل الجوانب.
فتح ديفيد ستارة خلف مكتبه، ثم دعاهم للاقتراب:
- لو كان الأمر يعتمد على القتل فقط لأقمت لهم مذبحة، في هذا التجمع أهم رجال الأعمال والمافيا، السياسين، والفنانين، لكن نحن لسنا مُجرمين إنما مبدعين، نفكر في استرداد حقوقنا أو حقوق الضعفاء

باحترافيةٍ وإبداع، نلعب مع هؤلاء الشطرنج، نراوضهم أولًا، الأولوية دائمًا لمحاربتهم نفسيًا، لتدميرهم معنويًا، فكرة أشد ضررًا من رصاصة، محاربتهم بطرقٍ ذكية أفضل من إطلاق الذخائر عليهم، لكن وإن احتاج الأمر للقتال.. فنحن أهل له.

وجَّه ديفيد شاهين نظره للأصدقاء:

- أمامنا فترة قصيرة جدًّا من الآن لبدأ أولى عملياتنا، أنتم الآن معًا.. من الوارد جدًّا ألا تلتقوا أبدًا وللأبد.

وقف الشبان ينظرون لضيوف قائدهم من الشرفة، ينظرون ويتابعون الجميع عن كثب، يتمنون لو كان بإمكانهم الانضمام إليهم، أراد ديفيد أن يُشعل الحماس بداخلهم، فقال لهم:

- من بين كل هؤلاء شخص واحد على الأقل أفسد حياتكم.. من بين كل هؤلاء شخص واحد على الأقل هو سبب في وجودكم هنا، هنا المجتمع الأول في العالم بمختلف جنسياته وميوله وأفكاره، هنا حيث كل الذين قرروا نهاية حياة المستضعفين وتحطيم أحلام الحالمين وسلب حقوق الفقراء، هنا الظالم الفاجر، وهنا الحاكم الذي أيد وتابع ظلمه، هنا من قرر الحرب وتدمير مُدن بأكملها، وهنا من وقف ليقنع الجموع بضرورة قبول الظلم والقهر خضوعًا لأوامر الحاكم، هنا يجتمع كل فاسدي الأرض.

باغتت يُمنى ديفيد شاهين بسؤالٍ مباشر:

ـ ولماذا أنت بينهم ومعهم؟

بملامح جامدة ودون أن ينظر لهم:

ـ لست منهم ولن أكون، أنا مثلكم تمامًا، عانيت مثلما عانيتم، وتألمت مثلما تألمتم، حُطم قلبي وقضيت أيامي أُعاني من الاكتئاب والوحدة والحزن، وسرقوا أحبائي، وحين قررت الثورة عليهم أجادوا كل الطرق لتحطيمي أكثر، استخدموا ضدي كل الأساليب القذرة لجعلي أتوقف عن التمرد والثورة، هنا أدركت إن قوتي ومهما بلغت لن تصل إلى قوة أضعف أضعف رجالهم، لذلك قررت محاربتهم بطريقةٍ أخرى؛ بالعقل، أقصد إنني قررت الانسحاب من ميدان الحرب بالبارود، وأسست ميدانًا جديدًا سلاحه الأفكار، قررت أن أراوضهم بدلًا من افتراسهم، زرع الخوف والقلق في قلوبهم بدلًا من زرع الرصاصات، تحطيمهم وتكسيرهم نفسيًا بدلًا من تحطيم عظامهم، قررت أن أجعلهم يقتلون بعضهم البعض، وبعد أن يفشلوا في العثور على القاتل الحقيقي، غريزة البقاء ستقودهم للتشكيك في كل شيءٍ حولهم، شعور دائم بالخطر والقلق والترقب سيجعلهم يطلقون الرصاص على أنفسهم في نهاية الأمر لأنهم سيعجزون عن العيش

بهذه المخاوف والاضطرابات العصبية والنفسية..
وهذا ما أردته بالضبط.

ضحك مروان وهو يتابعهم:

ـ لا أرى في هؤلاء رجلًا شديدَ البنيان يمكنني مصارعته، كف واحد كفيلة أن تودي بحياته.

نظرت ماري لمروان:

ـ إذًا لماذا لم تقتل قياداتك الذين اجتمعوا على إنهاء حياتك العملية؟ لأنهم ببساطة استخدموا القانون لإنهائها، وهذا ما لم تقدر عليه.. ليس كل القتال يعني الرصاص.

تلعثم مروان ولم يجد ردًا على ماري التي واصلت:

ـ القتل بالرصاص رفاهية قد يمتلكها البعض، نحن نستخدم هذه الرفاهية أيضًا، لكن ما دامت في الأساس هي رفاهية فلنستخدم الأشد خطورة منهم.

وافقتها يمنى التي قالت:

ـ عدد ضحايا الإدمان أكبر من عدد ضحايا الرصاص، عدد ضحايا الجوع والجفاء أكبر من عدد ضحايا الحروب، الذين ماتوا من الأوبئة أضعاف الذين ماتوا من الرصاصات.. لقد تغيرت القوة، فمن يملك القلم والفكر أشد خطورة ممن يملك الذخيرة والأسلحة.

رد ديفيد وهو يعبث بطاولة البوكر:

- شيء واحد ينقص كل هؤلاء لمواصلة حروبهم.

قاطعه ياسين:

- المال.. المال هو وقود الثورات وحركات التمرد لمواصلة كفاحها، لو لم تملك المال لن تقدر على مواصلة الكفاح.

رد مروان ساخرًا:

- لندع هذه الأفكار الشيوعية جانبًا.

قالت تالا:

- ليست أفكارًا شيوعية؛ إنما هي الحقيقة، المال هو من يقود الناس لتحقيق غايتهم ويدفعهم للركض أكثر.

أيدها ياسين:

- نحن بحاجةٍ دائمة للمال لمواصلة الحرب.

رافضًا هذه النبرة قال ديفيد:

- صحيح إن المال هو العامل المهم في الحرب، لكن حين تملك المال دون عقلٍ جيد يديره قد تقتل حلفاءك بالخطأ، إن المال يحتاج لمن يوظفه ويستخدمه دائمًا في الطريق الصحيح، إنه كالسحر قد ينقلب على الساحر في أي لحظة، ثمة ثورات وتمردات بدأت بتمويلات كبرى، ثم ومع الوقت اختفت تمامًا، بل تحولت أهدافها ضد مبادئها الأساسية.. لأن المال

قُدِّم لأشخاص بلا مبادئ حقيقية ثابتة وواضحة، استخدموه لمصالحهم الشخصية لفصيل واحد انضم لجموع الثائرين لأهدافهم الخاصة فجعلوه حليفًا لهم، يخدم أفكارهم الدخيلة على الجموع، وحين امتلكوا تمردوا على الذين بدأوا معهم، فانقلب كل شيءٍ عليهم، فلم يعد لكل الثوار.. أثر.

نحن هنا نملك المال والفكر والقوة، لكن ما سيدفعنا لمواصلة القتال ما هو إلا شيءٍ لا تعوضه مثل هذه الأشياء.. ما سيدفعنا لمواصلة القتال هي الرغبة في الانتقام، تلك الرغبة التي لا تعوضها كنوز الدنيا.. الآن فهمتم ما أقصده؟

وهي تنظر للحشود قالت داليدا:

ـ لا أقصد التشكيك في كلامك، لكن لم أفهم كيف من بين هؤلاء شخص واحد على الأقل أذى كل منا؟ نحن هنا في إيطاليا، بينما كل الذين أفسدوا حياتنا هناك في مصر.

بملامحه العادية الباردة رد:

ـ العالم شبكة عنكبوتية متماسكة، يقوده ويسيطر عليه عائلة معروفة منذ قديم الأزل، هي من تملك فتيل الحروب، منافذ ومستودعات الغاز والبترول، هي من تُقدم لنا الطعام، وتُمول أعتق الجيوش بالأسلحة

والذخائر، هي من تُقرر أحلام الأجيال، وتقرر وفاتهم، كل حركة في هذا العالم تحت سيطرتهم، كل خطوة لا يخطوها أي شخص إلا بموافقتهم، بهذه الشبكة بإمكانك أن تزرع رجالك في كل مكان، رجال تخدم أفكارك ومبادئك وتعمل لصالحك.. الذكاء أن توهم حلفاءك أن يعملوا لمصالحهم بينما في الحقيقة هم يعملون لمصالحك أنت.

رد مروان ساخرًا:

ـ مثلما تفعل أنت معنا!

ردت ماري:

ـ والأكثر ذكاءً أن تختار رجالًا لديهم مصالح وأهداف مشابهة لمصالحك وأهدافك.. وهذا ما قمنا به معكم.

أغلق ديفيد الستار، ثم قال:

ـ الآن عليكم أن تستمتعوا بأيامكم هنا قبل بدأ العملية الأولى.

خرج الأصدقاء من الباب الخلفي للملهى مع تالا ومارتينا اللتين عرَّفتاهم على مقر إقامتهم في المنتجع السياحي، ثم رحلتا عنهم.

عاد ديفيد لضيوفه رفقة ماري، ظلا يمشيان بين الحضور السكارى، على الطاولة هناك رأيا صوفيا تجلس مع مكرم أبو العزم ويوسف المهندس، وبجوارهم ماثيو، اقترب ديفيد منهم وهو يسألهم:

ـ هل كل شيءٍ على ما يرام؟
ردت صوفيا:
ـ يوسف المهندس يشبهك كثيرًا يا ديفيد.
مد يوسف يده لديفيد:
ـ أهلًا سيد ديفيد، لقد حدثتني صوفيا عنك، أنت شخص عظيم.
بادله ديفيد التحية وهو يسأله:
ـ لماذا لم تترشح مرة أخرى في مجلس النواب؟
ـ حين يشتد الضوء عليك لا بُدَّ أن تختبئ قليلًا، الضوء الكثيف يسبب العمى.
نظرت صوفيا لـ ديفيد:
ـ ألم أقل لك إنه يشبهك كثيرًا؟
قال مكرم أبو العزم محاولًا المشاركة في الحوار:
ـ أنا أختلف مع هذه النظرية، ما دمت لا تُظهر للعامة إلا محاسنك لن تهتم بالأضواء المتجهة نحوك، على العكس قد يكون في الضوء الكثيف مصلحتك.. سيزيدك شرفًا وفضيلة.
المتاجرة بالشرف والفضيلة أمر قبيح وقميء، لطالما رفضه ديفيد، لكنه آثر هذا الرفض لنفسه فقال:
ـ كل شخص يملك أسلوبًا مختلفًا في إدارة حياته، الأهم أن يديرهاً بالطريقة التي تناسبه لا المفروضة عليه.

رد يوسف:

ـ نحن صانعو القوانين.

ابتسم ديفيد:

ـ حتى صُنعك للقوانين والأوامر تُجبرك على الالتزام بقواعد كتبها غيرك، أنت هنا على الأرض مُجبر على الخضوع مهما ملكت من سلطةٍ ونفوذ.

تساءل مكرم:

ـ وما الحل؟

ـ التسامح مع النفس، القوة تكمن في إيمانك بقوتك فقط دون مقارنتها بقوة غيرك من الناس، لا تنسَ فأنت ومهما بلغت من قوة دائمًا هناك من هو أقوى وأفضل منك، لا تتعالَ في قوتك.

لم يشعر ديفيد بالألفة مع الرجلين، الاثنان متحفزان جدًّا لملء بطنيهما بالمال، مثل هؤلاء يسهل خداعهم، وديفيد لا يحب التعامل مع السذج.

ـ استمتعوا.

قالها وابتعد عنهم.

اقترب أحد العاملين بالمكان وهمس لماري ليخبرها إن السيد جورج قد وصل إلى الحفل، أخبرت ديفيد وتقدما لاستقباله.

دخل جورج رفقة لورين التي كانت في كامل أنوثتها وجمالها:

ـ ديفيد يا صديقي، تهانينا لك.

ابتسم ديفيد ورحب به، ثم نظر إلى لورين وقبَّل يدها.

ـ إنها صدفة عظيمة يا صديقي.. أنت تحتفل بافتتاح منتجعك السياحي، بينما أنا أحتفل بذكرى حفل زواجنا الثامن.

وهو يغمز له واصل جورج:

ـ أنا الرابح الأكبر.

ابتسم ديفيد محاولًا إخفاء ضيقته:

ـ المكان شُرِّف بوجودك يا صديقي.. أسعدني حضورك سيدة لورين.

أشار للعامل أن يجلسهما في المكان المخصص لهما، لقد نجح جورج أن يُفسد سعادة ديفيد مرة أخرى، استطاع أن يُذكره في لحظات توهجه واحتفاله إنه ما زال لا يملك ما يتمنى، وما زال لم يعثر على ما خُطف منه.

لقد أفسد سعادتك يا ديفيد.. ألم يحن وقت الانتقام؟

لا ليس بعد، فـ جورج يملك ما أخشى فقدانه، هزيمة جورج قد تجعلني أفقد ابني للأبد، ألا يكفي فقداني لزوجتي وللفتاة الوحيدة التي أحببتها؟!

هكذا سأل وأجاب ديفيد نفسه.

لاحظت ماري اختفاء ديفيد مرة أخرى، ظلت تبحث عنه فوجدته في الشرفة يقف هائمًا في أسئلته، اقتربت منه ثم قالت:

- هذا الرجل يعرف كيف يحاربك يا ديفيد، هو مثلك يملك الحيل والخطط لهزيمتك نفسيًا.. لكنني أثق في صبرك وذكائك يا بُني.. أثق بك.

سريعًا عاد ديفيد لثباته وقوته المعتادة:

- لم أهتم كثيرًا بما حدث.

ضحكت ماري ثم قالت:

- أنت تكذب يا ديفيد، أنت تكذب، صحيح إنك شخص صلب لا ينهزم بسهولة، ذكي وقوي جدًا، لكن من قال إن المحاربين لا يملكون نقاط ضعف؟ مأساتك يا بُني أن نقاط ضعفك تكمن في قلبك، فأنت ورغم شراستك التي تملكها في كلماتك وأفعالك لكن بداخلك تتألم وتبكي وترتجف، تستطيع محاربة العالم، لكنك أضعف من مواجهة نفسك ومخاوفك، تهزم أعتق وأشد الرجال، ويهزمك كل يوم الحنين والقلق، أنت تكذب يا ديفيد، أنت تائه تمامًا ولا تجد أرضًا تحتوي هذا التشتت فيك.. في قلبك يا رجل، هذا التيه هو ما يدفعك للبدأ من الصفر، لحشد رجال حولك، للتأني قبل أن تخطو خطوة واحدة ضد جورج، تتحمل كل هذا الضغط لأنك تعرف صعوبة مواجهته، ولأنك تريد الانتقام، ليس منه وحسب، بل من كل الذين تسببوا للناس في آلامٍ ومأساةٍ لا تُنسى.. الآن

لنعد إلى الحفل، هو يعلم جيدًا قسوة ما تركه في قلبك، ولا يجب أن ننسحب سريعًا أمامه.. هيَّا يا بُني! لا أحد يستحق أن يراك في ضعفك، خصوصًا أولئك الذين يخططون دائمًا لهزيمتك.

خرج ديفيد مع ماري وواصلا الاحتفال.

اقترب العامل من ماري ليخبرها إن بينتو قد وصل الحفل..

توجَّه ديفيد لاستقباله:

ـ أهلًا بينتو.

ـ تعلم قدرك عندي يا ديفيد، لو كانت الدعوة من شخصٍ آخر لن أسافر أبدًا بهذه السرعة.

ـ أحب علاقتنا يا بينتو.. رغم خلافتنا في العمل.

ضحك بينتو:

ـ ليس بيننا خلاف، أنت تعلم ضيقتي المالية، صدقني لولا هذه الأزمة لأعطيت المنتجع لك بلا مقابل.

ربت ديفيد على كتف بينتو:

ـ أعرف هذا.

ـ تعال، ثمة من ينتظرك هناك.

تقدم ديفيد مع بينتو وماري ناحية طاولة صوفيا، رحبت به صوفيا، ثم مالت على ديفيد:

ـ دعوت ألد منافسٍ لي يا ديفيد! لن أغفر لك هذا.

همس لها:

- إن لم يكن هذا منافسك.. قد يكون جورج منافسك في المرة القادمة.

لم تفهم صوفيا ما قاله ديفيد، لاحظ جورج وجود بينتو بين ديفيد وصوفيا فاتجه نحوهم:

- بينتو، إيطاليا سعيدة بوجودك.

ابتسم بينتو:

- جورج، كيف حالك يا رجل؟

أراد ديفيد أن يختلي بهم كما اتفق مع السيد بيربتوف، فدعاهم لغرفة الضيوف، هناك كان بيربتوف يجلس ومعه الرجلان المصريان.

كان بيربتوف يجلس على كرسي، وديفيد أمامه يُجلس الجميع، صب العامل لهم كؤوس النبيذ، ثم خرج ومعه بدأ السيد بيربتوف قائلًا:

- في هذه المناسبة اللطيفة.. لقد فوضني السيد بينتو لإنهاء أمر منتجعه.

باستغراب نظرت صوفيا للسيد بيربتوف الذي واصل:

- لقد قرر بينتو الخروج من اليونان، وعرض أملاكه هنا للبيع.. هو يملك الكثير من العروض، لكن بالطبع الأفضلية دائمًا لمجموعتنا.. لذلك نريد أن نتفق على عميلٍ جديد من بيننا.

رد جورج:

ـ صوفيا تملك قوة ضخمة هناك.. لا تحتاج لزيادتها.. الأمر شبه محسوم، أنا أحق بهذا المنتجع.

ردت صوفيا:

ـ إن كنت تملك بذرة فأنت تريد أن تجعلها ثمرة، ومع الوقت ستتمنى أن تكون شجرة، وبعدها ستُفكر أن يكون حقلًا، ثم أراضي زراعية ضخمة، حتى تتمنى أن تكون فدادين شاسعة.. الرغبة في التطور أمر طبيعي لا إثم عليه، أنا أعلم بالسوق في اليونان، لذلك امتلاك هذا المنتجع سيفيدني كثيرًا، صدقًا لا أفهم سر إصرار جورج على شراء هذا المنتجع.

ظل ديفيد يتابعهما بنظراته، يتأملهما وهما على وشك الصراع مع بعضهما البعض.

رد مكرم أبو العزم:

ـ اسمح لي سيد بيربتوف، الأجواء والظروف الاقتصادية في اليونان أقرب للظروف الاقتصادية في مصر، وهذه الخطوة ستكون انطلاقتي نحو بلاد الغرب.. أنا مُستعد للشراء بأي ثمن.

همهم جورج:

ـ من أعطى الحق لهذا الرجل أن يتحدث ويتفاوض معنا؟

رد ديفيد محاولًا إثارة غضبهم أكثر:

ـ أرى إننا على وشك الاختلاف حول المشتري، في النهاية سيكون المالك شخصًا منا، وهذا مكسب لنا، لا نحتاج لمزيدٍ من الخلافات.

نظر جورج لديفيد ثم قال له:

ـ وأنت يا ديفيد، لمَ لا تريد الانضمام لهذا الصراع؟

أجاب ديفيد:

ـ خوض تجربةٍ جديدة وتحدٍ جديد في سوقٍ مضطرب أمام منافسٍ متمرِّسٍ في السوق اليوناني جيدًا مثل صوفيا.. بالنسبة لي مخاطرة أنا في غنى عنها.

وهو يضحك رد جورج:

ـ صوفيا ليست المنافس الصعب الذي يجعلك تُفكر كثيرًا قبل مواجهته.. لولا إنني رجل وفيّ لزوجتي لأقمت معها علاقة وانتهى كل شيء.

اتجهت الأنظار ناحية صوفيا التي شعرت بالضيق من كلمات جورج، فردت غاضبة:

ـ أنت سريع النسيان يا جورج، وهذه مشكلة، لأن هذا سيجعل منافسينك يقسون عليك في السوق حتى لا تنسى قوتهم أبدًا، أما بالنسبة للعلاقة فأتمنى أن تكون كافيًا لزوجتك أولًا.. بدلاً من...

قاطعهما السيد بيربتوف:

ـ ما يحدث لا يليق بمجموعتنا.. لا أريد أن يتكرر أسلوب الحوار هذا مرة أخرى.

ابتسم ديفيد معلنًا نجاح خطته، فقد كان ينتظر أن يصل الأمر لهذا الحد من الخلاف.

ـ حسنًا، لن نتفق الآن.. السيد بينتو عرض ممتلكاته.. من يملك متطلباته فليتقدم بها.

قالها السيد بيربتوف وخرج تاركًا الاجتماع.

حل الصمت لفترة، ثم صب جورج كأسًا من النبيذ، وقال لصوفيا:

ـ لولا إننا مجموعة واحدة لجعلتك مشردة تبحثين في الشارع عن زنجيٍّ ثري يُشبع رغباتك المالية والجنسية.

ابتسمت صوفيا وخرجت، تبعها أعضاء المجموعة، بينما ظل السيد بينتو في المكتب مع ماري.

جلس ديفيد بجوار السيد بيربتوف الذي سأله:

ـ ما رأيك فيما حدث يا ديفيد؟

قال ديفيد:

ـ أخشى على صوفيا من رد فعل جورج، لقد تحدثت عن زوجته، وأنا أعلم أثر هذا في قلب جورج، لن يهدأ إلا بعد أن يرد عليها، ورد فعل هذا الرجل في هذه المسألة تحديدًا في غاية القسوة.

لم يرد السيد بيربتوف.

على هاتف ديفيد أرسلت ماري رسالة له:

- بينتو ينتظرك في اليخت.

قرأها ديفيد وابتسم.

أوشك الحفل على الانتهاء.

رحل الضيوف رويدًا رويدًا.

رويدًا رويدًا بما فيهم جورج ولورين.

وكعادة مثل هذه الاحتفالات.. تُترك الهدايا في أماكن الجلوس، اقترب ديفيد من طاولة جورج ولورين؛ فوجد منديلًا أسفل كرسي لورين، بينما لوحة موضوعة على كرسي جورج.

خرج من الملهى، ركب سيارته، وفتح اللوحة.

كانت صورة حديثة لمجموعة من الأطفال مكتوب بأسفلها:

«خمن.. من هو؟».

الوغد! إنه يستمتع باللعب بأعصابي، ظل يتفحص الأولاد.

من الصعب التفريق بينهم، فجميعهم يرتدون زيًّا واحدًا.. وقفتهم واحدة.. وملامحهم متشابهه بشكل كبير.. بلا أمل ترك اللوحة، وفتح المنديل، وجد بداخله خنجرًا صغيرًا مكتوبٌ عليه، وكُتب على المنديل G.L، «في عرين الأسد.. ضبع».

رسالة وإن كانت مُبهمة لكن معناها مفهوم.. ثمة خائن حول ديفيد.. ابتسم الرجل.. هناك من يعمل مع جورج، ودائرة الشكوك ليست بالصعبة.. هو يعرفه، لكنه ينتظر الوقت المناسب للوقوع به.

اتجه ديفيد لليخت، هناك كان بينتو وماري في انتظاره.

ـ كانت سهرة رائعة يا ديفيد

ـ السهرة لم تبدأ بعد يا بينتو.

قدمت ماري كأس النبيذ لبينتو، ثم ديفيد.

أشعل ديفيد سيجارته ثم قال لـ بينتو:

ـ لو كنت تملك زمام السوق اليوناني يا بينتو، هل كنت ستغادر بلدتك؟

رد بينتو:

ـ بالطبع لا.

قلب ديفيد الثلج في كأس النبيذ، ثم سأل بينتو:

ـ كم منتجعًا تملك في اليونان يا بينتو؟

رد بينتو وهو لا يفهم سر سؤال ديفيد:

ـ ٣٠ منتجعًا.

ـ وكم منتجعًا تملك صوفيا؟

ـ على ما أتذكر ٦٥.

همهم ديفيد، ثم قال:

ـ ستقضي هذه الليلة معنا يا بينتو، وفي الصباح ستغادر إلى اليونان.

اعتذر بينتو عن دعوة ديفيد، لكن صدَمه رد ديفيد الذي قال بحدةٍ:

ـ إن عُدت في هذه الليلة فلن يأتي عليك الصباح، جورج لن يرحمك، أنت هنا في مأمن معنا.

ـ لا يستطيع أحد الأقتراب مني.

اقترب ديفيد من بينتو وهمس:

ـ لا تستهين بقوة أي شخص، ولا يغرنك قوتك، كل شخص بإمكانه أن يصيبك بأذى وضرر لا يُحتمل، الرصاصة التي تقتلنا لا نسمعها، لا أحد أكبر من الموت يا بينتو، لا أحد أكبر من الموت.

تنهد بينتو مستسلمًا.

بنبرةٍ حادة قاسية خاتمًا كلماته قال ديفيد:

ـ غرفتك جاهزة، ستنام هنا، وفي الصباح ستغادر إلى اليونان.. هناك أخبار سعيدة تنتظرك.

ترك ديفيد وماري بينتو مع الحارس، واتجها إلى المنتجع الذي يسكنه الأصدقاء.

في الطريق سألت ماري:

ـ ماذا ستفعل يا ديفيد ؟

ستعرفين في أوانه.. بلغي مارتينا أن تنتظرني الآن مع الشبان في قاعة الاجتماعات.

انتهى اليوم، وللحديث بقية...

الفصل التاسع عشر

«إن مهنة القتل تُنبت مخالبًا في تلك الأيدي الناعمة».

مصطفى محمود

ـ النساء لا يستحققن التضحية، النساء كالقطط يذهبن لمن يُقدم لهن الطعام، مشاعرك وتضحياتك رائعة، ستبقى شاعرها المفضل، لكنك لن تكون زوجها ما دامت ترى زوج ابنة خالتها يصاحبها في رحلةٍ كل شهرٍ إلى باريس، ستبقى شاعرها المفضل لكنك لن تكون زوجها ما دامت ترى أزواج صديقاتها يتفننون في هدايا شهرية باهظة الثمن، إنهن يملكن عقولًا سطحية فارغة، لا تُقدر إلا الذهب والألماس، يرون الصورة الخارجية ولا يتساءلون عن المعنى.

قد تجد شابًا يعمل طوال اليوم، يصب عرقًا في مشقة الحياة من أجل إرضاء حبيبته، وفجأة يأتي رجل ثري يفوز بها دون أية تضحية، لأنه يملك ما لم تملكه، لأنه يملك الثراء.

أشعل رأي مروان الغضب داخل داليدا، كادت أن ترد عليه، لكنها تذكرت إن ردها قد يؤلم ياسين؛ ذاك الذي عرف فتاة كادت أن تحارب العالم لأجله، لكنه من رفض أبسط محاولاتها، كان من الممكن أن يكتفي بالصمت أمام رغبتها وحماسها الكبير، لكنه قرر أن يهزمها بكلمات اليأس، أمر لم يختلف كثيرًا عما فعله فادي معها، فقد هرب منها وهي في أمس الحاجة له، كان هروبه وقتها إعلانًا لهزيمةٍ ساحقة لم تتوقعها، هزيمة من ذاك الذي وعدها بمواصلة الركض والكفاح معها، أقسى هزيمة تمر على المرء حين ينهزم من الذين حارب من أجلهم، وقد كانت هزيمة داليدا سببًا في تغييرها، اكتشفت بداخلها صفات وعادات دخيلة عليها.

نحن نولد بعد الهزائم، نصبح أشخاصًا أكثر حدة وعنفًا، نولد بملامح قاسية وقلوب صلبة، لا نصدق أحد، لا نتعشم في أحد، لا نثق بأي شخص، نتحول رغمًا عنا لأشخاصٍ كنا نُقسم ألا نصبح مثلهم أبدًا وقد كنا.

ردت مارتينا على مروان:

ـ المرأة هي جيشك الوحيد الذي سيدافع عنك أمام الجميع، أفضل من يشد بيدك قبل أن تغرق في

المأساة، الوحيدة التي تستطيع احتواء هزائمك بعد حربك الشرسة مع الحياة، والوحيدة التي تعرف كيف تدعمك حتى تعود منتصرًا وكأنك لم تنهزم، المرأة أفضل شريكٍ وأفضل حليفٍ لك، وأشرس وأخطر عدوٍ ستواجهه، يمكنها مداوة كل أوجاعك القديمة، تعرف كيف تُظهر أفضل ما فيك حتى تصبح رجلًا ناجحًا، ويمكنها تحطيم قلبك وتدمير حياتك، المزيج من الحب حد الدفاع عنك أمام العالم حتى الرمق الأخير، البقاء بجوارك في أشد وأصعب ظروفك النفسية والاجتماعية، العطاء بلا مقابل، التضحية بكل ما تملك في سبيل الحب والود والحفاظ عليك، والسخط عليك حتى تجاهلك، تجاوزها السريع لك كأنك لم تكن، والتخلي والرحيل عنك لأسباب مقنعة أو دون سببٍ يذكر، وحين تريد الانتقام لا يمكن لأي شخصٍ الوقوف أمامها.

المرأة هي مزيج من دفء الأمهات، قوة الكادحات والمكافحات الحالمات، أنوثة ورقة العاشقات، أمان وونس ودعم الأصدقاء.

المرأة هي الكون.

ابتسم ياسين من كلمات مارتينا.

لم يرد.. اكتفى بالابتسامة فقط.

كان يبتسم ساخرًا وحزنًا في آنٍ واحد.
مأساته أنه يعلم تمامًا قيمة ما فقده في حياته، يعلم حجم خسائرة.
بالنسبة لـ ياسين فقد كانت رقية هي الكون.
ـ ألم يحاول شخص رحل عنكِ أن يعود لكِ مرة أخرى؟
سؤال مباغت سألته تالا لـ داليدا، كان بإمكانها أن تعتذر عن الإجابة، لكن ما دامت وافقت من البداية على الجلوس معهم في هذه الحلقة الدائرية على ساحل نابولي فهي مجبرة على الإجابة، خضعت داليدا لشروط اللعبة، فأجابت:
ـ حدث هذا منذ فترة، رحل عني شخص ما ولم أسلم من قسوة رحيله، بدأ الأمر غريبًا في الأسبوع الأول من فراقنا: كنت أتابع صفحته الشخصية بحسابٍ مزيف، أرسلت له مئة وعشرين رسالة، كنتُ أصلي فقط من أجل أن يعودَ كلُّ شيءٍ على ما يرام، كنتُ في أمسِّ الحاجة لرؤيته، لسماع صوته، كنتُ أستيقظ لأطلبه على الهاتف، ناسيةً تمامًا أننا بالفعلِ افترقنا، كانَ يومي عبارة عن بكاءٍ وأنينٍ وصراخٍ صامت، بعد منتصف الليل، كنتُ على استعدادٍ أن أُضحي بأيِّ شيءٍ في سبيل عودتنا، انتظرتُه على أحرِّ من الجمر.
بعد مرور عِدّة أشهر على فراقنا: واصلتُ متابعتي له في الخفاء، لم أحذف الصور التي تحتفظ بذكرياتنا،

كنتُ أصلي مِن أجلِ أن نلتقي صدفة لأفهم مِنه سببَ غيابه المفاجئ، بين الحين والآخر كنتُ أشتاقُ لصوته ولرؤيته، كنتُ أستيقظُ على أملِ أن يعودَ كلُّ شيءٍ لطبيعته، ثم يأتي الظلامُ مُحمّلًا بخيبةٍ جديدةٍ من اليأس، كنتُ على استعداد أن أتنازلَ عن قسوةِ غيابه في سبيلِ عودتنا، انتظرتُه كثيرًا.

بعد مرور عامٍ على فراقنا: واصلتُ متابعتي له لكن بفتراتٍ متباعِدة، حذفتُ كلَّ الصور التي كانت تجمعني به، وقطعتُ علاقتي بكُلِّ مَن له علاقة به، واصلتُ الصلاةَ من أجلِ النسيان، لقد شغَلَتني الحياة كثيرًا عن طريقه، لم أعُد أشتاقُ لصوته، بدا في أُذُني مُشوّشًا، ملامِحه! لم أنسَها ولكنّي أتعلثمُ أحيانًا كلما رأيتُ شخصًا يشبِهُهُ، كنتُ على استعدادٍ أن أغفرَ كلَّ ما حدثَ، من تصرفاته الطائشةَ بعدَ الفُراق، انتظرتُ أن نعود، انتظرتُه.

بعد مرورِ عامين علي فراقنا: تناسيتُ الرقم السريَّ للحسابِ الذي كنتُ أُتابعهُ مِنه، لم يتبقَ من ذكرياتنا شيءٌ في ذاكرتي، صلّيتُ مِن أجلِ نفسي، لم يعُد قلبي يتألم عندما يمرُّ اسمُه أمامي، كُل الذينَ فِي حياتي لا يعرفونَه، أتذكَرُه فقط كلما أردتُ أن أُذكرَ نفسي بالكوارث التي حدثت لي بسببِ غيابنا، صوتُه لم يعُد

يرِنُّ في أُذُني، وملامِحُه لم تعد تلك التي أحببتها، ولو خيَّرتني الحياةُ بينه وبينَ حياتي الآن، لاخترتُ فراقنا، لن أتنازل ولن أقبل أن يكونَ حتى شخصًا عابِرًا في حياتي. انتظرتُه حتى أفسَدَ الانتظارُ حُبّي لَه.
وحين عاد لم أعرفه، أقصد إنني لم أعد أراه بهذه الصورة التي كنت أراه فيها قبل أن نفترق، أصبحت ملامحه عادية وباردة، لم يعد شيء يجذبني نحوها، كلماته التي كانت تذيب قلبي في غرامه باتت مُستهلكة ومحفوظة، أنا الذي كنت لا أطيق أن أرى الحزن في عينيه لم أتأثر حين رأيته يبكي أمامي، لم يعد ذاك الذي تمنيت البقاء معه طوال حياتي، أصبح شخصًا عاديًّا بالنسبة لي، لا أعرف كيف تغيَّرت صورته لهذه الصورة، هل نرى أحباءنا بصورتهم الحقيقة أم الحب هو من يزينهم ويجعلهم أكثر جمالًا وبريقًا في أعيننا؟ صدقًا لا أعرف، لكن ما أعرفه إنني لم أعد أرغب في رؤيته، انطفأت فجأة رغبتي نحوه، وكأنني لم أبكِ ليالٍ وليالٍ من أجل نظرةٍ واحدة من عينيه، كنت أريد أن أسأله: كيف تطلب العودة بعدما تركتني وحدي أتألم وأبكي من قسوة فقداني لك؟ كيف تجرؤ على طلب العودة بعدما تركتني وحدي أصارع الحياة ولم تهتم؟ كنت تعلم إنني أضعف من مواجهة هذه الحياة وحدي

ولم تبال، كنت تعرف إنني أبسط من خوض صراعاتٍ معها ولم تفكر في أمري، كنت تراني أمزق وأغرق في المأساة ولم تمد يديك لانتشالي، كنت تعلم صعوبة الأيام معي ولم تحاول التهوين عليّ أو مساعدتي، بل تركتني، وقفت مكتوف اليدين تشاهد ضحيتك وهي تتألم، تنكسر وتتحطم وتُقتل كل يومٍ من الخيبة والخذلان ولم تتقدم خطوة واحدة نحوي، وقفت مكتوف اليدين ويدي كانت تتمزق وهي تمتد نحوك، ترجوك أن تشد بها وتنقذها، لكنك بخلت، ورغم كل هذا كنت أنتظرك، بغباء وسذاجة طفلةٍ لا تؤمن بفراق الأحبة انتظرتك، حتى تسلل الانتظار في عرين حبي لك، ظل ينهشه وينهشه حتى سكن جدرانه فانهار، انهار تمامًا.. لم يعد بداخلي شيء يغفر لك قسوتك وإهمالك، لم يعد بداخلي شيء يُعيدك في قلبي، لقد أصبح قلبي خاويًا وفارغًا تمامًا، لا يصلح إلا للبقاء وحيدًا، آمنت إنني لا أصلح لأيةِ علاقةٍ بشرية، ولو كنت آخر من في الأرض.

تماسكت داليدا بعد أن جاوبت على سؤال تالا المفاجئ، ظل الصمت يسود الحلقة، كلمات أثارت الحنين والحزن في داخل كل شخص، تساؤلات وأفكار وذكريات راودت كل منهم، تفاصيل وتفاصيل احتفظ كل شخصٍ بها لنفسه لأنه لا يريد أن يتعرى أمام

أحد، ظل الصمت يسيطر على الحلقة حتى جاءت من بعيد ماري تُخبرهم إن السيد ديفيد شاهين في انتظارهم.

اتجه الأصدقاء إلى الغرفة.. شاشة عرض كبيرة يقف أمامها ديفيد شاهين، مكتبة ضخمة بجواره، طاولة عريضة مرصوص أمامها مجموعة من الكراسي جلس عليها أفراد المجموعة.

بدأ شاهين كلماته:

ـ قبل أن تخوض حربًا عليك أن تعد عدتك جيدًا، سياستنا واضحة، لا تهم السرعة قدر التصويب الصحيح في الهدف، لا يهم الإنجاز قدر إتمام العملية بنجاحٍ دون أن نترك خلفنا أي أثرٍ يدل على فعلتنا.

سنبدأ في فجر الغد أولى عملياتنا.

بينتو أحد رجال الأعمال المهمين في اليونان، قرر إنهاء أعماله هناك بعد أن سيطرت صوفيا على السوق هناك، ممتلكات هذا الرجل كبيرة تتجاوز خمسين منتجعًا سياحيًّا، وحين يقرر هذا الرجل أن يضع كل ممتلكاته للبيع يعني إن صوفيا منافسة شرسة له يتبعها ومن بعيد جورج أحد أكبر وأهم رجال الأعمال في العالم، كل منهما يريد الفوز وشراء ممتلكات بينتو للسيطرة على السوق اليوناني، نحن نتابع الموقف من بعيد، في حفلة المساء قررتُ أن ننشب خلافًا بين صوفيا وجورج، هددها الأخير بالقتل، هذا ما كنت

أنتظره، الآن الأجواء مضطربة ومشحونة، وهذه فرصتنا للفوز بهذه الجولة.

نظر الأصدقاء لبعضهم البعض.

في شاشة العرض ظهرت صورة لأحد المنازل الضخمة، واصل ديفيد شاهين:

- ياسين ومروان ستغادران الآن إلى اليونان، سترافقكما تالا، ستتجهون إلى منزل صوفيا.

نظرت ماري إلى ديفيد في استغراب، هي تعلم شدة قرابة صوفيا منه.. لاحظ ديفيد هذه النظرات لكنه لم يبال، وواصل:

- أولًا عليكما التخلص من رجال الأمن، فور بِدء القتال سينضم إليكما رجل منهم، مروان.. شتت رجال البوابة الأمامية، سيهرولون ناحية مصدر تشتتهم، الرجل الوحيد الذي لن يتحرك هو مساعدنا، حاول قدر المستطاع أن تتركه يستخدم هو الذخيرة الحية، وعلى أي حال سيكون معك مسدس صغير يساعدك في القضاء عليهم، تذكر، حاول أن تُأخر خطوتك، وتترك الرجل هو من يتقدم أولًا.

سيظل ياسين في السيارة حتى تُعطي له إشارة بالدخول، عندها سيتركك الرجل ويصبح مرافقًا لياسين، ستتجه معه إلى غرفة التحكم المركزية.

في هذه الغرفة مهندسة تُدعى «أوليفيا» من أهم مهندسي التكنولوجيا في اليونان، أريدها حية يا ياسين، احترس منها فهي تجيد القتال أيضًا، سيتولى أمر القبض عليها الرجل المساعد لك، احتفظ بسلاح المهندسة، لا تتركه للرجل.

في جهازك الحاسوب ثمة كلماتٍ سرية، إن استطعت الحصول على رقم الجهاز الرئيسي من المهندسة فستوفر على نفسك عناء التجربة، إن لم تستطع فأمامك ٥ دقائق فقط لاختراق الحاسوب الرئيسي، وبعدها ما عليك إلا قطع توصيلات الكاميرات.. والانتظار في مكانك، وبعد أن توصل الحاسوب الخاص بك في الجهاز المركزي سيمكننا من رؤية ما تفعلان.

مروان حينئذٍ سينطلق إلى الطابق الثالث، غرفة صوفيا.

أخرج ديفيد من جيبه الخنجر الصغير المكتوب عليه الحرفان G.L ، ثم قدمه لـ مروان:

ـ أريد أن تذبحها.. افصل رأسها عن جسدها.. واترك الخنجر أسفل السرير.. كأنه سقط منك، وفي حال تعثرت برضيعها لا تقتله؛ نحتاج إليه، لا تنسَ ارتداء الجوانتي.

هز مروان رأسه مشيرًا لفهم ما يريده ديفيد بالضبط.

ـ بعد أن تنهي مهمتك ترسل إشارة إلى ياسين.. بعد هذه الإشارة ستحذف كل الملفات المحفوظة في الكاميرات.. لا تترك أي ملفٍ عدا آخر ساعة في الكاميرا الخاصة بالبوابة الأمنية.. عند البوابة الأمامية ستطلق النيران على الرجل المساعد لك من سلاح أوليفيا، أصِبه من الخلف يا ياسين، من الخلف وبسلاح أوليفيا، سينتظرك مروان في الخارج، ويحمل معك أوليفيا، ستكون تالا في انتظاركما بسيارة خاصة أمام البوابة، ومن ثم ستبلغكما بما سيحدث فيما بعد.

سأل ياسين:

ـ لماذا عليَّ قتل الرجل المساعد لي؟

رد مروان بخبرتِه العسكرية:

ـ هذا الرجل مرتزقة، بإمكانه الغدر بنا في أيةِ لحظة، لذلك لا بُدَّ من التخلص منه فور إنجاز مهمتنا.

ردت يمنى:

ـ وبما أن ديفيد يريد المهندسة حية لذلك قتل رجل الأمن المساعد لنا بسلاحها الشخصي يعني خضوعها لنا حال محاولة التمرد علينا.

سألت مارتينا:

ـ لكن قتل رجال الأمن بسلاح المساعد لنا، ومن ثمَّ قتله بسلاح أوليفيا يعني إن أمرًا ما غير مفهومٍ قد حدث.

ردت ماري:

- بين المساعد لنا وأوليفيا علاقة عاطفية، لقد كان شرطه معنا ألا تصاب أوليفيا بأي مكروه، لذلك قد تكون الرواية هي اختلافهما لحظة الخروج، خصوصًا إن الرصاصة التي ستصيبه من الخلف وبعد عشر دقائق على الأقل من قتل رجال أمن البوابة الأمامية.. هذه مهمة الطب الشرعي.

ابتسم ديفيد؛ لقد أحسن اختيار رجاله.

ساد صمت بين الأصدقاء قطعه سؤال داليدا:

- لماذا سنفعل كل هذا؟

كان من الممكن على ديفيد ألا يجيب عليها، لكنها العملية الأولى، لذلك أراد أن يجعل الأمور بينهم عادية وطبيعية فقال:

- في هذه الأثناء سيقوم بينتو ببيع نصف ممتلكاته لـ داليدا بقيمتها الحقيقية، لكننا لن ندفع له إلا نصف الثمن، وبعقدٍ بتاريخ أول أمس، مما ينفي الشكوك حول بينتو.

- ماذا سيعود على بينتو من هذا البيع؟ سألت داليدا.

أجاب ديفيد:

- خبر اغتيال صوفيا يعني إن الحكومة اليونانية ستعرض ممتلكاتها هناك في مزادٍ علني، بينتو يوناني الجنسية، وأفضليته في المزاد ستكون أكبر أمام جورج الإيطالي،

غير إن بينتو سيرتاح من منافس شرس لا يرحم مثل صوفيا، هو سيكون مُدينًا لنا بالكثير؛ فقد أزحنا عن طريقه المنافس الأهم، سيعود هو إلى موطنه يعبث بالسوق كيفما يشاء دون منافسٍ حقيقي له، بينما نحن سنكون قد امتلكنا ٣٠ منتجعٍ سياحي في اليونان، وهو ضعف ما يملكه جورج المنافس الأول لنا هنا في إيطاليا، في الوقت نفسه لن يعلم أحد إن داليدا صاحبة هذه الممتلكات هي عميلة لنا وفرد من مجموعتنا.

قالت ماري:

ـ لا أظن إن بينتو سيثق في هذه الخطة، لن يثق في مطامعك يا ديفيد.

رد ديفيد:

ـ هذا صحيح، لكن حين يُصبح في ممتلكاته أكثر من ١٥٠ قرية ومنتجع سياحي لن يشغل رأسه بمنافسٍ يملك ٣٠ منتجعًا وقريةً سياحية.. ستكون مطامعه أكبر من التفكير في أمر منافسة شبه محسومة، على العكس لقد أزيحت عنه صوفيا، وكل الاتهامات ستتجه ناحية جورج في قتل صوفيا، الأمر الذي سيجعل جورج مهزوزًا، لن يواصل قتاله هناك بكل قوته خوفًا من أي رد فعلٍ غير متوقع.

أمسكت يمنى الخنجر الذي قدمه ديفيد لـ مروان وقالت:

ـ وهذان الحرفان أول إثباتٍ واتهام لـ جورج أليس كذلك؟

رد ديفيد:

ـ بكل تأكيد.. رجال الأمن أقوياء يا مروان.. كن حذرًا.

ـ لا تقلق، سأجيد التعامل معهم.

أغلق ديفيد شاشة العرض.

ـ حسنًا لنبدأ الآن.. تالا ومروان وياسين جهزوا أغراضكم، بعد ساعتين ستنطلق الطائرة إلى اليونان.. يمنى وداليدا وماري تَعَلن معي.

نظر ديفيد لمساعد ماري وقال له:

ـ أنت ستبقى هنا.

قبل أن يُغادر الأصدقاء كلًّا منهم إلى وجهته، وفي اللحظات الأخيرة أمسكت داليدا يد ياسين:

ـ أتمنى أن تعود لي سالمًا!

ابتسم ياسين، وربت على يدها:

ـ سأعود مثلما ذهبت، لا تقلقي.

خرج الجميع.

انطلق الأصدقاء بالفعل.. مروان وياسين وتالا كل منهم إلى غرفته، بينما انطلق السائق بديفيد وداليدا وماري ويمنى حيث إقامة السيد بينتو.

ـ لكن ما الذي يجعلك تثق إن بينتو لن يغدر بنا لاحقًا؟

سؤال سألته داليدا لـ ديفيد الذي قال:

ـ ستعرفين كل شيءٍ حين نصل.

يمنى فور وصولنا ستذهبين مع ماري لكتابة العقد، أريد ثمانيةَ بنودٍ من بينهم مسؤولية حماية المنتجعات يتكفل بها السيد بينتو، وأي اعتداءٍ أو ضررٍ يحدث لهذه المنتجعات والقرى يتحملها بينتو، ويُسأل عنها سواء مالية أو قانونية.

لا تنسِ كتابة الاسم المستعار لـ داليدا «نازلي فريد السباعي».. والعقد مُدون بتاريخ أول أمس.

سألت يمنى:

ـ وكيف سيتم تسجيله وهو قديم؟

ردت ماري:

ـ الآن هذه مسؤوليتنا، فيما بعد سيكون هذا عملك يا يمنى.

وصلوا إلى الباخرة.. اتجهت ماري مع يمنى إلى غرفة المكتب لتجهيز العقد، بينما رافقت داليدا ديفيد شاهين.

كان بينتو يجلس في مكانه يشرب الخمر منذ أن تركه ديفيد، جلس ديفيد وبجواره داليدا.

ـ ماذا تريد يا ديفيد بالضبط؟ أنا لا أفهم ما يحدث معي!

رد ديفيد:

ـ أريد حمايتك يا بينتو.. حمايتك والحفاظ على ممتلكاتك، ولا أدعك تغادر وطنك، هذا ما أريده بالضبط.

ـ أمنيات جميلة، لكنها مجرد أمنيات، لنتحدث بصدق، ما المقابل لهذه الأمنيات؟

رد ديفيد:

ـ وهل شرط أن يكون تقديم هذه الخدمات بمقابل؟

أجاب وهو يصب لنفسه كأسًا آخر:

ـ بكل تأكيد، لا توجد خدمة مجانية يا ديفيد، لا أحد سيُضحي من أجلك دون مقابل، كل شخصٍ لديه نية وهدف للاستفادة منها، حتى لو لم تظهر في البداية حتمًا ولا بُدَّ ستظهر فيما بعد، أنت رجل ذكي يا ديفيد، ومن الذكاء أن تبدأ مباشرةً معي في عرضك.

رد ديفيد:

ـ لن أطيل عليك، ستبيع لنا نصف ممتلكاتك يا بينتو، على الورق سنشتريها بقيمتها الحقيقية، لكننا لن ندفع لك إلا نصف قيمتها.

ضحك بينتو ساخرًا:

ـ أنت تمزح بكل تأكيد.

بملامح ثابتة رد ديفيد:

- جورج لن يتهاون في حق زوجته، ولن يقبل أن تكون شاهد عيان على إهانته، سينتقم من صوفيا أشد انتقام، ثم يعرض عليك شراء ممتلكاتك بأقل من نصف قيمتها الحقيقية، وفي حال رفضك السكين الذي سيزرعه في قلب صوفيا سيزرعه في قلب زوجتك، ثم يجبرك على التنازل من أجل سلامة ما تبقى من عائلتك، لن يقتلك أنت، هذه ليست طريقته، سيحطمك ويراك تتحطم أمامه، هنا تكمن لذته، هو لا يقتل الرجال إنما يحطمهم، سيتركك تشاهده يتسيَّد السوق المحلي في اليونان وحده، وستصبح أضعف من أن ترفع عينيك في وجه أبنائك.. وفي وجهه، حتى تخرج أنت من بلدتك خالي الوفاض..عائلتك وممتلكاتك.

- جورج ومهما بلغت قوته لا يستطيع الاقتراب مني.. اليونان بلدتي.

رد ديفيد:

- قلت لك لا تستهِن بقوة أحد، ولا تراهن على قوتك، بلدتك فقيرة، سيدها هو المال، وهذا ما يملكه جورج.

قال بينتو متحفزًا:

- وأنا أملك المال.

- لكنك تملك عائلة تخشى عليها.. هذا ما يجعلهم نقطة ضعف أمامه.

- هو أيضًا يملك عائلة يخشى فقدانها.

ضحك ديفيد:

- جورج لا يملك إلا جورج.. لو عائلته عائق أمامه سيقضي عليها، أنت تعرف هذا جيدًا.

فكر بينتو طويلًا، تنهد ثم سأل:

- وبعد أن أبيع لك نصف ممتلكاتي؟

صب ديفيد كأس نبيذٍ لنفسه:

- حسنًا، الآن يمكننا التفاوض، حال موافقتك على البيع سأزيح من طريقك صوفيا، هذه مهمتي، لن تجد لها أثر حتى تعرض الحكومة ممتلكاتها في مزادٍ علني، وهذه مهمتك للفوز به، ستتنازل عن نصف ممتلكاتك الآن، وبعد أسبوع ستكون لك فرصة للفوز بممتلكات صوفيا، مع ما تبقّى من ممتلكاتك، ستكون أنت سيد السوق المحلي، هذا سيرفع أسهمك في الانضمام لمجموعتنا.

قال بينتو:

- سأرتاح من أذى صوفيا، وأوافق بنفسي على مواجهةٍ جديدة ضدك!

هز ديفيد رأسه وواصل:

ـ لن أشتري منك بشكلٍ مباشر، سيقوم بهذا أحد أفراد مجموعتي، ثم إنك ستمتلك حينها أكثر من ١٥٠ قريةٍ ومنتجع وشركةٍ سياحية، لن يؤثر عليك منافسٌ يملك عددًا لا يذكر مقارنةً بك.

أشعل بينتو سيجارته ودخنها بشراسة، ثم سأل:

ـ وماذا عن جورج؟ لن يترك المزاد بسهولة.

جاءت ماري ويمنى ومعهما العقد، أمسك ديفيد بالعقد وقرأه سرًا، وهو يقول لـ بينتو:

ـ لقد أجبتك على أغلب الأسئلة، يتبقى أن توقِّع على العقد قبل أن أجيبك على سؤالك الأخير.

أخذ بينتو العقد وبدأ في قراءته، وقف أمام بند حماية القرى والمنتجعات ومسؤوليته القانونية عنها:

ـ هذا البند غير عادل.

ردت يمنى بعد أن أذن لها ديفيد:

ـ هذا قمة العدل سيد بينتو، نحن نثق بك، وأنت تثق بنا، لكن لا أحد يثق فيما يُخبئه لنا الزمن، هذا البند ميثاق وفاءٍ وشرفٍ للطرفين.

أُعجب بينتو بلباقة يمنى في الرد، فواصل القراءة، ثم توقف أمام تاريخ العقد المُدون قبل يومين:

ـ هذا سيجعلني أمام مجموعتكم شخصًا مُتلاعبًا.

ردت يمنى:

ـ لا يهم إن كنت شخصًا مُتلاعبًا، الأهم أن يحميك من الضرر المتوقع، هذا التاريخ سيُبعد عنك كل الشكوك والتساؤلات القانونية، لقد تنازلت بالفعل، ولن يعود لك هدفٌ من إزاحة صوفيا.. بالمناسبة، تسجيل العقد مسؤوليتك أيضًا، نحن نعرف إنك تملك رجالًا مهمين في القانون التجاري.

ابتسم بينتو:

ـ دائمًا تُحسن اختيار مساعدينك يا ديفيد.

تردد الرجل كثيرًا قبل أن يوقع.. ظل يفكر ويفكر.. ظل يتساءل ويهمهم:

ـ ماذا عن جورج هذا؟

ـ لا تقلق يا بينتو.. وقع يا بينتو من أجل حماية عائلتك.. لا تقلق.

وقع بينتو بالفعل.

أخذت يمنى العقد وأعطته لـ داليدا التي وقعت باسمها المستعار.

ابتسم ديفيد، لقد حقق ما أراد للمرةِ الثانية.

ـ حسنًا يا بينتو، كل الاتهامات ستتوجه لجورج، وهذه مسؤوليتنا، لن يجرؤ على خوض المزاد أمامك لأن هذا سيزيد الشكوك والاتهامات حوله.

ـ أريد الأمان والسلامة يا ديفيد.

ـ أعدك بهذا يا بينتو.. أعدك.

خرجت يُمنى وداليدا وماري، ومعهن العقد المُبرم بين بينتو وداليدا أو نازلي كما سُجل باسمها المستعار.

ـ حسنًا يا بينتو، الآن اتفقنا.

ـ أنا أثق بك يا ديفيد، لذلك لم أسألك قبل أن أوقع العقد سؤالي هذا: ما الذي يجعلني أثق في اتفاقك يا ديفيد؟

اقترب ديفيد من بينتو:

ـ لا أملك أيةَ ضمانات أُقدمها لك يا بينتو، عدا شيءٍ واحد: «عداوتي الأبدية مع جورج»، أنت تعلم هذا، وتعلم إن ما يقودني لهذه اللعبة ما هو إلا دافع الانتقام من هذا الوغد، أجهز له ضرباتٍ من بعيد حتى يأتِ اليوم المنتظر وأنال منه.

بنبرةٍ يغلب عليها الشفقة قال:

ـ كل العالم يعرف ما حدث لزوجتك وطفلك، يعرف من الجاني، ويعرف كل تفاصيل الجريمة، لكنهم يرفضون الاعتراف بها، لكن أنت تعلم أن الضمانات الشخصية لا يُعترف بها في عملنا.

رد ديفيد:

ـ أريد أن أؤسس عالمًا مختلفًا يا بينتو، ثق بإنني لن أخون عهدك معي، ثق في هذا جيدًا.

سأل بينتو:

ـ لست متشائمًا، لكن ماذا لو لم ينجح رجالك في خطتهم؟

رد ديفيد:

ـ لا تضع فرضياتٍ ليست واردة.. ورغم ذلك حال فشل العملية سنمزق العقد فورًا وكأن شيئًا لم يكن، الآن عليك البقاء معنا ليومٍ آخر حتى ينتهي الرجال من تنفيذ عملهم هناك، ومِن ثمَّ ستعود قبل أن تُذيع الصحافة خبر ما حدث لـ صوفيا.

الثالثة صباحًا/ أثينا.

وسط حالة تأهبٍ وترقبٍ وظلامٍ غير معتادة في مدينةٍ لا تنام، انطلقت تالا ومعها مروان وياسين إلى منزل صوفيا، الصمت والتركيز أهم ما سيطرا على مروان وياسين وهما في الطريق إلى هناك، قد لا يعود أحدهما، قد لا يعود الاثنان معًا، وقد يعودان معًا، لكن لن يعودا كما كانا قبل تنفيذ مخططهم، اعتاد مروان على مثل هذه اللحظات، لكن ياسين كان مضطربًا، يحاول التماسك بعض الشيء لكن دون جدوى.

ـ صدقني لم أكن أعرف.. أنا آسف.

قالها مروان لـ ياسين الذي رد في هدوءٍ:

ـ انسَ هذا الأمر.

بعاطفةٍ غير مألوفة على مروان قال:

ـ أنت صديقي الوحيد يا ياسين، لا أريد خسارتك.. أنت الوحيد الذي ظللت معي حين تخلَّ الناس عني.. أنا آسف، أقسم لك لم أكن أعرف.

فتح ياسين زجاج السيارة وهو يقول:

ـ مروان، قلت لك انسَ الأمر.

صمت مروان بعد أن شعر بالخيبة.

على بُعد خمسين مترًا وعلى مرمى البصر وقفت تالا بالقرب من القصر بسيارتهم، كانت الأجواء باردة، والأمطار تتساقط بغزارة، والشارع خالٍ من المارة.

ـ أمامكما ٢٠ دقيقة من الآن.. بعدها سأتحرك أمام القصر.

لم يرد الرجلان، خرجا من السيارة بعد أن تمم كل منهما على نفسه.

الحاسوب..

المسدس..

بعض أدوات الكهرباء..

هاتف صغير..

حبل طويل..

حقيبة صغيرة..

وكشاف.

انطلق ياسين مع مروان.. وقف على مسافةٍ قريبة جدًّا من القصر.. البرق هو فقط من يكشفهم.

- انتظر هنا يا ياسين، لا تقترب إلا بعد أن أرسل لك رسالة.

هز ياسين رأسه.

بخطواتٍ ممزوجة باصطدام قطرات المطر على الأرض.. تحرك مروان.

رجلان أمام البوابة الأمامية.. ورجلان في الجانب.. إذن نحتاج للدخول من الجانب الأضعف.

تذكر كلمات ديفيد شاهين معه:

«شتت رجال البوابة الأمامية، سيهرولان ناحية مصدر تشتتهم، الرجل الوحيد الذي لن يتحرك هو مساعدنا».

فتش مروان بين أغراضه على شيءٍ ما يلفت انتباه رجال البوابة الأمامية.

مولتوف!

فكرة رائعة وبسيطة.

ألقى بزجاجة المولتوف في الجانب الأيمن من القصر، اتجه الرجال سريعًا ناحية الحريق الصغير.

هنا ومن جهة اليسار دخل البوابة الأمامية.. كان في انتظاره مساعده.

ـ اتبعني.

تحرك الرجلان خلف رجال الأمن.. أخرج مروان مسدسه.. الضباب يسود المكان، وكلمات رجال الأمن واضحة:

«مشطوا المكان جيدًا».

اختبأ مروان خلف إحدى السيارات.. بينما تقدم المساعد.

سأله أصدقاؤه:

ـ لماذا تركت البوابة الأمامية؟

ـ سمعت أحدهم يلاحقكم، لكنني لم أجده.

قال أحدهم:

ـ لنعد حيثما كنا.

تحرك الرجال خلفهم المساعد، وعلى بُعد خطواتٍ منهم.. أخرج سلاحه بعد أن وضع كاتم الصوت، وأطلق عليهم النيران جميعًا.. فرَّغ خزنته عليهم.

سقط الرجال جميعًا متأثرين بدمائهم.

الظلام يودع السماء.

الوقت يجري سريعًا.

خرج مروان من خلف سيارته.

«الخطوة الأولى تمت بنجاح، أنا في انتظارك».

أرسلها لـ ياسين الذي ألقى سيجارته أرضًا وتقدم في الحال ناحية القصر.

- غرفة صوفيا في الطابق الثالث، إن تجاوزت عمال المطبخ والقصر في الطابق الأول فلن تجد من يُعيقك إلى الغرفة.

تحرك مروان، بينما جاء ياسين ليتحرك معه المساعد.

- المهندسة مُسلحة وتجيد القتال، لا تدخل قبل أن أشير إليك.

تحرك الرجلان في هدوءٍ وترقب.. خطوات متلاحقة والأمطار تتساقط..

اقتربا من غرفة التحكم.. ترك ياسين المساعد يدخل أولًا.

- عزيزي لماذا جئت إلى هنا؟

- اشتقتُ لكِ.

كلمات حميمية سمعها ياسين بين رجل الأمن والمهندسة أوليفيا، بدأ الاثنان يقبلان بعضهما البعض.

همهم ياسين:

- لا وقت للمشاعر الحميمية الآن.. أيها الغبي سينكشف أمرنا!

بعد دقائق ومع ارتفاع لهيب الغرام في الغرفة.. سمع ياسين صوت الفتاة تصرخ:

ـ هيًّا يا رجل هيًّا!

دخل ياسين.. الفتاة شبه عارية.. والرجل يربط يديها ويضع شريطًا لاصقًا على فمها.

وقف لثوانٍ يتأملها، يبدو إنه تذكر ما حدث.. مشهدٌ قريب لما رأى أخته عليه في المرة الأخيرة.

دفعه الحارس بقوةٍ في كتفه:

ـ هل جئت لتمارس الجنس؟! هيًّا يا وغد!

عاد سريعًا ياسين إلى وعيه.. لحسن الحظ كانت ملفات الحاسوب مفتوحة.. اخترق كاميرات المراقبة، وصلَّ الحاسوب الخاص به في الجهاز المركزي.

الآن يمكن لـ ديفيد ويمنى وماري وداليدا ومارتينا متابعة ما يحدث مع ياسين.

مروان هناك يختبئ خلف أحد العواميد في الطابق الأول.

ضجيج حدث فجأة، يبدو أن أحد العمال قد استيقظ، يقترب الصوت أكثر من مروان.

أنفاس مروان تزداد.. في حيرةٍ من أمره، هل يخشى عليه أم يخشى أن ينكشف أمره فيُقتل معه؟

اللعنة!

ـ لا تقتلها يا مروان، لا تقتلها، إنها فتاة صغيرة، تبدو ابنة أحد العمال.. لا تقتلها أرجوك!

قالتها داليدا.

أمنية لم يحققها مروان الذي انقض عليها وكتم أنفاسها، تنهدت داليدا، كادت أن تبكي.

همهم ياسين في نفسه:

ـ اللعنة! حتى الأطفال لم يسلموا من أذاك!

صعد مروان للطابق الثاني.. المهندسة هادئة تمامًا بجوار رجل الأمن وياسين.

الطابق الثالث.

الطابق مُظلم تمامًا.

غرفتان.

صراخ طفلٍ في الغرفة الأولى.. اقترب من الغرفة الثانية..

صوفيا شبه عارية.

المشهد المُفضل دائمًا لمروان.

اقترب منها بخطواتٍ هادئة.

اقترب أكثر.

الرعد القوي يُغطي على خطواته.

اقترب أكثر.

فجأة فتح أحدهم الباب.

توقف النبض فجأة عند مروان وياسين.

ديفيد أكثرهم هدوءًا، يثق كل الثقة في مروان.

ـ سيدتي الصغيرة تصرخ منذ ساعة.

استيقظت صوفيا وأخذت الرضيعة:

ـ يا جميلة.. لماذا تبكين يا حبيبتي؟

خلف الدولاب اختبأ مروان.

خمس دقائق مُتبقية ويستيقظ العمال.

الوقت لن يرحم أحد.

خرجت العاملة.

هدّأت صوفيا من ثورة ابنتها.

وضعتها بجانبها.

ثلاث دقائق.

الوقت يمر.

يمر...

خرج مروان سريعًا، وانقض على صوفيا، وضع السكين على رقبتها، ولم يتردد للحظة.

ذبحها.

ذبحها بدماءٍ باردة.

ألقى الخنجر أسفل السرير كما أُخبر.

مشهد لم تتحمله داليدا.

أعاد أذهان ما حدث في عقل ياسين.. بينما ديفيد يتابع في مكانه كل شيء.

سالت الدماء على وجه الطفلة.

- اقتلها حتى لا تصبح عاهرة مثل أمها.

قالتها يمنى.. رددتها بقوة، بالطبع هو لا يسمعها.

- اقتلها يا مروان.. ارحمها من أن عارًا سيلاحقها طوال حياتها.

في استغرابٍ نظرت ماري لانفعال يمنى:

- اقتلها يا مروان.. ارحمها أرجوك وإلا ستصبح عاهرة مثل أمها!

حمل مروان الرضيعة بين ذراعيه، استوقفه الصليب المعلق على رقبتها.

- لا تنزعه.. لا تنزعه.. إن نزعته ستبعد الشكوك عن جورج.

قالتها مارتينا.

كاد أن يفعلها لكن.. حمل الفتاة وخرج.

الآن حان دور ياسين.. حذف كل الملفات المحفوظة في الكاميرات وأوقفهم تمامًا، أخذ سلاح المهندسة.

- هيًا هيًا.. الصباح بدأ يُعبِّر عن نفسه.. انتهى الوقت.. الآن قد يتم القبض عليهم في أيةِ لحظة. قالتها داليدا.

خرج رجل الأمن قابضًا على أوليفيا.

مروان يقف أمام البوابة.

يقتربان منه.

فجأة لاحظ ياسين أن أحد رجال الأمن لا يزال على قيد الحياة.

الرجل ورغم إنه ملقى على الأرض، لكن وجهته ناحية مروان، وفي أقل من ثانيةٍ استعاد الرجل قوته، وأمسك سلاحه مصوبًا تجاه مروان.

اتركه يا ياسين.. اتركه يقتل الذي كان سببًا في قتل أختك.. اتركه أنت لست مسؤولًا عن حمايته.

صوت مروان يُردد في أذنيه:

«أنت صديقي الوحيد يا ياسين».

اللعنة!

صوب سلاحه ناحية الرجل الملقى على الأرض.

مات الرجل.

لقد كانت طلقتك الأولى لإنقاذ من تسبب في قتل أختك.. في قتلك.

تنهد مروان، لقد أنقذ ياسين حياته.

تقدمت سيارة تالا:

ـ أسرعوا أسرعوا.

ـ المهمة لم تكتمل بعد. قالها ياسين.

من بين الجثث مر ياسين مع أوليفيا ورجل الأمن.

- اعذريني يا أوليفيا، هذا الحبيب لا يستحقك.

أطلق الرصاصة الثانية من الخلف في ظهر رجل الأمن.

هذا ما أمره به ديفيد شاهين.

- هيًا.. هيًا!

حملها وخرجوا من البوابة.

انطلقت تالا.. ياسين، وأوليفيا التي غطى عينيها.. ومروان مع الرضيعة.

الخطوة الأخيرة.. العبور.

من غرب أثينا تحركت باخرة تابعة لشركة ديفيد إلى إيطاليا، هذه أسرع وأقصر الطرق المتاحة الآن.

فور عبور ساحل اليونان، وبعد دخول ساحل دولة البانيا، أرسلت تالا رسالة إلى ديفيد: "Il piano del diavolo è riuscito"

لقد نجحت خطة الشيطان.

وللحديث بقية...

الفصل العشرون

ديڤالو

في الغرفة استقبل شاهين رسالة تالا، لقد «نجحت خطة الشيطان». والآن ما عليهم إلا انتظار توابع خطتهم، ابتسم شاهين، لقد أنجز رجاله المهمة كما ينبغي، خطة مُحكمة سريعة التنفيذ، صحيح إن بعض التفاصيل كادت أن تحكم عليها بالفشل، لكن في النهاية عبروا بسلام من ساحل البانيا حاملين على أكتافهم لذة الانتصار إلى نابولي، الآن على ماري ومارتينا إعداد حفل الفوز، وعلى ديفيد أن يراجع النقاط السلبية التي نجى منها رجاله في اللحظة الأخيرة.

كالاتفاق المُبرم عاد بينتو إلى أثينا مُستعدًا لثروةٍ طائلة تنتظره، الآن أصبح طريقه مفروشًا بالورد والأزهار، متابعة أخبار اغتيال صوفيا أمر ممتع، حين ترى منافسك اللدود أصبح من الماضي

يجوز عليه الرحمة والشفقة، الآن لم يعد مطلوبًا منه إلا الاستمتاع والاستعداد والتحضير للفوز بالمزاد المنتظر، حينها سيتسيَّد هو زمام الأمور والسوق اليوناني، ويصبح بإمكانه الانضمام لمجموعة عائلة بيربتوف التي تحكم وتسيطر على أغلب أسواق القارة العجوز، والتي سيرافق فيها أهم وأكبر رجال الأعمال في أوروبا، وبالطبع من بينهم الرجل الذي أتاح الفرصة لكل هذه المميزات.. السيد ديفيد شاهين.

عاد الأصدقاء، كانت في استقبالهم ماري ومارتينا وداليدا ويمنى، لقاء ما بعد مثل هذه العمليات له لذة ومذاق خاص، هرولت داليدا نحو ياسين، كادت أن تعانقه لولا ثبات وجمود المهندس.

- حمدًا لله على سلامتك يا ياسين.

ابتسم ياسين:

- هل تم الاتفاق؟

بتعالٍ مصطنع ردت:

- نعم، سأغادر إلى أثينا في أقرب وقتٍ لإدارة أعمالي هناك.

- رائع! أحتاج لصورةٍ معك أحتفظ بها للذكرى.

ضحكت داليدا:

- سأحاول توفير وقتٍ لهذه التفاهات.

اقتحم مروان لقاء ياسين وداليدا وقال موجهًا كلامه لـ ياسين:

- لقد أنقذت حياتي يا صديقي.. أنا مُمتن لك.

لـم يرد ياسين.

ـ أنت لا تكرهني يا ياسين، لو كنت تكرهني لتركت الرجل يقتلني، أنت حزين مثلي لما حدث، أنا أشعر بك، لن أضغط عليك أكثر من هذا، تأكد إنني دائمًا سأكون مدينًا لك بحياتي.

ابتعد مروان، فسألت داليدا ياسين عما حدث فقال:

ـ أحد رجال الأمن كان جريحًا، تسلل ببطءٍ وكاد أن يُطلق النيران على مروان، لكن وفي اللحظة الأخيرة أخرجت مسدسي وأطلقت عليه الرصاص؛ فغرق في دمائه قبل أن يصيب مروان.

تنهد ياسين، ثم واصل:

ـ لا أعرف كيف قمت بهذا؟ كيف لم أطلق النار على مروان انتقامًا لما حدث أو على الأقل كنت أتركه للموت؟!

ربتت داليدا على يد ياسين وقالت:

ـ هذا أصل النبلاء يا عزيزي.. هذا أصل النبلاء.. لقد أحسنت صنعًا.

ابتسم ياسين بخيبةٍ:

ـ أصل النبلاء هذا الذي جعل أحلامنا وأفكارنا ونساءنا عرضة للبيع أمام أولئك الذين يملكون كل شيء، تعرفين يا داليدا حين رأيت مروان يقتل صوفيا كنت أريد

مشاركته، كنت لا أراها مجرد امراة فاسدة، إنما أراها عالمًا بأجمعه، أردت لو كان بإمكاني طعنها خمسين طعنة؛ انتقامًا من كل رجلٍ فاسد اشترى بفساده أحلام رجلٍ فقير، هدم منازل معبأة بالذكريات والتفاصيل من أجلٍ متجرٍ ضخم يُكتب باسمه، طعنة لأولئك الذين تسببوا في قتل أبرياء وصراخ الأمهات، طعنة في قلب كل شخص نهب حقوق الضعفاء والمهمشين، طعنة في قلب كلِّ من استغل سلطته ونفوذه ليخدم مصالحه الخاصة، ويدهس بقدميه كل الذين يملكون أمنياتٍ ولو بسيطة في الحياة، طعنة في قلب الذين استغلوا الدين في تضليل البسطاء، والذين استغلوا الجهل والجوع في محو مفاهيم الحرية والإنسانية، طعنة في قلب كل من لُطخت يديه في سرقة الأمنيات، وتحطيم الأحلام، وإنهاء حياة من هم أضعف منه وأعجز عن مواجهته، كل الذين شدوا فتيل الحرب في مدنٍ كانت لا تعرف إلا الود والسلام.

ابتسمت داليدا:

- تعرف يا ياسين نحن متشابهان، متشابهان جدًّا في كل شيء، أنت تريد الانتقام من هذا العالم وأنا أريد أن يفنى العالم، أنت تريد أن تُشرق شمس العدالة والحرية، وأنا أريد أن يحيا العالم في حبٍ وسلام،

الفرق بيننا إنك تريد القتال لتُحقق مرادك، أما عني فأنا لا أريد إلا أن يمر كل هذا بعيدًا عني، أمنياتي أضعف من الوقوف في ساحات الحرب والدفاع عن رايتها، أمنياتي أبسط من كل هذا، أريد أن يفنى العالم في هدوء، لن أتحمل مأساةً أخرى تحدث لهذا العالم، لقد تعبت من عالم لا يعرف إلا الحرب، أريد عالمًا سالمًا، عالم يعرفُ الحب.

تنهدت داليدا، ثم واصلت:

ـ في الصباح رأيتُ صور زفاف حبيبتك رقُية، كانت جميلة، لكن أكثر ما شوَّه هذه الصور هو زوجها، هل تعرف من هو زوجها يا ياسين؟ أدهم ابن عمي، ذاك الذي اغتصبني، وهددني، وسرق ميراثي وممتلكاتي بمساعدة أبيه.

رد ياسين متفاجئًا:

ـ أدهم!

ضحكت ساخرةً:

ـ ألم أقل لك إننا متشابهان جدًّا يا ياسين؟!

أمسكت داليدا يد ياسين واتجها إلى مبنى الغرف وهي تُدندن:

ـ قوم نحرق هالمدينة ونعمر واحدة أشرف.. قوم ننسى هالزمان ونعلم بزمن ألطف.. ما زالك بلا شيء.. ما فيك تخسر شيء.. وانا مليت من عشرة نفسي.

أمام الجميع وقفت مارتينا وقالت:

- لقد نجحنا في خطتنا، والآن لنستعد لحفل المساء.

في الواحدة صباحًا بعد منتصف الليل.. بدأت الحفل.. الموسيقى الصاخبة والأغاني والرقص مع النبيذ والمشروبات الغازية.

الأصدقاء في حالة هرج ومرج، ونشوة الاحتفال تُسيطر على الجميع، بينما في قصر ديفيدً الذي كان يستعد للحاق بهم الأجواء هادئة تمامًا.

مع شدة رباط العنق الأخيرة، وببدلةٍ كلاسيكية.. تقدم خُطوات ناحية غرفة ماثيو.

وقف لثوانٍ أمام باب الغرفة، ثم وضع على عتبة الباب الرسالة التي تركتها لورين له في الحفل، لكنه أضاف بعد نهاية الجملة:

«في عرين الأسد.. ضبع».. ديڤالو.

أي الشيطان بالإيطالية.

ثم طرق الباب وتحرك.. بخطواته المتزنة الهادئة.. وما إن ركب سيارته حتى سمع صوت إطلاق نارٍ من غرفة ماثيو.

ابتسم وأمر السائق بالتحرك.. وصل ديفيد إلى الحفل.. رحب الجميع به.. وواصلوا الرقص والغناء.

- أنا سعيدة لأنني أرقص معك يا ياسين.

ابتسم ياسين:

- أنت جميلة يا داليدا.

فجأة وقفت يمنى على إحدى الطاولات.. خلعت وشاحها الذي يُغطي أعلى نهديها ورقبتها.

ـ هذه الموسيقى سخيفة.

تقدمت ناحية الجهاز الصوتي.. ومعها بدأت في الرقص على إحدى الأغاني الشعبية المصرية:

«يعجبني كلك يا ولا يا ولا كلك عاجبني..

مفيش معلم يا ولا يا ولا هيحاسبني..

يعجبني كلك يا ولا كلك عاجبني».

المحامية الموقرة ترقص بجنونٍ وشغف وتمايل.. ترقص شبه عارية أمام أصدقائِها.

قلت لك:

ـ هذه المرأة غريبة.. أغرب مما توقعت.

قالتها ماري لديفيد الذي ظل في مكانه يتابع رقصها.

فوجئت داليدا بتصرفات يمنى، لكنها واصلت الرقص مع ياسين.. همست له:

ـ لا أفهم ما يحدث، لكن وبكل تأكيد هناك شيء ما لم نكتشفه بعد في شخصية يمنى.

رد ياسين:

ـ هذا تأثير الخمر لا أكثر.

مساعد ماري كان يتابع كل شيءٍ ثابتًا في مكانه.

مع نهاية الحفل.. اتجه ديفيد إلى صالة الاجتماعات، ومعه قالت مارتينا:

- حسنًا، انتهى وقت الاحتفال.. الآن السيد ديفيد شاهين في انتظاركم.

عشر دقائق كانت كفيلة أن يستعيد الجميع ذهنه وتركيزه للاجتماع المنتظر.

أمسك مروان بـ يمنى وعنفها:

- لا تفعلي هذا مرة أخرى!

دفعته يمنى:

- هذا ليس من شأنك، ما يربطني بك قد...

قاطعتهما ماري:

- أظن إن هذا ليس وقتًا مناسبًا للعراك، هيًا السيد شاهين ينتظركم.

تحرك الأصدقاء، واتجهوا إلى صالة الاجتماعات.

وقف ديفيد شاهين، وعلى شاشة العرض خلفه كانت العملية التي سجلها ياسين.

- حسنًا، دعوني أناديكم بالأولاد، هذا لقب تستحقونه جميعًا، هذا اجتماعنا الأول، وسيكون بشكلٍ دوريّ اجتماع بعد كل عملية للحديث عنها بالتفصيل، لقد أنجزتم الخطة كما وضعتها بالتمام والكمال، لكن ثمة

أخطاء قد حدثت لا بُد أن نتوقف عندها خوفًا من تكرارها؛ فقد يكلفنا هذا خسائر لا نتوقعها.
أولًا: حين وصل مروان إلى البوابة لقد استغرقت ما يقارب من دقيقتين قبل أن تُلقي المولتوف.. دقيقتان يعني ستين ثانية، وهذا بالنسبة لنا وقت كبير جدًّا، خصوصًا إنك كنت تقف مباشرةً أمام البوابة، ولم تستتر، وهذا مُلفت جدًّا للانتباه، في المرة القادمة عليك أن تُجهِّز عدتك، وترسم خطتك قبل التحرك من مكانك، الخطأ الثاني: هو إلقاؤك للمولتوف كان بعيدًا جدًّا من البوابة، ولولا مساعدنا الذي أمر مساعديه بالتحرك إلى مكان الحريق لما توجه رجال الأمن في مجموعةٍ واحدة إلى الحريق من الأساس، لم تدرس أبعاد القصر جيدًا، وهذا خطأك، لقد أُعطت لك تالا الصور والفيديوهات التي تُمكنك من مراعاة المسافة، الخطأ الثالث: حين أطلق مساعدنا النيران على رجال الأمن لم تتأكد من قتلهم جميعًا، هو ليس محترفًا في القتال، هذه مُهمتك يا مروان، أنت أقوى وأفضل منه، كان عليك التأكد من قتلهم جميعًا.
حين صعدت للطابق الثاني.. نحن لسنا سفاحين يا مروان، لم يعجبني قتلك للصغيرة، كان بإمكانك أن تفاديها، كان بإمكانك أن تضربها حتى تفقد الوعي

دون أن تقتلها، قلت لك هذه ليست سياستنا، والدماء ليست محببة لنا، خصوصًا إن الفتاة لم تُشكل عليك الخطر الأكبر.

بالنسبة لـ ياسين: أنت لم تخطأ الخطأ الذي يستحق الحديث عنه.

نظرت ماري إلى ديفيد باستغراب.. واصل ديفيد:

- في النهايةِ لقد حققتم ما أردنا، أنجزتم الخطة على أكمل وجه، أنا فخور، لا أريد أن تُعكر هذه التفاصيل صفو احتفالكم وسعادتكم، عملياتنا تكمُن في مثل هذه التفاصيل، لذلك وجب علينا توخي الحذر في المرة القادمة، الآن استريحوا قليلًا، وبعد دقائق سأعود لنواصل الاجتماع.

خرج ديفيد مع ماري، بينما ظل الأولاد في مكانهم.

أشعل ديفيد سيجارته وظل يتأمل البحر من مكانه، بينما كانت الأسئلة في رأس ماري تتصارع، فسألت:

- لماذا لم تذكر خطأ وقوف مروان أمام الصليب لوقتٍ طويل؟

رد ديفيد:

- لأن هذا الخطأ نتيجة لاضطرابٍ نفسيّ، هو لم يتعمد الوقوف أمامه يا ماري، كان كُل شيءٍ يسير بشكلٍ طبيعيّ، حتى اللحظة التي رآه فيها، هنا تذكر ما حدثَ

معه، تذكر أمر حبيبته المسيحية، وتذكر كل ما له علاقة بها، هو لم يتعمد الوقوف طويلًا أمام الصليب، إنما فعلت الذكريات والمواقف والتجارب القديمة هذا، تمامًا كـ ياسين الذي وقف طويلًا أمام أوليفيا حتى اضطر المساعد لدفعه وسبه، هذا الخطأ نتيجة لاضطرابٍ نفسيّ أيضًا.

نحن لسنا هنا لنفقدهم الثقة بأنفسهم أو نعري مواقفهم وتجاربهم القديمة، نحن هنا لحمايتهم وإعدادهم نفسيًا، سأتناقش معهم في هذه الأخطاء، لكن على حدة، بعيدًا عن أصدقائِهم، لا نريد أن نعيد في أذهانهم أشياء مضت وولت.

الآن لنعد إلى الاجتماع يا ماري.

عادا بالفعل إلى الأولاد.. على كرسيه جلس ديفيد شاهين ثم بدأ:

- لقد وعدتكم أن تكون أهدافنا مشتركة، ولن نخطوا خطوة واحدة إلا معًا، لقد حققتم ما أردته منكم، ولم تسألوا عنه، والآن دعوني أقول لكم ما حدث بالضبط.

قبل عدة أشهر اقترحت صوفيا عليّ أن نطلب انضمام أحد المستثمرين المصريين إلى مجموعتنا، في البداية لم أفهم سر هذا الاقتراح، لكن وبحكم علاقتي القوية بها لم أمانع، وعرضت الطلب على رئيس المجموعة

الذي أعمل معها السيد بيربتوف، قُوبل الاقتراح بالرفض نظرًا لأن ثروة المستثمر ونفوذه أقل من الانضمام لنا، خصوصًا إن في هذه المجموعة أكبر رجال الأعمال في أوروبا، لم يهدأ بال صوفيا، وحاولت أكثر من مرة دون جدوى، حتى قررتْ أن تساعد هذا المستثمر وترفع من ثروته، هنا شاركتني تفاصيل عمله في مصر، وبدأت بالتعرف على كل أفراد أسرته من بعيد، أتابعهم وأعرف أخبارهم، عرفت الجانب السيء والوجه الحقيقي لهذه العائلة، لكنني لم أعرف سر إصرار صوفيا على انضمام هذا الرجل للمجموعة، حتى قرر الرجل أن يصاحب رجلَ أعمالٍ معروف وعضوًا برلمانيًا مصريًا سابقًا، يُدعى يوسف المهندس، بهذا التحالف ارتفعت أسهم الرجل الذي أرادته صوفيا، كان إصرار صوفيا غريبًا حتى ظللت أبحث عن سر هذا الإصرار، وبعد فترة اعترفت أخيرًا إن بينها وبين هذا الرجل علاقة جنسية، وابنة غير شرعية.

نظر الأولاد لبعضهم البعض، فواصل ديفيد:

ـ الرضيعة التي معنا الآن، والتي أصريتُ وأكدت على مروان ألا يقتلها، هي دارين، الابنة الغير شرعية لصوفيا ومكرم أبو العزم عم داليدا.

فوجئ الجميع بما قاله ديفيد.. وصعقت داليدا مما سمعته، نظر ديفيد إليها:

ـ الآن أصبحتِ تملكين دارين ابنة عمك الذي أذاكِ، وأخت الشاب الذي اغتصبك وشردك وتزوج حبيبتك يا ياسين.. بهذه البساطة وهذا التعقيد.

الثالثة صباحًا.

الغرفة مُظلمة تمامًا، لا يقطعها إلا ضوءٌ أحمر خافت، كل شيءٍ هادئ في المكان، لا يقطع الصمت إلا أصوات أقدام خطواتٍ في الغرفة، الرضيعة تبكي، والأقدام تقترب نحوها.

تقترب الأقدام أكثر.

تهمس السيدة:

«سيكون كل شيءٍ على ما يرام».

الرعد يثير فزع الرضيعة.

تهمس السيدة:

«لا تقلقي، قلت لك سيكون كل شيءٍ على ما يرام».

اقتربت السيدة من الرضيعة، لفت يديها حول عنق الرضيعة وضحكت:

«ألم أقل لكِ سيكون كل شيءٍ على ما يرام؟».

فجأة صوت يظهر من خلف الباب:

- توقفي! توقفي!

الثالثة والنصف صباحًا.

خلف الستار وقفت السيدة أمام مرآتها تتمايل وتلعب في خصلات شعرها وتضحك، وفي يدها زجاجة نبيذ.

أنا أجمل منها، وفية عنها، وأحبه أكثر منها، أنا أستحقه أكثر منها، لقد تحملت معه ما لم يتحمله أحد، تحملت بؤسه واكتئابه وشقاءَه، وتحملت لحظات ضعفه وانهياره، أنا أستحق البقاء بجواره، أستحق أن يقع في غرامي.

أخرجت السيدة صورة الفتاة، وبدأت في إحراقها وهي تتحدث إليها:

«لم تنتهِ القصة بعد، لم تنتهِ، لن أتركه لكِ مهما حدث ومهما طال المطال، بيننا خلاف أبدي لا صُلح فيه، بيننا خلاف أبدي لن ينتهي أبدًا، لم تنتهِ القصة بعد».

الرابعة صباحًا.

وقفت أمام مكتبتها تتحدث إلى نفسها:

«لقد قضيت أيامي أعمل وأكد طوال الوقت من أجل تحقيق كياني، انعزلت طرق الهوى، وأغلقت أمام الحب كل الأبواب المواربة، نزعت من مشاعري العاطفة، وعاهدت نفسي ألا أبلغ حتى أبرح في الحياة مجدًا، قرأت آلالف الكتب، وحضرت مئات

المحاضرات، وعلى جدران غرفتي عشرات الشهادات العلمية، أتحدث الفرنسية والإسبانية والعربية، سافرت أغلب بلدان العالم، أصبحت مثالًا يُقتدى به في القوة والنجاح، لكن دعوني أقول لكم الحقيقة:

أؤمن إن النجاح أمرٌ حتميٌّ ضروريٌّ لمواصلة الحياة، لكن أؤمن أيضًا إن الحب هو الحافز الأعظم لمواصلتها بطريقةٍ ألطف، فهم واستيعاب أحبائنا، وطريقة التعامل معهم حين تشتد الدنيا عليهم أهم وأعظم من مئات الكتب التي قرأتها، كل اللغات التي تعلمتها صماء ما دمت لا تعرف كيف تعبر عن مشاعرك، تُعلم لسانك كيف ينطق كلمات اللين والود والمواساة، كل اللغات التي أنطق بها لا تغني عن لسانٍ يعبر عما نشعر به في الحب والحزن والتعب، كل اللغات التي أعرفها لا تساوي كلمة طمأنينة في قلبٍ يرتعد، لا تكفي أمام كلمة أمل في قلبٍ يائس، لا تُغني عن كلمة تداوي جراح قلبٍ يتألم، ولو كنت تملك في كل بلدةٍ قصرًا ولا تملك مكانًا واحدًا يتسع لك حين يضيق بك العالم، حضنًا يعانق مأساتك وأحزانك ويحميك من العالم؛ فستقضي أيامك مُغتربًا ولاجئًا، ستقضي أيامك غريبًا عن العالم، فقيرًا لا تملك رقعة واحدة في الأرض تتكئ عليها، وتنهار بكامل حريتك وإرادتك، لا يكفي أن تكون مشهورًا ما دام لا أحد يعرفك أعز المعرفة، يعرف عن لحظات تعبك وانهيارك، يبحث عنك حين تغيب عن العالم، يحفظ تفاصيلك ويدون لحظات إنجازاتك البسيطة، لا يكفي أن تكون مشهورًا ما دمت لا تملك

شخصًا واحدًا يعرفك ويؤمن بك، تبكي أمامه بلا خجل، تُحدثه عن الأشياء التي تزعجك وأنت تثق إنه لن يسخر منها، تعترف له عن الأخطاء التي اقترفتها دون أن تخشى أن يُغيِّر صورته الجميلة عنك.

ثمة من لم يتركوا في العالم أثرًا، ثمة من لم يفكروا من الأساس في تغيير العالم، كانوا أبسط من هذه الأفكار، لكن ومع ذلك عاشوا حياةً هادئة سعيدة، النجاح أمر رائع، ولذة تستحق الركض في الحياة لأجلها، لكن الناس لا يموتون حين يفقدون قدرتهم على النجاح.. الناس يموتون حين يفقدون قدرتهم على الحب».

وقفت السيدة أمام أحد الكتب وقرأت:

«كُنت لا أريد من العالم إلا أنت.. أعطاني العالم كل شيءٍ إلا أنت».

صبت لنفسها كأسًا من النبيذ، ثم وقفت أمام أحد الصور المُعلقة:

«تريد الحقيقة؟ لم أكره في حياتي مثلما كرهتك.. أنت سبب خرابي وحطام قلبي.. أنت السبب في تدمير حياتي».

أخرجت من دولابها مُسدسًا.

«جميل أليس كذلك؟».

وضعت الطلقات بهدوء.

ابتسمت وهي تقول:

«ولنا عودة».

وخرجت من الغرفة.

الخامسة صباحًا.

العالم مشوش.

كل أضواء المدينة خافتة، والهواء يصل لرئتيه بصعوبة، ضجيج وصراخ في رأسه، أطرافه ترتعش، والعرق ينصب من جسده بلا توقف، أريد أن يتوقف العالم، قالها وهو يترنح على الأرض، معدته تتقلص أكثر، صوت آذان الفجر رسالة من الله لنعيد التفكير في أخطائِنا، لكن يبدو إن الوقت قد فات؛ فلم يعد لسانه يقوى حتى على نطق أبسط الكلمات.

صوت أحد أصدقائِه:

- هيًا يا رجل، كُف عن هذه الحركات التمثيلية.

العالم يضيق في عينيه.

صوت صديقٍ آخر يقترب منه:

- يبدو إن الأمر حقيقي.

في رأسه الصراخ يزداد.. يفقد تدريجيًا الوعي.. أنفه مُلتهبة، مُلطخة بالمسحوق الأبيض «الهيروين».

يترنح أكثر على الأرض.

يزحف.

يزحف.

فتاة ترتدي فستانًا ورديًا مغطاة العينين تلوح له.

أب يترك العسل على جسده العاري.

يجبره على الوقوف بهذا الوضع أمام الشمس حتى يأكل الذباب جسده.

أطفال يقفون هناك يسخرون منه.. ويلقون عليه الأطعمة.

ـ أيها الفاشل الضعيف.

يزحف الشاب.

الجرعة الأخيرة.

ـ كفاك يا رجل!

صوت أحد أصدقائه:

ـ قلت لك هو يمثل كالعادة.. أنفه الصغير يشتاق لجرعةٍ إضافية.

صوت أغانٍ مزعج.

الأذان يقطعها.

أغاني أكثر ضجيجًا تسيطر.

الصداع يتملك من رأسه.

يريد أن يخلع رأسه.

هذه الآلام في قلبه لا يتحملها.

الجرعة الأخيرة.

وضع أنفه أمام سطر الهيروين.. وبشراسةٍ استنشقها.

العالم يضيق.

الأصوات تزداد في رأسه.

أطرافه ترتعش.
أنفاس متقطعة.
وصمت.

«يا حبيبي كل شيءٍ بقضاء..
يا حبيبي كل شيءٍ بقضاء..
ما بأيدينا خلقنا تعساء..
ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم..
بعدما عز اللقاء».

على صوت أم كلثوم العذب جلست بملابسها المهترئة وجدران غرفتها المُتهالك، ونافذتها التي تحمل هواءً معبئًا برائحة القمامة ودخان الحشيش.. وبأنامل مرتعشة كتبت:

«حين كنت طفلة كنت أرى الحياة وردية اللون، أرى كل الوجوه جميلة، وكل الأصوات عذبة، وكل الكلمات صادقة، كنت أتابع العالم من شرفتي وأتمنى أن أكبر سريعًا، أن أكون فردًا من أولئك المارة الذين بإمكانهم الخروج في أي وقتٍ وأي مكان، كانت أقصى أحلامي أن أذهب للتسوق وحدي أو أعبر الطريق وحدي، أحلام بسيطة وجميلة كانت تشغل رأسي الصغير، ومع مرور الأيام والسنين، تغيَّرت أحلامي ونظرتي للحياة، لـم تعد وردية كما كانت، بل أصبحت رمادية حزينة وكئيبة يملؤها الشوك، وما إن تحاول الاقتراب منها

حتى تغرز أشواكها السامة في جسدك فتتعفن، علمت إن الخروج ليس للتنزه، بل إنك تُجبر كل يوم على الخروج من منزلك لبدء مهام يومك العادية وأنت فاقدٌ لرغبة النُهوض من على سريرك، تُجبر على الخروج للبحث عن قوت يومك حتى لا يأكل الجوع معدتك، أو تجبر على الخروج للركض في طريقٍ فُرض وأجبرت عليه، ولا تملك رفاهية التوقف أو العودة خطوة للوراء، الكثير من الأصوات حولنا تسبب الصداع في رأسك، لكن أشد الأصوات إزعاجًا هي تلك التي لا يسمعها أحد في رأسك، والكلمات التي كانت تعجبنا ونخجل من سماعها في الأفلام والمسلسلات، باتت مثيرة للضحك والسخرية، أنا خائفة، أرى الناس وحوشًا يترصدون للانتقام مني على ذنبٍ لم أقترفه، أنا خائفة، أرى مخالب ملطخة بالدماء حين تبتسم النَّاس لي، لم أنم منذ فترةٍ طويلة، كلما حاولت النوم شعرت بأيدي تتسلل على جسدي، كلما اختليت بنفسي رأيت شخصًا ما يتابعني، أنا أشعر به، أشعر بوجوده حولي، أشعر بأنفاسه، لم يصدقني أحد، لكن هذه هي الحقيقة، أسمع أصواتًا غريبة؛ أصواتًا تناديني بأسماءٍ غريبة، أرى في منامي أشياءً لا يصدقها عقل، أرى نفسي عروسًا لرجلٍ ليس بشريٍّ، أرى احتفالاتٍ في أرضٍ مختلفة، أرى نفسي وسط جنسٍ آخر مختلفًا عنا، أنا مريضة، هذه الأصوات تطاردني في كل مكانٍ، ليس بإمكان أحد إنقاذي، أستيقظ كل يوم وأنا مُبللة بالنشوة، وعلى جسدي علامات تدل على ليلةٍ ساخنة قضَّيتها مع رجلٍ آخر، أمي تتهمني بالفجور، أقسم لم يلمسني أحد، أقسم لا زالت أحتفظ

بعذريتي وغشاء بكارتي، أن أكون عاهرة كما تقول أمي أفضل عندي مما يحدث لي، أنا خائفة، أنا خائفة، هذا العالم أكبر مني، ما أشعر به أكبر مني».

فجأة توقفت الفتاة عن الكتابة.. تنهدت ثم بخطٍ أعرج كتبت:

«ها هو يقترب مني.

ها هو يبتسم ويقترب.. شكله غريب.

يبتسم ويفتح ذراعيه.

يرتدي عباءةً سوداء، وملامحه حادة مهما ابتسم.

عيناه ثابتتان.

يقترب ويناديني.

بلغوا أمي إنني لم أفعل هذا.. إنما الشيطان قد فعل».

توقفت الفتاة عن الكتابة.

وقفت على سور شرفتها:

ـ إن اقتربت سألقي بنفسي.

تتنهد وتبكي:

ـ ابتعد أرجوك.. ابتعد، أقسم سألقي بنفسي.

وفجأة..

صوت ارتطامٍ بالأرض.

في صالة الغداء تحركت الفتاة المُهذبة.

دفعتها سيدة في الخمسين:

ـ هيًا يا مُستجدة، أنتِ لستِ في مطبخ منزلك.

صمتت الفتاة ولم ترد.. جلست على أحد الكراسي.. وبدأت تأكل بهدوء.

اقتربت منها السيدة الثمينة:

ـ تأكلين بطريقةٍ مثيرة للشفقة، سأعلمك كيف تأكلين.

أمسكت العجوز رأس الفتاة ووضعته في الطبق.. ثم قالت ساخرة:

ـ هل تعلمت الآن؟!

ضحك الجميع، نهضت الفتاة وهي تبكي، منكسرة ومنهارة.

هذا الوضع الجديد عليها لا تتحمله.

اختبأت عن عيون الناس وواصلت البكاء.

الأكل الساخن يحرق وجهها، والحزن والخيبة يأكلان قلبها. المسكينة!

بعد منتصف الليل، وحين نام كل من في العنبر، سمعت الفتاة صوت السيدة وهي تستحم.

بأطراف قدميها تحركت نحوها، اقتربت أكثر، وضعت السلك في مفتاح الكهرباء، وأمسكت بالطرف الآخر.

سمعت صاحبة الخمسين عامًا صوتًا في الخارج:

ـ من بالخارج؟

لم يرد أحد.

ضحكت الفتاة.

كررت السيدة سؤالها:

ـ من في الخارج؟

فتحت الفتاة الباب، وفي يدها طرف السلك ووضعته على العجوز العارية المبللة

ـ أنا الموت.

على ساحل نابولي أشعل مروان سيجارته الملفوفة بالحشيش، وأخذ يتحدث مع ديفيد:

ـ لقد أنجزنا خطواتٍ مهمة.

ـ لكن الأهم لم يأتِ بعد.

ـ تُرى هل سيحاسبنا الله على كل ذنبٍ حدث تحت إدارتنا؟

ـ لا.

ـ لماذا؟

ـ لم نُجبر أحدًا على القتل، إنما أعطينا له حرية الاختيار.

ـ لكنك وضعت لهم الأسباب المنطقية لأفعالهم.

ـ لكني لم أجبرهم عليها.. ألم يميز الله الإنسان بالعقل عن سائر مخلوقاته؟ إذًا كل شخص منا مسؤول عن اختياراته وأفعاله وتصرفاته، الظلمّ أن تتهم إبليس بذنب إنسانٍ عاقل، إبليس لم يقتل، إنما الإنسان فعل.

ـ إذًا لماذا سيقبع إبليس في الجحيم؟

ـ لتمرده على الله من بداية خلق بني آدم، لكنه لن يحاسب على قتل إنسانٍ لإنسانٍ آخر، ولن يُحاسب على كل الجرائم التي قام بها البشر من قتلٍ وذبحٍ وسرقة واغتصاب.

ـ الإغواء أخطر سلاحٍ عرفته البشرية.

ـ النفس الضعيفة فقط هي من تكون ضحيةً للإغواء، ما دمُت عاقلًا وراشدًا فكل اختياراتك ومواقفك أنت مسؤول عنها، وتُحاسب عليها، لكن آل آدم يضعون الشيطان شماعةً لأخطائِهم حتى يرضون ضمائرهم.

ـ أنت تُعارض سياسة الثواب والعقاب؟

ـ أنا أعترض على غرور وكبرياء بني آدم، ميزهم الله بالعقل، وأسكنهم الأرض، ووهبهم كل شيءٍ في الكون، ومن ثمَّ لا يتحملون وذر أخطائِهم، يبحثون دائمًا عن مبررٍ وحجةٍ ترضيهم، وتجعلهم يواصلون هذه الأخطاء بسذاجة، أنا أعترض على مبدأ إن البشر أبرياء من الكبائر، وإن اللوم كل اللوم على إبليس، هذا

ما لم يستوعبه منطق أو عقل، نحن أيضًا شركاء في كل هذا، بل نحن العنصر والفاعل والشريك الأكبر والمسؤولين كل المسؤولية عن جرائمنا.

ـ تُرى ماذا سيقول إبليس يوم عَرض جرائم البشر؟

ابتسم ديفيد ثم قال:

ـ أنا بريء من كل هذا كـ براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

عاد ديفيد إلى المنتجع، طلب من ماري أن تُحضر مساعدها، بعد دقائق دخلت ماري ومساعدها إلى غرفة ديفيد شاهين، شاور لها بالخروج، فخرجت ماري.

جلس مساعد ماري أمام ديفيد وظل يتأمله، قال ديفيد وهو يبادله النظرات:

ـ أعرف الكثير عنك، نحن نملك أفكارًا متشابهة، لكن ظروف حياتنا تختلف.

رد مساعد ماري:

ـ لا أحد يشبهني، ولا حتى أنت.

ابتسم ديفيد:

ـ أنا أثق إنك أهم مكاسبي في الفترة الأخيرة، لذلك ينتظرك عمل شاق في الفترة القادمة، وأعلم كل

العلم إن لك خبرةً واسعة في طريقة اقتناص عملائنا وشركائنا.

دون أن يبتسم قال مساعد ماري:

ـ وأنا أثق إن وجودي معك سيكون مكسبًا كبيرًا لك، في مصر وفي مجتماعات وسط البلد يعرفونني جيدًا، واختيارك لي كان لسُمعتي الكبيرة هناك، لذلك ومن بين الجموع.. اخترتني أنا، سراج سقراط.

الخاتمة

الآن يمكنني أن أناديك بعزيزي؛ لأنك تحملت كل هذا الشقاء في هذه الصفحات دون أن تمل أو مزقت الرواية، لقد كانت رحلتنا شاقة وصعبة، لكن لا تنسَ أنت هنا بإرادتك ورغبتك الحرة، حتى الجرائم التي حدثت تمت تحت موافقتك وإشرافك، وكنتَ شاهدًا عليها بالصمت.

الآن لنسترح قليلًا، ولنعد لعالمنا الواقعي.

العائلة تحتاج أفرادًا جُدد ينضمون إليها، سنبدأ نحن رحلةً في البحث، بينما استمتع أنت براحتك، لكن احترس! فقد تجد أحد أعضاء عائلتنا شخصًا ما من أصدقائك أو أقاربك أو معارفك أو تكون أنت بطلًا معنا في الجزء الثاني من هذه الرواية.

لذلك ابقَ في وضع الانتظار.. واحترس!

فـ ديڤالو يراك دائمًا.